خوان خوسيه ساير

المولود من ذي قبل

رواية



خوان خوسيه ساير

المولـود من ذي قبل

رواية

ترجمها عن الإسبانية

محمد الفولي





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

Originally published as *El entenado* in Buenos Aires, Argentina, in 1982

ساير، خوان خوسيه.
المولود من ذي قبل: رواية / خوان خوسيه ساير؛ ترجمها عن الإسبانية محمد الفولي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778638066
١- القصص الأرجنتينية.
أ- الفولي، محمد (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٦٣١٧ / ٢٠٢٢

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إلى لورانس جيجين.

«... أما ما وراء ذلك، فيعيش الأندروفاج(1)، وهم شعب منعزل، ومن بعدهم تأتي الصحراء الشاسعة...».

هيرودوت، الكتاب الرابع، ١٨

أكثر ما بقي في ذاكرتي من هذه السواحل الخاوية هو رحابة السماء. لقد شعرت أكثر من مرة بأنني ضئيل تحت زرقتها الممتدة، إذ بدَوْنا، ونحن في هذا الشاطئ الأصفر، نملًا في وسط الصحراء. إذا كنت الآن، وأنا عجوز، أقضي أيامي في المدن، فهذا لأن الحياة فيها أفقية، ومرد هذا أن المدن تجعل السماء تتوارى، على عكس الحال هناك، حين نمنا ليلًا، وسط الخلاء، وكادت النجوم أن تسحقنا. لقد بدت بضخامتها وعددها الذي لا حصر له، كأنها في متناول أيدينا. لم تفصل بين كل واحدة والأخرى سوى ظلمة صغيرة وكادت أن تطق شررًا، كأن السماء جدار بركان نشِط ممتلئ بالثقوب، وتشف فتحاته عن اضطرامه الداخلي.

دفعني اليُتم إلى الموانئ. رائحة البحر والقنب الرطب، والأشرعة البطيئة المنتصبة التي تبتعد وتدنو، وأحاديث البحارة العجائز، وشذا البهارات المتنوع، والبضائع المتراكمة، والبغايا، والكحول والقباطنة، كلها أمور احتضنتني. باتت لي منزلًا، وعلمتني، وأعانتني على النضج، فشغلت ـ منذ أن بدأت ذاكرتي تتشكل ـ مقام الأب والأم. عملتُ مرسالًا بين البغايا والبحارة وبالمثل حمَّالًا. اعتدت أن أبيت أحيانًا في بيت بعض الأقارب وفي أغلب الأوقات فوق أكياس المخازن. تركت طفولتي تدريجيًّا، حتى جاء اليوم الذي دفعَت فيه إحدى البغايا مقابل خدماتي معاشرة مجانية ـ هي الأولى لي ـ ثم كافأني بحار على هِمتي برشفة من الكحول. بهذه الطريقة أصبحت، كما يقولون، رجلًا.

لم تعد الموانئ تكفيني، إذ اشتهيت أعالي البحار. تنسب الطفولة جهلها الشخصي وحماقتها إلى تعنُّت العالم، فيحسب من فيها أن الفاكهة ألذ وأوقع؛ وأن الشمس أكثر صُفرة وأرحم، وأن كلمات البشر وأفعالهم أسهل فهمًا، وأعدل وأوضح، هناك، بعيدًا، عند الضفة الأخرى للمحيط وللتجربة. انطلقت مُتحمسًا بفعل هذه القناعات ـ وهي أيضًا إحدى تبعات البؤس ـ في مسعاي كي أصبح صبيَّ بحَّار، من دون أن أشغل نفسي بالمصير المحدد الذي سأختاره، لأن كل ما اهتممت به آنذاك هو الابتعاد عن مكان وجودي نحو أي نقطة مملوءة بالحماس والمتعة فوق الأفق الدائري.

راجت بلاد الهند في تلك الحقبة، بعد أن مرت عشرون عامًا على اكتشاف إمكانية الوصول إليها عبر الغرب. عادت السفن من هناك إما محملة بالتوابل، أو في حالة مزرية يُرثى لها بعد انحرافها عن مسارها في بحار مجهولة. لم يجرِ الحديث في الموانئ عن أي شيء آخر، بل في بعض الأحيان أضفى هذا الشأن طابعًا مخبولًا على محادثات الناس ونظراتهم، فالمجهول فكرة تجريدية والمعروف صحراء، أما ما هو نصف معروف ـ ذلك المستشَف ـ فهو مكان مثالي لتماوج الرغبة والهلوسة. اختلطت بين أفواه البحارة كل الأمور: الصينيون والهنود ووجود عالم جديد والأحجار الكريمة والتوابل والذهب والجشع والخرافات. لطالما جرى الحديث عن مدن مرصوفة بالذهب، عن جنة فوق الأرض، عن وحوش بحرية تنبثق فجأة من الماء وتختلط على البحارة مع الجُزُر إلى درجة أنهم يرسون فوق ظهورها، ويُعسكرون بين تعرجات جلودها الحجرية الحرشفية. لطالما

استمعت إلى هذه الشائعات بدهشة واختلاج، معتقدًا، مثل كل الأطفال، أنني مقدَّر للمجد ومحصَّن ضد كل الكوارث، ومع كل رواية سمعتها ـ سواء مفرحة أم مخيفة ـ تعاظمت رغبتي في الإبحار. في النهاية، جاءت الفرصة، لمَّا نظم قبطان من كبار ربابنة المملكة بعثة إلى جُزر الملوك، وتمكنتُ من الالتحاق بها.

ليس أمرًا صعبًا، فعلى الرغم من كثرة الأحاديث في الموانئ، لم تَحضُر إلا قلة قليلة في ساعة الإبحار. لاحقًا سأفهم السبب. المهم أنني حصلت، من دون أي صعوبات، على وظيفة صبي البحَّار في سفينة القيادة، الكبرى بين السفن الثلاث التي شكلت البعثة. حين ذهبت لأسجل التحاقي بالطاقم، بدا كأنهم في انتظاري. استقبلوني بأذرع مفتوحة، وأكدوا لي أننا سنبحر في رحلة ممتازة، وسنعود بعد عدة أشهر من بلاد الهند محملين بالكنوز. لم أجد القبطان، إذ انشغل لحظتئذٍ بأمرٍ ما في البلاط الملكي وتوقعوا وصوله في يوم رحيلنا. خصص لي ضابط التجنيد فراشًا في عنبر البحارة، وأخبرني بأن أمثُل أمامه لاحقًا لتلقي التوجيهات المرتبطة بوظيفتي. خلال الأسبوع السابق للرحيل، نزلتُ إلى البر بصورة شبه يومية، لإتمام مهمات تخص الضباط، بل حتى البحارة، من دون أن أتلكأ في الشوارع والحانات، لأن وظيفة صبي البحَّار ملأتني بالفخر ووددت أن أنفذها على أكمل وجه.

في النهاية، جاء يوم الرحيل. ظهر القبطان عشيتئذٍ مع حاشية وقورة، وتفحص برفقة مساعده كل السفن حتى آخر رُكن فيها. لما بتنا في عرض البحر اجتمع مع البحارة والضباط على سطح السفينة، وألقى خطابًا موجزًا بجَّل فيه الشجاعة، وحب الرب، والمَلِك والعمل. إنه رجل متقشف، ومختلف، لا غلاظة فيه، ورؤيته يعمل أحيانًا فوق سطح السفينة بهمة البحارة ذاتها أمر ممكن. وقف أحيانًا وحيدًا، فوق معبر القيادة، ونظرته ثابتة في الأفق الخاوي، فبدا كأنه لا ينظر لا إلى البحر ولا إلى السماء، وإنما إلى شيء ما بداخله، كأنها ذكرى لا تنتهي؛ أو ربما أن خواء الأفق وجد لنفسه مستقرًّا بداخله فأبقاه هناك وقتًا من دون أن يرمش، متحجرًا في مكانه. عاملني بطيبة وشرود، كأن أحدنا ليس موجودًا. بالنسبة إلى طاقم السفينة، احترمه، من دون أن يخافه، وعلى الرغم من أنه عمل بأدق التفاصيل على تطبيق قناعاته، تلك التي بدت متجذرة في ذاكرته، بدا منفصلًا عنها. ربما قد يُقال إنه يوجد قبطانان: ينقل أولهما من دون شك الأوامر الصادرة من التاج الملكي بحذافيرها، ويظل الثاني ينظر إلى نقطة خفية بين البحر والسماء، من مكانه فوق معبر القيادة، وهو ثابت ومتحجر.

استغرقت الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر وسط هذه الزُّرقة الرتيبة. توغلنا، بعد أيام قليلة من مغادرة الميناء، في البحر الملتهب، حيث أدركت للمرة الأولى حقيقة هذه السماء اللامتناهية التي لن تنمحي من ذاكرتي أبدًا. كان البحر نسخة أخرى منها. بدت السفن ـ وكل منها وراء نظيرتها على مسافة واحدة ـ كأنها تجتاز ببطء فراغًا داخل نطاق أزرق شاسع يسودُّ ليلًا ويصبح مثقوبًا بنقاط مضيئة

في أعلاه. لم نرَ سمكة، أو عصفورًا، أو سحابة. شكلت ذكرياتنا مستقرًّا للعالم المعروف كله، وصرنا ضامنيه الوحيدين في هذه البيئة الملساء الزرقاء المتسقة. برهنت الشمس يومًا تلو الآخر على وجود شيء مغاير، بحُمرتها وهي في الأفق، وتوهجها وصُفرتها وهي في أوجها، لكن واقعية هذا الشيء المغاير بدت ضئيلة. بعد مرور عدة أسابيع، نال منا الهذيان: لم تعد قناعتنا المُفردة وذكرياتنا المحضة أساسًا كافيًا. فقد البحر والسماء اسميهما ومعنييهما، وكلما اخشوشنت حبال وخشب دواخل السفن وأشرعتها، ازدادت صلابة الأجساد التي تتجول فوق أسطحها، وارتفع الشك حول وجودها نفسه. ربما بدا للحظات أننا لا نتقدم، وأن السفن الثلاث قد التصقت فوق هذا الفراغ الأزرق في صف غير منتظم، وكل منها بعيدة نوعًا ما عن الأخرى. تغيرت الألوان فقط كلما ظهرت الشمس في الأفق وراء ظهورنا، وكلما غطست في الأفق المقابل لمقدمات السفن الثابتة. لطالما تأمل القبطان، من مكانه فوق معبر القيادة، هذه التغيرات اللونية وكأنه مسحور. ربما، وبلا شك، وصل الأمر بنا أحيانًا إلى تمني أن يظهر لنا أحد هذه الوحوش البحرية التي ملأت أحاديث الموانئ، لكنَّ أيًّا منها لم يظهر.

تنتظر صبي البحَّار مصائب إضافية في هذا الوضع شديد الغرابة، إذ يؤدي غياب النساء رويدًا رويدًا إلى إبراز ملامحه الصبيانية المُلتبسة الناجمة عن ذكورته غير المكتملة، فيغدو ذلك الشأن الذي يُفكر فيه البحارة من أرباب العوائل المحتشمين بنفور وهم في الموانئ أمرًا طبيعيًّا بمرور الوقت أثناء الرحلة، تمامًا كما يحدث مع مُناصِر المِلكية الشخصية حين ينخر الجوع مبادئه، فلا يرى دجاجة جاره إلا وهي منتوفة الريش ومشوية. يجب أيضًا إيضاح أن اللطف ليس خصلة رئيسية في هؤلاء البحَّارة، إذ حدث أكثر من مرة أن ارتكز إعلان حُبهم الوحيد على وضع سكين فوق حنجرتي، فاضطررت إلى الاختيار بين شرفي وحياتي، من دون أي احتمالات أخرى. كدت مرتين أو ثلاثًا أن أشكو للقبطان، إلا أن تهديدات خُطَّابي الحاسمة ردعتني. في النهاية، اخترت التوافق والتآمر، بحثًا عن حماية الأقوى، ومحاولًا الانتفاع من الوضع. أفادني تعاملي مع نساء الميناء في نهاية المطاف، لأنني أدركت عبر حدس الطفولة، وأنا أراقبهن، أن بيعهن لأنفسهن ليس إلا طريقتهن في النجاة، وأن الشرف ينخسف في هذا الطريق أمام فن التخطيط. كذلك، ما من لزوم للذوق الشخصي ومشتملاته في هذا الشأن. إن رذيلة البشر الأساسية هي رغبتهم في أن يظلوا أحياء وفي صحة جيدة أمام كل الصعوبات وتجديد تصوراتهم عن الأمل بأي ثمن. وددت أن أصل إلى هذه الأقاليم الشبيهة بالفردوس، ولهذا استمررت في التنقل من يد إلى أخرى. ينبغي لي القول إن علاقتي مع هؤلاء البحَّارة ـ الذين لديهم شيء من خصال الأبوة بالنسبة إلى يتيم مثلي ـ قدمت إليَّ متعة ما في بعض المرات، جراء وضعيتي الملتبسة كفتًى أمرد، وبينما كنا في وسط هذا الذهاب والإياب، أبصرنا البر.

صارت سعادتنا مهولة. وصلنا، منشرحي الصدر، إلى ضفاف مجهولة تُبرهن على تنوع العالم.

ساعدتنا هذه الشواطئ الصفراء المحاطة بالنخيل، والخاوية وسط ضوء الظهيرة، على نسيان الرحلة الطويلة الرتيبة الخالية من الأحداث التي خرجنا منها كمن يخرج من حقبة جنون. رحبنا عبر صرخاتنا المتحمسة بكل الاحتمالات. انتقلنا من النسق الواحد إلى تنوع الحدث. تحول سطح البحر أمام أعيننا إلى رمال يابسة، وإلى أشجار مهدت من بعد شفير الماء لمشهد طبيعي وعر التضاريس بوهداته ورُباه وأحراشه. وجدنا طيورًا وبهائم وكل أنواع معادن الأرض الشاسعة السخية ونباتاتها وحيواناتها. بات أمامنا بر ثابت وبدا لنا زرع هذياننا فيه أمرًا ممكنًا. مع ذلك، لم يُشاركنا القبطان، الذي راقبنا من معبر القيادة، حماسنا، كأن الأمر لا يخصه. ظل يتأمل طاقم الملاحة والمشهد الطبيعي في الوقت ذاته، من دون أن يرى فعلًا هذا أو ذاك. ارتسمت في نظرته، لا على فمه، ابتسامة بعيدة مُتمعنة. بسبب تعبيره هذا، ازداد عمق التجاعيد الموجودة حول عينيه، في وجهه الذي التهمت لحيته ملامحه. بينما نقترب من الضفة، ازدادت غبطة طاقم الملاحة. بدت هذه المنطقة الأرضية الوديعة طيبة، ونهاية للهموم والشكوك، بل أكثر من ذلك، حقيقية. أمر القبطان بإلقاء المرساة وتحضير الزوارق للتوجه برًّا. لم ينتظر الكثير من البحَّارة ـ بل حتى بعض الضباط ـ تجهيز الزوارق، إذ قفزوا في الماء من فوق سور السفينة وتوجهوا إلى الشاطئ سباحةً. وصلوا قبل الزوارق، وظلوا، ونحن نتقدم، يشيرون إلينا ويتواثبون عند الضفة ويهزون أذرعهم والماء يسيل منهم وهم نصف عراة وسعداء. إنه البر الثابت.

لما وصلنا، تفرقنا كحيوانات في فرار جماعي. انطلق البعض يركض من دون هدف: في خط مستقيم وفي كل الاتجاهات. ركض آخرون في دوائر، داخل مساحة محددة، وقفز غيرهم في أماكنهم. أشعلت مجموعة منهم بؤرة نيران كبيرة وظلوا يتأملون نيرانها التي خفت لهيبها وسط ضوء الظهيرة. قرب شجرة، أخذ عجوزان يناكفان قرب إحدى الأشجار طائرًا كبيرًا لم يحسم قراره بخصوص طيرانه وهو يزعق ويقفز من غصن إلى آخر. في الخلف، عند الأرض الداخلية، طاردت مجموعة من الرجال أحد الطيور الدجاجية متعددة الألوان قرب سفح ربوة. تسلق البعض الأشجار ونبش آخرون الأرض، فيما تبول أحدهم في الماء وهو يقف عند ضفته. فضَّل آخرون، بطريقة غير مفهومة، البقاء في السفينة وظلوا يتأملوننا من بعيد، وهم يستندون إلى سور السفينة. حين أمسى اليوم اجتمعنا كلنا على الشاطئ حول النيران التي طُهيت فوق جمراتها منتجات صيد البر والبحر. لما حل المساء، أضاءت شعلات اللهب الوجوه الملتحية والمتعرقة للبحارة الذين جلسوا في دائرة. بدأ أحدهم، وهو رجل عجوز، يغني، فرافقناه بضربات أيدينا. بعدئذٍ، وبينما تخبو النيران تمكن الإرهاق منا شيئًا فشيئًا. تمايلت رؤوس البعض وهم يجلسون، فيما رقد آخرون على جانبهم فوق الرمال الفاترة، وذهب البعض الآخر، عند سفح ربوة أو أسفل شجرة، بحثًا عن مكان للاحتماء من الطل. استقل عشرة أو اثنا عشر شخصًا زورقًا وتوجهوا ليناموا في السفن. وجد الصمت له مستقرًّا في الشاطئ، وبغرض المزاح الصرف، أطلق أحد البحارة ريحًا طويلة استقبلها

الموجودون بضحكاتهم. رقدت فوق ظهري وبدأت أتأمل النجوم. امتلأت السماء بها، لأن القمر لم يظهر. إنها نجوم صفراء، وضاربة إلى الأحمر والأخضر. إما أومضت بوضوح، وإما ظلت ثابتة، وإما التمعت. انزلقت إحداها، بين الحين والآخر، وسط الظلام وهي ترسم منعطفًا مضيئًا. بدت أنها في متناول اليد. سمعت قبلئذٍ ضابطًا يقول إن كل واحدة منها عالم مسكون، كعالمنا؛ وإن الأرض مستديرة وتطفو هي الأخرى في الفضاء، كنجمة. اختلجتُ وأنا أفكر في حجمنا الحقيقي، خاصة وأن هذه النجوم المسكونة من بشر مثلنا لا تبدو حين يُنظر إليها من الشاطئ، إلا نقاطًا صغيرة مضيئة.

في اليوم التالي، أيقظتني أصوات صاخبة. تناقشُ الربابنة والبحارة على الشاطئ، جماعة تقف والثانية تقرفص. تناثروا فوق الرمال وتحدثوا بصوت مرتفع، لكنه تحت السيطرة، كأنهم يكبحون غضبهم. صبغت الشمس البحر بالحُمرة، وكست بالسواد أطياف السفن التي برزت تحت أشعتها الأولى. جاء أمر الإبحار الفوري من السفينة الرئيسية، بتوجيه مقدمتها نحو الجنوب. الأرض التي وطئتها أقدامنا ليست بلاد الهند، وإنما عالم مجهول. علينا أن نبحر بمحاذاة هذه السواحل لنصل إلى بلاد الهند التي تقع وراءها. تواجهت مجموعتان في هذه المناقشة. امتثلت الأولى منهما إلى أوامر سفينة القيادة، أما الثانية المكونة من ضابطين وخمسة عشر بحارًا، فتمسكت بالبقاء على الأرض التي وقفنا عليها والانطلاق لاستكشافها. استمروا في هذا الشد والجذب قرابة الساعة. لما اهتاجت أنفسهم، توجهت أيديهم سريعًا نحو مقابض سيوفهم، كأنها مسألة غريزية، وبين الحين والآخر، أفلتت أصواتهم التي سيطروا عليها بصعوبة، شتائم وعبارات انفعالية.

لما تحدث أفراد المجموعة الأولى، استمع إليهم الآخرون وهم يهزون رؤوسهم من دون أن يعتنوا حتى بالإنصات إلى حججهم، في إشارة إلى رفض ما يقولونه بداية من عباراتهم الأولى. لما انتقلت الكلمة إلى المجموعة الثانية، نظر من في المجموعة الأولى إلى بعضهم البعض وابتسموا بازدراء وبطريقة استعلائية. في لحظة معينة، نهض المتمردون ـ فثلاثة أو أربعة منهم جلسوا فوق الرمال ـ وتراجعوا بضع خطوات وامتدت أياديهم إلى سيوفهم. جهز الآخرون أيضًا أسلحتهم من دون أن يتقدموا. التمع البرونز والصلب تحت أشعة الشمس. تلألأت الخوذ المعدنية بومضات عابرة، كلما هز الرجال رؤوسهم بغضب. بعد هذا العرض الزائف للشجاعة وقفت المجموعتان، لم يفصلهما عن بعضهما سوى بضع خطوات. تأملت كل منهما الأخرى وأيدي كل من فيهما تقبض على السلاح. امتدت الظلال الصباحية الطويلة الهزيلة لمن يودون الامتثال إلى الأوامر وانكسرت أطرافها بين سيقان خصومهم.

بدت المعركة وشيكة، إلا أن أحد المتمردين، الذي نظرت مجموعته إلى البحر، هتف وهو يغمد سيفه:

ـ القبطان!

وبدأ يضرب ردفيه وبقية جسده بكفيه، بذهول لا يخلو من التسرع، لينفض الرمال التي التصقت بملابسه.

تقدم الزورق، والقبطان يقف فوقه بين المُجدفين مباعدًا بين ساقيه، بثبات وعزة واطمئنان، ويده اليمنى عند مقبض سيفه الذي تدلى من فوق خاصرته اليسرى. لو أن جسده تأرجح، فقد فعلها بنفس إيقاع الزورق، كأن قدميه مغروزتان في قاعه. تبين أن الحال ليست هكذا، حين وصل الزورق إلى الضفة. وضع القبطان قدميه فوق البر، بعد أن مر من فوق رؤوس المُجدفين برشاقة وجسد منتصب، وبدأ في السير بخطى حاسمة فوق الرمال من دون أن يتوقف لحظة واحدة. أصدرت فردتا حذائه، وأسلحته، ومجوهراته، وعملاته الذهبية ضوضاء معدنية إيقاعية ومتكررة. استبقه ظله الطويل، منزلقًا فوق الأرض الصفراء. انتظرنا في وقوفنا على الشاطئ، ونحن نراه يتقدم، أن يصل إلينا وأن يبدأ واحدة من خطبه الشاردة، لكنه على عكس المأمول لم يتوقف، حين وصل إلى مكاننا، ومضى قُدمًا وهو يتجاهلنا من دون أن يغير خُطاه إطلاقًا. حينئذٍ، تمكنَّا من التحقق من أن نظرته الثابتة الأبية، التي ظننا في البداية أنها استقرت فوقنا منذ بدأ الزورق يبتعد عن السفينة، تحدق أصلًا في الأشجار التي تنمو عند سفح الربوة، حيث ينتهي الشاطئ وتبدأ الأحراش. حدق بشدة في تلك النقطة إلى درجة أن كثيرًا منا نحن الموجودين على الشاطئ، أداروا رؤوسهم بفضول أو مندهشين في الاتجاه نفسه، حين رأوا القبطان يمضي في طريقه، لكننا لم نتمكن من رؤية شيء خارج الإطار الشائع، على الرغم من استقصائنا للنقطة المقصودة وحتى سبرنا لأغوارها، إذ رأينا فقط قطاعًا أخضر من النباتات والربوة الخضراء الناشئة التي تستهل الغابة. مضى القبطان في طريقه لمسافة لا بأس بها، بخُطاه الوقورة المنتظمة، إلى أن توقف في النهاية بطريقة مفاجئة، من دون أن يُغير سلوكه، وتبنى وضعية السكون التام. ظننت في البداية ـ لا بد أن كثيرًا ممن في الشاطئ قد ظنوا مثلي ـ أن القبطان وضع، وهو يتقدم، اللمسات الأخيرة على خطابه وأسبغ بالكمال العبارات والأفكار التي يفكر في توجيهها ونقلها إلينا، وأن مسألة تجاهله لنا ليس لها هدف سوى اكتساب الوقت والانتهاء من صقل خطابه الذي سيبدأ في إلقائه لدى وصوله إلى أقصى نقطة في مساره، بعد استدارته على عقبيه برشاقة واستئناف مسيرته في الاتجاه المعاكس. لكن، على الرغم من ترقبنا، لم يستدر على عقبيه، إذ ظل القبطان ثابتًا، كسارية، وظهره لنا، وهو ينظر بلا شك، من دون أن يرمش، إلى النقطة المبهمة نفسها الواقعة بين الأشجار المنتصبة عند حافة الأحراش. استمر سلوك القبطان هذا خمس دقائق على الأقل. نسيَ الواقفون على الشاطئ، المتمردون والأوفياء منهم على حد سواء، النقاش الذي تواجهوا فيه قبلئذٍ بلحظة، وبعد بضع دقائق من الانتظار بدأوا في استجواب بعضهم بعضًا بنظراتهم. أمامهم بعدة أمتار، ظل ظهر القبطان ثابتًا وصلبًا. ظللت أنا أنظر، بالتبادل، إلى هذا الظهر الساكن، ومجموعتَي البحَّارة المفصولتين برمال خاوية انطبعت فوقها الظلال الطويلة لأولئك الموجودين قرب الضفة، ومن ورائهم إلى الزورق

الموجود داخل الماء الذي انتظر فيه المجدفون برباطة جأش، وبعيدًا في النهاية، إلى السفن الثلاث التي بدأت أشرعتها تسطع تحت أشعة الصباح. لم تهب أي نسمة، وعلى الرغم من أن الشمس ظهرت للتو، فإن أشعتها شرعت تؤجج هذا الساحل الخاوي. لم تُسمع أيضًا أي ضوضاء، بخلاف صوت الأمواج شديدة الرتابة والاعتيادية ـ التي لم تستدعِ أن نعيرها انتباهنا ـ وهي تنكسر عند الشاطئ فتشكل خطًّا شبه دائري من الزبد الأبيض، وتهز الزورق والمجدفين بصورة إيقاعية ودورية. وحَّد الترقب بين البحَّارة الذين تجمدوا في ذهولهم المشترك. في النهاية، حدث شيء ما بعد دقائق الانتظار هذه التي لا تُطاق: أفلت القبطان، وظهره لا يزال لنا، تنهيدة صاخبة وعميقة وممتدة، تردد صوتها جليًّا وسط هذا الصباح الصامت، فاختلج من بعدها جسده الصلب والمتين. مر نحو سبعين عامًا على ذلك الصباح ويمكنني أن أقول، من دون أدنى مبالغة، إن الطابع الفريد لعمق ومُدة هذه التنهيدة قد خلَّف داخلي انطباعًا حاسمًا لن يفارقني حتى مماتي. محت هذه التنهيدة تعبير الاندهاش من على وجه البحَّارة وأفسحت مجالًا لبوادر الذعر. إن شعور ملاقاة أغرب وحوش هذه الأراضي المجهولة، كان ليُصبح، أقل في صدمته من هذه التنهيدة الكئيبة. بعدئذٍ على الفور، نفذ القبطان في النهاية، استدارته المنتظرة، وبدأ يركض في الاتجاه المعاكس صوب الزورق، وهو يمر إلى جوار البحارة، من دون أن يلاحظ وجودهم أصلًا، ورأسه يهتز وحده ولحيته غاطسة في صدره. لما اعتلى الزورق، مر من فوق رؤوس المُجدفين، وظل واقفًا وسطهم حين بدأوا التجديف. بدأ الزورق، باهتزازات بطيئة، يبتعد عن الضفة أو يقترب ـ في وصف آخر ـ من السفن الساكنة. نسي البحَّارة بالكامل، ومن دون أدنى تعليق، خلافهم ووضعوا سيوفهم في أغمادها، من دون أن يتحدثوا أو أن يجرؤوا على النظر إلى أعين بعضهم بعضًا، وشرعوا يسيرون نحو الزوارق الخاوية التي تمايلت عند طرف الشاطئ الآخر.

توجهت السفن الثلاث جنوبًا، وهي تبحر دائمًا بمحاذاة البر الثابت. انحسر الساحل، الذي أبصرناه راسخًا، في بعض اللحظات إلى الوراء قليلًا وتقوس ليتحول إلى شبه دائرة، لكنه في مرات أخرى اخترق الماء بحجارته المؤذية، فدفعنا إلى داخل البحر. لمحنا أحيانًا بهائم وطيورًا وكائنات مُشعرة من رباعيات القوائم وهي ترعى عند الضفة، وقرودًا تتنقل، بأنفة ورشاقة، من شجرة إلى أخرى، وعصافير متعددة الألوان تُحلِّق سريعًا بمحاذاة السفن كأنها مقذوفات، قبل أن تُغير بعدئذٍ فجأة اتجاهها لتختفي في الأحراش. مع ذلك، لم نرَ أثرًا للبشر. لا أحد. لو أن هذه بلاد الهند، كما يُقال، فعلى ما يبدو، أنه ما من هندي واحد يسكنها؛ ما من أحد هنا يدرك وجوده مثلنا ويتقد فيه نفس الضوء الصغير الذي يمنح الحيز المحيط شكلًا ولونًا وحجمًا ويُكسبه طابعًا خارجيًّا.

انتقل القبطان من الشرود إلى الابتعاد، فبدا طافيًا في بُعد لا يمكن الوصول إليه. لم يرَه أحد تقريبًا فوق سطح السفينة في الأيام التي تلت الإبحار. اضطلع مرؤوسوه بكل شيء ولم يخرج هو من قمرته. ظنناه مريضًا في البداية، إلا أن مرتين أو ثلاثًا ظهر فيها طيفه صلب العود، بصورة

سريعة وشاردة، أقنعتنا بالعكس. ذات ليلة، أرسلوني من المطبخ لأقدم له عشاءه، نتيجة لمرض البحَّار المسؤول عن الأمر. لما عدت لرفع الطعام عن المائدة، ظللت أقرع باب قمرته من دون أن أتلقى ردًّا إلى أن قررت الدخول، ظنًّا مني أنه ليس موجودًا، وحينئذٍ اكتشفت أنه في الحقيقة لا يزال يجلس إلى المائدة، وحيدًا، في وسط القمرة المضاءة، وهو يرقب باهتمام السمك الذي قدمته إليه قبلئذٍ ببرهة، وظل من دون مساس فوق طبقه. لم يسمعني وأنا أدخل، أو أنه على الأقل لم يُظهر في تصرفاته أنه سمعني. ظلت نظرة القبطان، المُتقدة والمبهمة في الوقت نفسه، ثابتة فوق السمكة، وبالأخص فوق عينها المستديرة التي لم تتضرر من الطهي فجذبته، على ما يبدو، كحلزون أحمر دوار قادر على فتنته بجموح، على الرغم من افتقاره إلى الحياة.

بينما نُبحر على امتداد الساحل، توغلنا في بحر مياهه عذبة بُنية اللون. بحر هادئ ومُوحش. لمَّا وصلنا إلى إحدى ضفافه، تبينًّا تغير المشهد الطبيعي، واختفاء الأحراش، وتراجع وعورة الأرض، وازدياد تقشفها. استمر الحر وحده، لأن هذا البحر الغريب لم يُخفف من وطأته، على عكس البحر الآخر الأزرق الذي يُرطب شواطئ العالم برياحه التي تهب من الأعماق. سماء زرقاء ومياه بُنية مستوية السطح ضاربة إلى اللون الذهبي، وفي النهاية شواطئ خاوية: هذا هو ما رأيناه، كلما تقدمنا في البحر العذب، وهو الاسم الذي أطلقه عليه القبطان، لما لامسنا البر، بإيماءاته الآلية التقليدية وهو يهتف باسم الملك. من الضفة، رأينا القبطان يتوغل داخل الماء حتى وصل إلى خصره، قبل أن يقطع الهواء بسيفه عدة مرات ويمس به الماء مسًّا خفيفًا، وهو يهتز مع حركات يده الشعائرية. تابعت عيناي المبتدئتان حركات القبطان الدقيقة والمعقدة باهتمام، إلا أنهما لم تتمكنا من إدراك التغير الذي استبقه خيالي. أصرت هذه الأرض البكماء، بعد التعميد والاستيلاء، على عدم إفلات أي علامة أو إرسال أي إشارة. بينما نمضي قدمًا نحو ما افترضنا أنه مصب النهر الذي اصطبغت مياهه باللون البني، ظللت أنظر من القارب إلى النقطة التي نزلنا فيها، وعلى الرغم من أنه لم تمر سوى دقائق قليلة على إبحارنا مرة أخرى، لم يبقَ أي أثر من وجودنا. لا شيء سوى الساحل الخاوي، والسماء الزرقاء والمياه الذهبية. توهمنا أننا نؤسس هذا الحيز المجهول ونحن نمضي في استكشافه، كأنه ما من شيء قد وُجد قبلنا هنا إلا خواء طاغٍ عمَّره وجودنا بهيئة جسدية، لكننا تحققنا حين تركناه خلفنا، وسط حالة الإجلال المهلوسة التي فرضتها علينا رتابة الرحلة، من أن هذا الحيز، الذي ظننا أنفسنا مؤسسيه، موجود هناك منذ الأبد، وأنه قد سمح لنا باجتيازه بلامبالاة، من دون أن يُظهر أي إشارات على مرورنا، بل إنه أصلًا التهم الإشارات التي تركناها كي يتعرف علينا من سيأتون لاحقًا. كلما هبطنا من السفن، بدونا كإحساس خاطف بالخدر منبعه العدم أو حمى قصيرة الأجل تظهر كسراب لبضع لحظات عند حافة المياه قبل زوالها. لما دخلنا النهر الجامح الذي شكَّله المصب ـ الذي علمت لاحقًا أنه واحد من ضمن أنهار كثيرة ـ أبحرنا بضعة فراسخ، وتسببنا في إفزاع الببغاوات التي عششت في وهدات حمراء

التربة ونوعًا ما في إيقاظ تجمعات التماسيح البطيئة عند الضفاف المستنقعية. ما من مثيل لرائحة هذه الأنهار فوق هذه الأرض. إنها رائحة الأصل. رائحة تكوين مُجهد وحثيث. رائحة النمو. يبدو الخروج من البحر الرتيب والتوغل فيها أمرًا كالانتقال من دهليز الجحيم إلى الأرض. بدا الأمر كأننا كدنا نرى الحياة وهي تتشكل من الطحالب المتعفنة، والطين النباتي وهو يحتضن ملايين من المخلوقات الضئيلة العمياء التي لا شكل لها. اسوَدَّ الهواء حول المستنقعات بفعل البعوض، ولم يؤدِّ غياب البشر إلا إلى تزايد وهْم الحياة الأولية. هكذا، أبحرنا طيلة يوم كامل تقريبًا إلى أن توقفنا في النهاية مع حلول المساء وسط هذه الضفاف البدائية. قرر القبطان تأجيل نزولنا إلى اليوم التالي بدافع الحيطة، خوفًا من الحيوانات المفترسة، أو من أي بشر، أو من أي مخاطر لا اسم لها.

ما أتذكره دائمًا من هذا اليوم، على الرغم من مرور السنوات هو مذاق الفجر: الأصوات التي لا تزال جشاء بفعل النوم، والضوضاء الأولى التي تخلق وسط العتمة حيزًا طنانًا، وكينونة المرء ذاتها وهي تنهض بمشقة من الأعماق وتعيد، وسط الفجر البريء، بناء النهار الوشيك، حين تهزها يد قد استيقظت بالفعل. من أيقظني هذه المرة بحَّار؛ مجرد عجوز كئيب. شكلتُ جزءًا من ضمن مجموعة ستنزل البر مع القبطان في بعثة استقصائية. بينما ننتهي من ارتداء ملابسنا، بدأنا نتجمع فوق سطح السفينة، ونحن نصف ناعسين، حيث انتظرنا القبطان بالفعل والفجر المشعشع الأزرق يحوطه. وسط هذا الظل المشعشع، لمعت نجمة الصباح، وهي راسخة وضخمة، فوق الحبال والصواري التي ارتسم طيفها بوضوح. كنا أحد عشر شخصًا باحتساب القبطان، وتوجهنا في زورق واحد نحو الضفة الغربية. ما زلت قادرًا على تذكر أننا ونحن نُجدف ونبتعد عن السفن، ابتعدنا أيضًا عن البقعة الحمراء التي صبغت السماء، عند الضفة المعاكسة، وراء الأشجار. لامسنا الأرض، حين بدأ النهار تقريبًا. زاد وجودنا في الشاطئ الطيني من صخب الطيور. تحركنا ونحن مكشوفون أسفل ضوء الصباح. استغنى القبطان عن سلوكه الآمر بالكامل وتبنى، من دون تواضع، دهشتنا وحذرنا. بدا استغناؤه عن مفهومه عن صرامة القيادة كأنه يضعه في حالة تأهب حيوانية قد تسمح له بمواجهة ما تُخبئه هذه الأراضي المجهولة بشكل أفضل. توغلنا بين الأجمات، بعد أن ألقينا نظرة بطيئة بلا هدف حولنا، وتركنا وراءنا النهر الذي تمايل الزورق فوقه. غطت الأجمات أجسادنا في بعض اللحظات وفي أحيان أخرى وصلت إلى منتصفها تقريبًا. اضطررنا أحيانًا إلى اجتياز غابة صغيرة من الأشجار القزمة التي تمازجت بين أفرعها نباتات لبلاب وطيور مغردة. في النهاية وصلنا إلى مرج مقفر أرضه جرداء وضاربة قليلًا إلى الصُّفرة ومنحولة من دون شك بفعل درجات الحرارة العالية. وعلى الرغم من أن الشمس المرتفعة أضاءت كل شيء، إلا أنها لم تجعله أكثر قربًا وحضورًا. مع انتصاف الصباح باتت السفن الموجودة وراءنا مجرد ذكرى مُستبعدة في نهر مزعوم. ظللنا ساكنين بضع دقائق ونحن نتأمل في توافق تام المشهد الطبيعي ذاته الذي لم نعرف هل اجتازه آخرون غيرنا، وهل سيزول أم لا ـ كوهم لحظي ـ من وراء ظهورنا،

حين نستدير. سرنا نحو ساعتين أو ثلاث ساعات، ولأن عودتنا كانت ستستغرق المدة نفسها، استدرنا وبدأنا نمضي في صمت في الاتجاه المعاكس ونحن نتعرق، والشمس أمامنا. مثَّل إدراكنا وهذه الأرض شيئًا واحدًا، وبات تخيله من دونها أمرًا مستحيلًا، والعكس أيضًا صحيح. لو أننا فعلًا البشر الوحيدون الذين اجتازوا هذه الأجمات المتفحمة منذ بداية الزمن، فإن تصورها في غيابنا، وكما استقبلتها حواسنا، أمرٌ صعبٌ جدًّا، كتصور إدراكنا ذاته من دون هذه الأرض الخاوية التي ملأته باستمرار. سطعت الشمس المتفردة في سماء زرقتها شديدة الحدة، فبدا للحظات كأن أمواجًا هائجة ومتغيرة تقطعها في صورة تشظيات متوهجة حول نقطة مركزية قاحلة. بدا القبطان مفزوعًا، هذا لو أنه يُمكن الحديث عن الفزع في حالة اليقين المفرط التي ـ مع ذلك ـ يغيب عنها الخوف. لقد خرجت منه الكلمات القليلة التي نطقها، بصوت مكسور وضعيف وقريب من النحيب. خلَّف العرق الذي سال من جبينه وخديه وضاع في أدغال لحيته بقايا رطبة وقذرة ذكرت المرء تلقائيًّا بالدموع. الآن، بما أنني عجوز، وبما أن أعوامًا كثيرة قد مرت على ذلك الصباح المضيء، أظن أنني أفهم أن مردَّ مشاعر القبطان في لحظة الدنو الحرجة تلك هو تحققه من خطأ في التقدير ظل يرتكبه بخصوص وضعيته الشخصية طوال حياته. تعرَّت كينونته نفسها، في ذلك الصباح الخاوي، بالطريقة ذاتها التي لا بد أن كينونة الأرنب البري تتعرى بها ـ وفق فهمه الضئيل من دون شك ـ حين يتعثر في أحد أركان الحقل، بفخ الصياد.

في ذاكرتي، وصلنا إلى الساحل قرب منتصف الظهيرة والشمس متعامدة فوق السفن والماء. إنه السكون التام وسط الضوء الحارق، ووجود الأشياء الصارم والمُعضل في حيزها المبهر. توقفنا فوق الطين الجاف، ونحن نلهث ونتعرق، بعد أن بزغنا فجأة من بين الأجمة أمام من نظروا إلينا من السفن. بدا القبطان حائرًا ـ ربما من خلو البعثة من المفاجآت ـ فأخَّر صعودنا إلى السفينة، وهو ينظر ببطء في كل الاتجاهات ويجيب بكلمات شاردة أحادية المقاطع على العبارات التي وجهها إليه رجاله. استدار القبطان، ونحن عند شفير الماء، وتراجع بضعة أمتار، ثم أخذ يهز رأسه وعلى وجهه تعبير شخص يوشك على إظهار قناعة عميقة تُصر المظاهر على إخفائها. بينما هو في خضم هذا، لم يتوقف عن استقصاء الأجمة، والأشجار، وتضاريس الأرض، والماء، أما نحن فانتظرنا حائرين حوله. في النهاية، قال ناظرًا إلينا وعلى وجهه تعبير القناعة والريبة ذاته:

ـ إنها أرض من دون...

فعلها وهو يرفع ذراعه ويهز يده، ربما في محاولة لتدعيم صحة الحقيقة المؤكدة التي استعد لإبلاغنا بها. «إنها أرض من دون...»، هذا هو ما قاله القبطان بالضبط، حين اخترق السهم حنجرته فجأة وبسرعة شديدة، آتيًا من الأجمة التي انتصبت وراء ظهورنا، فتجمد بضع لحظات وهو مفتوح العينين وسط إيماءته المُعلِنة، قبل أن يسقط أرضًا. لم يحدث شيء، طوال جزء من

الثانية، إلا تيقني الذاهل من أن كل من رافقوا القبطان، باستثنائي أنا، باتوا يرقدون أرضًا، بلا حراك، بعد أن اخترقتهم في أجزاء مختلفة ـ بالأخص في الحنجرة والصدر ـ أسهم يبدو أنها بزغت من العدم كي تسكن بدقة في أجسادهم الغافلة. وقع الحدث الذي ستتحدث عنه المملكة بأكملها ـ وربما أوروبا كلها ـ في حضوري من دون أن أتمكن أصلًا من الارتعاش بسبب معناه المُرعب، بل إنني وبكل تواضع لم أعِ أصلًا أنه يحدث أو حدث للتو. تقتصر ذكراي الباقية من تلك اللحظة على شعور الغرابة الذي داهمني، لأن ما تلاها كان مُدوِّخًا. تجلى وضعي الشخصي، في ظرف ثوانٍ قليلة، في وضح النهار: اختفى يقين التجربة المشتركة مع موت هؤلاء الرجال الذين شاركوا في البعثة، وبقيت أنا وحيدًا في هذا العالم لتسوية كل المشكلات العويصة التي يفرضها وجوده. استمرت هذه الحالة زمنًا قليلًا. بزغت زمرة من الرجال العراة أصحاب البشرة الداكنة من الأجمة وهم يشهرون أقواسهم وسهامهم. بينما انشغلت مجموعة منهم بجمع الجثث، أحاطت بي بقيتهم. تزاحموا حولي وأشاروا إليَّ بأصابعهم قبل أن يلمسوني بلطف وحماس، وسط ضحكات راضية تنم عن الإعجاب. أخذوا يتفوهون، مرة تلو الأخرى من دون توقف، بالأصوات السريعة الزاعقة نفسها التي قالت:

ـ ديف-جي! ديف-جي! ديف-جي!

استمرت هذه الحال أيضًا مدة قصيرة. كان إحساس الطفو والوجود في مكان آخر أقوى من الفزع. رفع الرجال العراة ذوو البشرة الداكنة الجثث، قبل أن أدرك، وقبل أن أتمكن أصلًا من الالتفات برأسي لإلقاء نظرة على السفن التي، إن لم أخطئ، فقد ظلت واقفة في وسط النهر، وتوجهوا نحو الأجمة وهم يركضون برشاقة بعد أن أخذوني معهم، كأن هذا لا يُكلفهم جهدًا يُذكر، فوجدت نفسي بهذه الطريقة مجبرًا على الركض وقتًا لا يقل عن ساعة، مع هنديين صلبَي العود يحوطانني وكل منهما يمسكني من ذراعي، لا بقسوة، وإنما بصلابة، وهما يُرشدانني بمهارة عبر تضاريس الأرض، لكن من دون أن يتحدثا معي أو ينظرا إليَّ ولو مرة واحدة. بدا الأمر كأنهما يحفظان كل شجرة، ودرب ودغل. لما توقفا بعد ساعة قرب ضفة جدول هادئ تحت ظل بعض الأشجار، لم يلهثا أصلًا. لقد أمضيت ساعة كاملة لم أتوقف فيها عن رؤية منظر طبيعي مجهول ظل يتبدل باستمرار بسبب القفزات التي أجبرني عليها ركضي المستمر، بصورة جعلت كل ما أراه حولي مرتعشًا ومشوهًا وقادرًا على الانتقال عموديًّا وأفقيًّا، كأن كل الأشياء مكونة من عدة طبقات متماثلة سيئة التراكب من صدأ النحاس، وبعدئذٍ، لم يبدُ لي أقل غرابةً وتفردًا أن أرى جزءًا آخر من هذا المشهد المجهول، وهو في حالة سكون.

بينما شرعت مجموعة منهم تتناقش، بإيماءات متنوعة وموزونة، تحت الأشجار التي نَمت عند ضفة الجدول، ألقيت جسدي أرضًا وأنا ألهث وسمعت قلبي وهو يدق بقوة داخل صدري. بدا أن

الأشخاص الذين يتناقشون تحت الأشجار يتحدثون عني لأن نظراتهم توقفت أحيانًا عندي بإمعان، وكأنهم يقررون مصيري. لا يزال انعدام وعيي يُذهلني حتى يومنا هذا، إذ لم أفكر إطلاقًا ـ وسيثبت الزمن أنني مُحق ـ أن نصيبي سيُشبه القبطان وبقية زملائي. الحقيقة أن تفرد وضعي، الذي تشابه في نواحٍ كثيرة مع ما نمر به أثناء الأحلام، جعل إدراكي يتعامل معه وكأنه بعيد عني، أو كأن شخصًا آخر يعيشه، فبالطريقة نفسها التي نسمع بها مغامرات لا تخصنا، أو الطريقة نفسها التي نواجه بها أخطارًا لا نُبالي بها في الأحلام، رأيت أنا هذه الزمرة من الرجال العراة وهذه الجثث المتراكمة وكأنها صورة بعيدة، ومن دون صلة تجمعها بواقعي الشخصي أو ما اعتبرته حتى تلك اللحظة تجربتي. حين تعافيت قليلًا من إنهاكي، اعتدلت وبقيت جالسًا على الأرض، وأنا أنظر حولي. وكما هي الحال كلما خوى عقلي، بدأت أعدُّ بصورة آلية؛ لكنهم اختلطوا عليَّ لأن جميعهم عراة ومتشابهون، ولأن بعضهم تحرك من دون توقف في ذهابهم نحو ضفة النهر، واقترابهم من المجموعة التي تتداول فيما بينها، ودورانهم لتفقد جثث القبطان وزملائي، ودنوهم مني لمراقبتي باهتمام مهذب لبضع دقائق. مع ذلك، خلصت عبر استئناف العد عدة مرات، وإخضاعه لعمليات تحقق متباينة، إلى أنهم أربعة وتسعون واحدًا. في اليوم التالي، تمكنت من العد، وخلصت إلى نفس النتيجة: كلهم ذكور. ليسوا شبابًا جدًّا أو عجائز جدًّا. من تداولوا تحت الشجر لم يتجاوز عددهم العشرين رجلًا، أما بقيتهم فظلوا في ذهاب وإياب حولي.

يوجد سبب آخر لهدوئي غير المألوف وهو الكياسة المستمرة التي اقترب بها الهمج مني، إذ لمسوني عامة بأنامل أصابعهم الممتدة وهم يوجهون إليَّ كلماتهم. إنها كلمة واحدة، مُقسمة إلى صوتين مختلفين يسهل التعرف عليهما. استخدموها لمخاطبتي أو الحديث عني. بوجه عام، صاحب هذا اللفظ: «ديف-جي، ديف-جي» ـ الذي قيل مرة تلو الأخرى بصوت سريع زاعق ـ ضحكات عذبة، وقهقهات، وملامسات حنونة مبتهجة في الكتفين والذراعين والصدر، واستطرادات عرضية لا بد أنها استهدفتني، لأن أصابعهم الداكنة لم تتوقف عن الإشارة إليَّ. في بعض المرات، احتبى أحد هؤلاء الرجال العراة الأرض وبدأ يوجه إليَّ نظرات مُلحة وحالمة. جلب بعضهم إليَّ الماء والفواكه التي نظرت إليها في البداية بريبة، وانتهى بي المطاف وأنا ألتهمها. شجعني آخرون، بإيماءات مُهذبة ومبالغ فيها، على الجلوس تحت ظلال بعض الأشجار المجاورة إلى اجتماع المتداولين، وهذا لأن الهنديَّين اللذين مضيا بمحاذاتي طوال مسيرة الركض تركاني تحت شمس القيلولة. لما تفهمت الدعوة وتوجهت إلى الشجرة، قطع أحد الهنود غصنًا وشرع يكنس الأرض به كي أجدها نظيفة عند جلوسي.

استمر نقاش ما تحت الأشجار عدة ساعات. دخل المتحدثون في بعض اللحظات في حالة سُبات فبدوا كأنهم فقدوا خيط خُطبهم المسهبة ونعسوا في وسطها، قبل أن يستأنفوها بعدئذٍ بوقت طويل، إرضاء لحالة الترقب العام التي لم تَظهر أي مؤشرات على زوالها أثناء فترات صمتهم الطويلة.

بدا السُّبات وكأنه يُشجع المتحدثين ويشحذ اهتمام مُحاوريهم الساكنين. في النهاية، حين بدأت الشمس تميل ـ لا أن تغطس في الأفق كما يجب وإنما أن ترسل ضوءًا رفيعًا لونه أصفر ضارب إلى الخُضرة ـ قررت المجموعة إنهاء اجتماعها، فبدأ رجلان أو ثلاثة في الهتاف لجمع الرجال المتفرقين، في حين شرع آخرون يرفعون الجثث، واستأنفنا الركض، بعد أن عاد الهنديان اللذان حرساني قبلئذٍ إلى مرافقتي، وكل منهما عند جانب مختلف.

تجلى احترام الهنود تجاه شخصي مجددًا ونحن على هذه الطريق، إذ أمسكني من كوعَي الاثنان اللذان أحاطا بي سلفًا، من دون غلاظة أو التفوه بأي كلمة، ورفعاني بضعة سنتيمترات من فوق الأرض لكيلا تلمسها قدماي، فوفرا عليَّ بهذه الصورة عناء الركض. شرعت أركل الهواء في البداية لأنني لم أدرك ما يودانه، لكنني حين فهمت مقاصدهما، بقيت متيبسًا، بساعدين مرفوعين، وأصابع مضمومة، وساقين عديمتَي النفع ملتصقتين ببعضهما، وذراعين منفصلتين نوعًا ما عن بقية جسدي، فاستند مرفقاي من دون جهد ـ بصورة يُمكن وصفها بالطبيعية ـ فوق أيديهما القوية التي رفعتني. كانت مهارة هذين الرجلين اللذين دعماني كبيرة، إلى درجة أنني لم أشعر أحيانًا في جسدي بدقدقة أقدامهما العارية فوق الأرض، ولم أعانِ هكذا أي اضطراب بصري، انساب المشهد على كلا الجانبين بسكينة هائلة، كأنني أتنقل فوق سطح يخلو من التضاريس الوعرة. كلما بدأت دقدقة أقدامهما مجددًا، شعرت بحركة أيديهما الحديدية في كوعَي وهي تسعى لتصحيح وضعيتي وإعادة تكييفها لتجنب انتقال الاهتزازات التي لم يبدُ أن لها أثرًا كبيرًا في جسديهما. استغرقت هذه المسيرة الراكضة يومًا كاملًا، من دون توقف واحد. في الحقيقة، إنها هرولة هادئة جدًّا ولها إيقاع معين بدا هذا الطابور من الرجال معتادًا عليه، إذ لم ينشز أحد منهم عنه. بعد بضع ساعات، صارت هذه الهرولة الماهرة ذات النسق الواحد، رتيبة، إلى درجة أنني نمت حين أمسى اليوم. أيقظني سطح أبيض وضَّاء تماوج كشعلة راسخة وتأخرت في إدراك أنه القمر. تنفس من يحملانني وسط العتمة من دون مجهود، وبطريقة تكاد ألا تكون مسموعة. لم تكن الضوضاء الناجمة عن اصطدام الأقدام العارية للأربعة والتسعين رجلًا بالأرض مرة تلو الأخرى إلا مجرد طقطقة تختفي فورًا وسط العتمة. بعدئذٍ، جاء الفجر واختفى القمر الهائل من وراء ظهورنا: الفلق، ومن بعده الصباح، فالشروق. توقفت الشمس للحظة فوق رؤوسنا وهي تصعد من ورائنا، ثم بدأت تهبط ببطء أمام عيوننا، إلى أن هزل ضوؤها مرة أخرى، مكتسبًا تلك الصبغة الصفراء المائلة للخضرة، فتوقفنا آنذاك عند أعلى نقطة في جرف، قرب ضفة نهر هائل، مياهه داكنة أو ذهبية. إنه نهر عريض جدًّا إلى درجة أن العديد من الجزر الصغيرة بزغت في منتصفه. التمعت شمس المساء فوق المياه وأفلتني حارساي، فلمست الأرض. دار شيء ما داخل رأسي ببطء، متأرجحًا، ورافقه كل ما هو موجود حولي في هذا الذهاب والإياب، فجلست أرضًا لكيلا أنهار. لو أن مسعى هذه الأرض هو التناسب مع أنهارها، فحلها الوحيد أن تغدو بلا نهاية، لأن أنهارها الأبية أعطت

انطباعًا يقارب حد النشوة بذلك.

كانت الأرض، التي اجتزناها في هرولة لم تنقطع، مرتفعة نوعًا ما وممتلئة بتموجات متناغمة وتقطعها جداول مائية اضمحلت بوداعة في بعض اللحظات لتسمح لنا بعبورها، أما ما ظهر من أعلى نقطة في الجرف من وراء النهر الجامح وجزره الصغيرة، فبدا ضئيلًا ومن دون تضاريس تراها العين؛ مجرد سهل لونه أخضر ترابي ممتد في الأفق باستمرار، ولا شيء يُخالفه سوى السماء. جرجرت خطاي إلى حافة الجرف، ومكثت مدة مُعتبرة وأنا أتأمل المشهد الطبيعي والرجال الذين بدوا كأنهم يستعيدون أنفاسهم وهم يفترشون الأرض أو وهم يتمشون على امتداد ضفة النهر الذي احتضر هناك في الأسفل، عند سفح الجرف. هنا، أحصيتهم مرة أخرى: إنهم أربعة وتسعون رجلًا. بعد يوم واحد من رؤيتهم للمرة الأولى، بت معتادًا جدًّا عليهم كما اعتدت زملائي والقبطان، والسفن التي باتت تبدو لي كبقايا غير مترابطة من حلم لا أتذكره جيدًا، وأظن أن هذه هي اللحظة الأولى التي خطرت فيها على بالي ـ وأنا في عمر الخامسة عشرة ـ فكرة باتت مألوفة لديَّ من ذلك الحين: ذكرى الحدث ليست دليلًا كافيًا على وقوعه الحقيقي، تمامًا كما أن ذكرى حلم نظن أننا حلمنا به في الماضي ـ منذ سنوات أو شهور كثيرة قبل لحظة تذكرنا له ـ ليست دليلًا كافيًا على أن الحلم وقع في ماضٍ بعيد، أو على أنه وقع في الليلة التي سبقت اليوم الذي نتذكره فيه، أو على أن الحلم حدث ببساطة ووضوح قبل اللحظة المحددة التي نتصور فيها أنه قد حدث فعلًا. لولا جثثهم المتراكمة عند سفح الجرف، قرب ضفة الماء، لاختفى القبطان وزملائي من حياتي إلى الأبد. لم أحظَ حتى هذه اللحظة بوقت لأشعر بالتعاطف معهم أو حتى مع نفسي. أحسست أنني خفيف، وأنني أكاد ألا أكون موجودًا وتكفلت الأحداث الواهية والعابرة برفعي، كما فعل حارساي بهدوء أعصاب وحسم.

لم تستغرق الراحة وقتًا طويلًا، كأنهم قد تنازلوا واستراحوا مراعاة لشخصي، أو كأن الأمر مجرد إجراء شكلي. أخفى الهنود سلفًا عددًا كبيرًا من الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار المفرغة بين الخُضرة التي نمت عن الحافة المنحدرة للجرف الذي، للحقيقة، وبسبب طوله، كان تلًّا. شرعوا حينذاك يلقونها في الماء بسرعة، ويوزعونها فيما بينهم، وهم يقسمون الجثث عليها. بدت حركة هؤلاء الرجال دائمًا سريعة إلى أقصى حد؛ فبعد يوم واحد من قتل القبطان وبقية زملائي، اجتازوا فراسخ هائلة وهم يهرولون، وارتاحوا بطريقة تقليدية لبضع دقائق، وبمجرد أن انتهوا من إلقاء الزوارق في الماء ـ وهي العملية التي نفذوها تقريبًا وهم يركضون ـ شرعوا فورًا يجدفون من دون راحة بضربات قوية العزم جعلتنا نتقدم نحو الغسق الذي احمرَّت معه المياه. بينما نقطع النهر، قدموا إليَّ أدلة جديدة على التوقير: زورقًا كاملًا لي أنا وحدي، ظل يجدف فيه مرافقاي اللذان لا مناص منهما بنشاط وهدوء أعصاب.

ينبع هذا النهر، الذي اجتزته لأول مرة وسيظل أفقي ومسكني طيلة عشر سنوات، من الشمال،

من قلب الأحراش، ويحتضر في البحر الذي دعاه القبطان المسكين عذبًا. أطلقوا عليه اسم «أبو الأنهار»، والحقيقة أنه وهو يتدفق في مساره يُنجب أنهارًا؛ وهي أنهار تتكاثر بدورها قرب مصبه، وتنفصل في نقطة معينة عن مجراه الرئيسي، وتتدفق عبر عدة فراسخ في مسارات موازية له، قبل أن تتلاقى معه مجددًا في نقطة لاحقة قريبة. أنهار تُنجب أنهارًا تُنجب أنهارًا هي الأخرى، مع هذه النزعة نحو التوالد اللانهائي التي كبحتْها بصعوبة أجراف تلتهمها المياه. إنه نهر متعدد الضفاف ومرد الأمر الجزر المعتمة المُستنقعية التي تُشكل هذه الضفاف. يبدو لون الرجال الذين يسكنون الأماكن المجاورة له كطين الساحل، كأن النهر قد أنجبهم أيضًا، وهو ما سيدفع الأب كيسادا، بعدئذٍ بعدة سنوات، حين يسمع توصيفاتي، إلى قول إنني عشت قرب الفردوس طيلة عشر سنوات من دون أن أدرك؛ وإن لحم هؤلاء الرجال لا يزال فيه بقايا من طينة أول البشر؛ وإن هؤلاء الرجال من دون شك هم ذرية آدم غير المعترَف بها.

بينما نتفادى الجزر أو نلتف حولها، اقتربنا من الضفة المعاكسة التي ارتسمت ظلال أشجارها الساكنة بوضوح وسط المساء. سمعت، أثناء رحلتنا، الضجة الإيقاعية لمجاديفنا وهي تصطدم بالماء، والتي بدت كصدى مقلوب لضجة مجاديف بقية الزوارق، أي أنه أقرب أكثر من كونه أبعد. وصلتني رائحة الوجود البشري من الساحل الذي اقترب منا بسرعة، على الرغم من أنه ما من كائن حي كان قد تراءى لنا بعد. أكد لي الأمر بعض بؤر النار المتفرقة بين الأشجار، لكن لأن وصولنا تزامن مع هبوط الليل لم أتمكن من إدراك وجود الحشد داكن البشرة المجتمع عند الشاطئ، إلا حين لامسنا البر. بدأ رجال، ونساء، وأطفال، وعجائز يصلون إلى نطاق الشاطئ من منطقة بؤر النار الواقعة وراء الأشجار، وتمكنت من تمييزهم عبر لمعان بشرتهم الداكنة، وثرثرتهم التي لم تنقطع، وملامساتهم الناعمة الموزونة التي استهدفتني لاحقًا لما نزلت إلى البر، وأخرجني منها حارساي وهما يُحكمان إمساكي من كوعَي ويقودانني نحو المساحة الواقعة وراء الأشجار التي اشتعلت عندها بؤر النار. اللفظ الوحيد الذي أشار إلى شخصي وتمكنت من التعرف عليه وسط الثرثرة السريعة والزاعقة التي ترددت من وراء ظهري ووصلتني بين الفينة والأخرى وأنا أبتعد هو «ديف-جي، ديف-جي، ديف-جي». قِيل بنبرات متباينة، وسط أصوات ذات امتدادات مختلفة شكلت العبارات التي تبادلها عدة أشخاص وتلفظوا بها. قادني الهنديان، فاجتزت الأشجار ووصلت إلى مكان بؤر النار التي اشتعلت وسط المساحات الخاوية في هذا النجع غير المتناسق بامتداده الكبير. تحدثت ثلاث نسوة عجائز بوداعة، وهن جالسات قرب النيران أمام أحد الإنشاءات. لما رأيننا ونحن نأتي، توقفن عن الكلام، وخاطبَت إحداهن حارسَي باهتمام فاتر، وهي تشير إليَّ برأسها وتستفهم عبر تعبيرات وجهها وإيماءة ترتكز على ضم أنامل إحدى يديها بالكامل وهزها بضع مرات في اتجاه فمها المفتوح، في إشارة إلى فعل الأكل، فأجابها أحدهما بحسم:

- ديف-جي.

لما سمعنه، اتسعت أعين العجائز بصورة هائلة واندهاش بهيج، وبدأن في هز رؤوسهن وتوجيه الابتسامات العذبة والموقرة ذاتها التي استقبلني بها كل أفراد القبيلة بوجه عام. في النهاية، أدخلني مرافقاي في أحد المساكن، بعد أن التففنا من وراء الإنشاءات التي تحدثت عند بابها العجائز الثلاث.

إن أي حياة ما هي إلا بئر لوحدة تزداد عمقًا بمرور السنين، وبما أنني انتميت إلى العدم أكثر من غيري جراء تيتُّمي، فقد احترزت منذ البداية من ظاهر الصُّحبة التي تُشكلها العائلة، لكن في تلك الليلة صارت وحدتي ـ الضخمة أصلًا ـ هائلة بصورة مفاجئة، كأن قاع هذه البئر التي يغرق فيها المرء رويدًا رويدًا انكسر فجأة وتركني أسقط في العتمة، ولهذا رقدت مكروبًا على الأرض وشرعت أبكي. وبما أنني أكتب الآن ولا يتردد حولي في وسط الليل إلا خربشة قلمي وطقطقة مقعدي، وبما أن ما يُبقيني على قيد الحياة هو تنفسي الهادئ غير المسموع، وبما أنني قادر على رؤية يدي ـ يد العجوز الذابلة التي تنزلق من اليسار إلى اليمين تاركة وراءها مجرى لسائل أسود تحت نور المصباح ـ أُدرك أنه سواء ارتبطت المسألة بذكرى عن حدث حقيقي أو بتصور لحظي قد انصقل للتو بيَد هذيان وديع ليس له ماضٍ أو مستقبل، فإن هذا الطفل الذي بكى وسط هذا العالم المجهول قد حضر ولادته الذاتية من دون أن يُدرك. لا يعرف المرء أبدًا متى يُولد. إن فعل الولادة مجرد اصطلاح. يموت الكثيرون من دون أن يُولدوا، ويُولد آخرون بمشقة، ويُولد غيرهم بصورة سيئة، كأنهم مجهضون. ينتقل بعض الأشخاص من حياة إلى حياة أخرى، بفضل ولاداتهم المتلاحقة، ولولا أن الموت يأتي لمقاطعتهم، لتمكنوا على الأرجح من استنفاد باقة العوالم المحتملة عبر قدرتهم على التوالد مرة تلو الأخرى كأن لديهم مخزونًا لا ينضب من البراءة والتخلي. على الرغم من أنني كنت مولودًا من ذي قبل، إلا أنني وُلدت مرة أخرى، ولم أقدر على فعل شيء سوى الانفجار في البكاء كالطفل الذي يخرج داميًا ومندهشًا من داخل هذا الليل الحالك، الذي هو بطن أمه. في النهاية غفوت، وسط ضجة الأصوات السريعة والزاعقة ورائحة هذا النهر الهائل التي فيها شيء من خصال الأمومة جاءت إليَّ من وراء الجانب الآخر من الأشجار.

أيقظني شيء دافئ: سقطت الشمس مباشرة على وجهي لأنني رقدت على ظهري، ورأسي ناحية الجزء الخارجي من المسكن، قرب مدخله، وساقاي نحو دواخله. بقيت وقتًا كافيًا مُمددًا فوق الأرض، وأنا أعيد بناء الواقع قليلًا، كي أرى ما إذا كنت مستيقظًا فعلًا، وفي النهاية نهضت. انطفأت بؤر النار التي رأيتها في الليلة السابقة وارتفعت الشمس في السماء. إنه ضوء الصيف، وتغريد الطيور، والندى. بينما أحرك رأسي، تفتت الضوء فوق العشب الرطب إلى قطرات مختلفة الألوان ظلت تتلألأ بضآلتها وكثافتها. ارتفع صدى الضوضاء المتفرقة القادمة من النجع نحو السماء ذات الزرقة الحادة والمتساوية واستغرق وقته ليخفت. من وراء الأشجار، ظهر قوم منهمكون في أمورهم، وقبل أن أمضي في طريقي عبر هذا الاتجاه، بقيت بلا حراك للحظة، قرب

كومة الرماد التي كانت عشيتئذٍ بؤرة للنار، وشرعت أنظر حولي. بدا النجع المتفرق والهزيل ممتدًّا في توغله نحو الداخل، ومن حيث أقف أمكن رؤية أجزاء من جدران من الطوب اللبِن وأسقف من القش تتيه بين الأشجار من دون نظام واضح. لم تقطع أي ضوضاء، بخلاف تلك القادمة من الشاطئ، صمت الصباح الهادئ. تسلل ضوء الشمس من بين خُضرة الأشجار الكثيفة، فانطبعت بقع ساكنة ومضيئة هنا وهناك، بين الأوراق وعلى جدار أحد المساكن وعلى الأرض. حين رآني رجل عارٍ بالكامل، وأنا أمضي في اتجاه الشاطئ، توقف لحظة عن اجتياز منطقة الأشجار في الاتجاه المعاكس. كانت يداه وساعداه ملطخة بالدماء إلى ما فوق كوعيه، وبدأ يوجه إليَّ كلامًا بلغته غير المفهومة، بعفوية البحارة ذاتها التي تبادلوا بها معي عبارتين أو ثلاث عبارات تقليدية صباحًا فوق سطح السفينة. لما رأى أنني أفهم قليلًا أو لا شيء مما يقوله، وجه الرجل إليَّ ابتسامة مرتبكة ومهذبة وتوجه نحو النجع. مضيت في مسيرتي بين الأشجار، واثقًا من وجودي بين أناس مضيافين، ومستسلمًا إلى المثالية الوادعة لهذا الصباح. لكنني لما تركت الأشجار ورائي، ونفذت إلى المساحة المفتوحة التي تلألأت المياه وراءها، تمكنت فجأة وبصورة غير متوقعة، من رؤية السبب وراء الضوضاء التي سمعتها منذ اللحظة التي فتحت فيها عينَي.

انشغل المُبكِّرون من أبناء القبيلة ـ وهم خمسة عشر رجلًا عاريًا انقسموا إلى مجموعتين ـ بأداء مهمتين مختلفتين بأسلوب محدد وسريع، كأنها مسألة معتادة بالنسبة إليهم: شيدت المجموعة الأولى باستخدام العصي والجذوع أدوات لم أدرك أنها ثلاث شوايات إلا حين راقبت العمل الذي انشغل به رجال المجموعة الثانية، لأن هؤلاء الرجال ـ الذين انتمى إليهم من دون شك الهندي الدامي البشوش الذي التقيته قبلئذٍ بلحظات تحت الأشجار وتسلحوا بسكاكين صغيرة مصنوعة على الأرجح من العظام ـ كانوا فعلًا يقطعون رؤوس جثث زملائي العارية الراقدة فوق بساط الأوراق الخضراء الضخم الذي افترش الأرض. اصطفت الجثث بدقة، واحتفظ أربع منها برؤوسها التي بدت كأنها تنظر باهتمام كبير إلى السماء الزرقاء، فيما اصطفت الرؤوس الخمسة التي بُترت فعلًا فوق بساط الأوراق النضرة بصورة قد تُعطي انطباعًا بأنها ترتكز إلى لحاها، أما الرأس المتبقي فكان ينفصل لحظتئذٍ وإلى الأبد عن الجسد الذي توَّجَه طيلة سنوات، بفضل سكين العظام الصغير. بدأ اثنان من الهنود، وهما يتسلحان بالسكاكين وفؤوس عادية ـ لكنها فعالة ـ يشقان إحدى الجثث بداية من منطقة ما تحت البطن وحتى الحنجرة. للحظة، تشتت انتباه الهندي وهو يؤدي مهمته في قطع رأس القبطان؛ لأنني تبينت فعلًا حين نظرتُ بإمعان أن لهذا الجسد العاري الذي يُبتر رأسه، ورقد لحظتئذٍ لراحة أكبر فوق ركبتَي ذابحه كطفل ينعس في حجر أمه، طبيعة غائبة تُطابق طبيعة القبطان. أربكته من دون شك، حدة ذهولي الصامت، فوجه إليَّ، وهو يهز يده التي أشهرت السكين، ابتسامة مفعمة بالتعاطف والبساطة، وهتف، مشيرًا بإصبعه إلى الجثة التي يبتر رأسها:

ـ ديف-جي، ديف-جي.

لا بد أن شيئًا سخيفًا سكن تعبيراتي، لأن أحد الرجال الذين يقطعون أوصال الجثة الأولى ألقى تعليقًا بصوت مرتفع، من دون أن يتوقف عن غرس سكينه في صدر الجثة الدامي، فانفجر من تمكنوا من سماعه ضاحكين. في تلك اللحظة تحديدًا، أدرك رأسي بوعي كامل ما هو قادم، وهكذا التفتُّ وانطلقت راكضًا.

بينما أفعل هذا الأمر، ابتعدت من دون أن أقصد عن الشاطئ والإنشاءات، وأنا أتنقل بين الأشجار بمحاذاة النهر. ركضت حتى بدأت ألهث وتسارعت أنفاسي وازدادت قوتها، فتوقفت واستندت إلى شجرة، وظللت للحظة معميًّا من فرط إرهاقي وهياجي. مددت جسدي على الأرض حيث شرعت أهدأ رويدًا رويدًا. تمكنت، وأنا راقد فوق ظهري، من رؤية رؤوس الأشجار التي تلألأت أوراقها العلوية تحت الشمس المرتفعة، وفكرت: «ما يحدث الآن، هي حياتي». فكرت وأنا أنظر إلى الأوراق الساكنة التي سمحت برؤية أجزاء من السماء هنا وهناك: «هذه هي حياتي، حياتي. وأنا ما أنا عليه». أشارت اللامبالاة التي تعامل بها الهنود مع انطلاقي راكضًا إلى أن احتمالية فراري لم تخطر على بالهم ولو حتى من بعيد. ما من مكان في هذه الأرض النائية والبكماء كان مستعدًّا لاستقبالي. كل الأمور عويصة وغريبة. ما انتزعني من هذه الأفكار أصوات قريبة ومتنوعة لبعض الأطفال. اعتدلت ببطء، وبقيت ساكنًا، إلا من التفاتة برأسي في الاتجاه الذي بدا أن الأصوات قادمة منه. بعدئذٍ، تقدمت وأنا أمشي عبر الدَّغَل على أربع من دون إحداث جلبة، إلى أن توقفت حين تمكنت من رؤيتهم قرب الماء.

إنهم عشرون طفلًا. ذكور وإناث. أكبرهم لا يتخطى العشر سنوات وأصغرهم لا يقل عن ثلاث أو أربع سنوات. كلهم عراة ويمرحون بصحة وسعادة عند ضفة النهر. يلعبون لعبة بسيطة وغريبة: يقفون أولًا في صف، وراء بعضهم بعضًا، بمحاذاة النهر ثم يبدأون في الوقوع واحدًا تلو الآخر على الأرض، حيث يبقون بلا حراك، كأنهم موتى أو نائمون. حين يقع آخر من في الصف، تركض بقيتهم لتقف وراءه، فينهض هو وتبدأ اللعبة من جديد. في وقت لاحق، تحول الصف إلى دائرة، لكن على النقيض من ألعاب الدوائر التي رأيتها في طفولتي لم يقف الأطفال في مواجهة بعضهم وهم ينظرون إلى مركز الدائرة، بل كل منهم وراء الآخر وهو يسند يديه إلى كتفَي الموجود أمامه، بصورة تجعل الدائرة تتشكل حين يسند أول من في الصف يديه إلى كتفَي آخر من فيه. في بعض المرات، تنقَّل الصف لمسافة طويلة في خط مستقيم، من دون أن يسقط أفراده، وفور وصوله إلى نقطة معينة، تفرق الأطفال وهم يصفقون ويضحكون، أو وهم يتناقشون فيما بينهم، كأن جزءًا من اللعبة انتهى ولهذا يمنحون أنفسهم استراحة سريعة قبل استئناف الأمر مجددًا. بعدئذٍ، تهيأوا بطريقة أعقد، إذ شكلوا شيئًا لم أفهم أنه حلزون إلا حينما بدأوا يدورون. استمروا في تشكيل وتفكيك هذه الأشكال وقتًا طويلًا وهم يتفرقون بين الفينة والأخرى وسط سعادة عارمة وأشد التعليقات حماسًا واتقادًا، إلى أن تركوا أنفسهم يسقطون في النهاية فوق العشب الذي امتد بمحاذاة

الضفة، وارتاحوا في سكون وهم يلهثون. بعد لحظة، نهض واحد منهم لم يتخطَّ عمره سبع سنوات، ونأى بنفسه بضع دقائق عن المجموعة وهو يفكر بتركيز إلى أن عاد للاقتراب منهم، وهو يُعدل من إيماءاته وطريقة سيره، كأنه يُجسد شخصية ما. استقبله الآخرون بضحكات وهتافات يبدو أنها شجعته لأن المبالغة ازدادت بمرور الوقت في إيماءاته، وطريقة سيره الساخرة التي أضاف إليها عبارات أو كلمات احتفل بها زملاؤه وهم يهزون رؤوسهم ويطلقون صرخات وصلت إلى المكان الذي راقبتهم منه بعد خفوتها. في النهاية، بدا الممثل الصغير مُنهكًا أو أن حماس جمهوره قد تراجع، بصورة جعلته يجلس أرضًا من جديد. اكتست وجوههم جميعًا بالجدية، وهم يرتاحون بهدوء، ولما نهضوا في النهاية وساروا بمحاذاة الماء، واختفوا بين الأجمات والأشجار الموجودة في اتجاه النجع، مكثتُ بضع دقائق وأنا أتامل هذا النطاق الخاوي الذي شغلوه، كأنهم خلَّفوا وراء وجودهم الصاخب شيئًا حميدًا غير ملموس يُوقظ فيمن يتمكن من ملاحظته، لا السعادة فقط، وإنما أيضًا التعاطف الذي مردُّه تهديد مجهول ومشترك للجميع، ويبدو أنه يطفو وسط هواء هذا العالم.

نهضت، كأن هذه المشاعر الناعمة والمُقنعة تجذبني، وبدأت أسير بهدوء نحو النجع، ربما مدعومًا بقناعة الخلود الشائعة جدًّا في حقبة الشباب. قال لي شيء ما إنه لن يُصيبني مكروه، وبالفعل لما بدأت أبصر أسقف القش الأولى وهي نصف مخفية بين الأشجار، وحين تقاطع طريقي مع أوائل الهنود الذين جاءوا وذهبوا وبدوا منشغلين، لم أندهش من كياستهم ورضاهم وهم يحيونني. اقترب بعضهم مني للمسي باللطف المعتاد، فيما توقف آخرون لما رأوا وصولي، وهم يومئون بحماس لينطقوا مقطعًا صوتيًّا ما بلغتهم غير المفهومة؛ بأصواتهم السريعة والزاعقة، وترددت طبعًا كلمة «ديف-جي، ديف-جي» الخالدة باستمرار، بين الظلال المشمسة.

في النهاية، وصلتُ إلى الشاطئ، وتحققت بارتياح من أنه ما من شيء باقٍ في صف اللحم المقطع الراقد فوق طبقة الأوراق الخضراء سيُذكرني بزملائي في البعثة. اختفت الرؤوس وبدت الشوايات الخشبية جاهزة كحال كومة الحطب التي جلبوها في غيابي. اقتربت، وفي تلك اللحظة جلس أحد الرجال مقرفصًا وهو يلف ويفرك بين راحتَي يديه بسرعة وتمرُّس عصا صغيرة مدببة فوق قطعة خشب نصف مغطاة بأوراق جافة، فظهر بعدئذ بعدة دقائق خيط رفيع من دخان هزيل وبدأ يتصاعد من الأوراق إلى أن خلَّفت وراءها شعلة زرقاء ثابتة، على الرغم من ضآلتها. بدأ الآخرون، الذين ظلوا يراقبون عمل الهندي المقرفص برضا وعناية، يجلبون إلى الشعلة التي تزايد حجمها أوراقًا وفروعًا جافة، ولما تطورت بؤرة النار بشكل كافٍ، شرعوا يضعون فوق لهيبها قطعًا من الحطب.

بالتزامن مع تنامي بؤرة النار، وصل من النجع رجال ونساء وأطفال. شرعوا يتأملون لهيبها. نظر بعضهم بتلذذ جلي إلى اللحم المصفوف. تشارك الشباب والعجائز والرجال والنساء، بل حتى الأطفال الذين رأيتهم يلعبون قبلئذٍ ببرهة عند ضفة النهر، السعادة البسيطة غير المبالية ذاتها التي

أثارها فيهم عرض بؤرة النيران وصفُّ اللحم الراقد فوق طبقة أوراق الأشجار النضرة المقطوفة منذ لحظات. بدوا واضحين وأقوياء وأشداء، وسط هذا الصباح المُضيء، كأن العالم صار مكانًا مناسبًا بالنسبة إليهم؛ كأنه بات مساحة مفصَّلة على مقاسهم أو نقطة لموعد تواضعَت فيه المحدودية وتقبَّلت حدودها الشخصية لقاءَ أحد أشكال المتعة البدائية. لن أتأخر في إدراك حجم خطئي، وإدراك السواد الذي لا قرار له وأخفته هذه الأجساد التي بدت بسبب لونها وقوامها كأنها مصنوعة من الطين والنار.

ظل ثلاثة رجال يزيلون الجمرات التي تشكلت في منتصف بؤرة النار بعصيهم الطويلة، وشرعوا ينثرونها أسفل الشوايات وهم يختبرون حرارتها بظهور أيديهم التي مرروها ببطء وهي تكاد أن تلامس حد النار. في النهاية، لما أدركوا أن النيران باتت كافية، بدأوا في وضع قطع اللحم. لقد قسَّموا الجذوع والسيقان سلفًا لتسهيل تسويتها والتعامل معها، أما الأذرع فوضعوها كاملة كما هي. هُيئ إليَّ أنني رأيت اللحم وقد التصق به هنا وهناك أجزاء من مادة داكنة، فاستنتجت أنهم على الأرجح جرُّوا القطع بإهمال فوق الأرض، وأن أوراقًا جافة وأغصانًا بل ترابًا التصق بها، إلا أنني حين اقتربت بضع خطوات لأرى بشكل أفضل، لم أتحقق من أن اللحم عُومل بإهمال، وإنما من أنه عُومل بعناية خاصة؛ فذلك الذي اختلط عليَّ وظننته أشياء غريبة التصقت باللحم نتيجة تلامسه مع الأرض، تبين أنه أحد أشكال التتبيل الذي استُخدمت فيه أعشاب عطرية مخصصة لتحسين الطعم.

تزايد احتشاد واهتمام الهنود مع وضع اللحم فوق الشوايات، وهي المسألة التي نُفذت ببطء شعائري. بدا الأمر كأن القرية بأكملها تترصد هذه البقايا الدامية. تحلت شبه الابتسامة التائهة، لمن تأملوا عمل الشوائين بانبهار، بذلك الثبات المميز للرغبة التي تتمدد داخليًّا إلى فيض من الرؤى، وينبغي تأجيل تلبيتها لأسباب خارجية. لم يتأجج هؤلاء الهنود في وجود اللحم بنار أقل حدة من اللهيب الذي ارتفع بجوار الشوايات، ولُوحظت في كل واحد منهم ـ على الرغم من تشابه تعبيراتهم جميعًا ـ الوحدة المفاجئة التي أغرقتهم فيها رؤاهم النهمة؛ تلك التي تمددت بدورها داخلهم واحتلت أحلك الأماكن الموجودة فيها، كما قد يفعل جيش في مدينة مهزومة. اقترب طفل عمره نحو عامين أو ثلاثة وهو يتمايل كي يرفعه أحد ما بذراعيه، وبدأ يضرب بيديه الصغيرتين فخذ من بدَت أنها أمه، فقابلته بالرفض ـ بدفعة لطيفة لكنها حاسمة ـ من دون أن تُبعد ولو لثانية واحدة نظرتها المحدقة من على قطع اللحم التي بدأت عصارتها تسيل فوق الجمرات. كانوا قد تخلوا أصلًا عن السلوك الموقر الذي عاملوني به، إلى درجة قد يظن المرء معها أنني صرت شفافًا بالنسبة إلى من وقعتُ في مرمى أبصارهم، فكلما تداخل جسدي مع رؤيتهم وأخفى الشواية، خطوا جانبًا ووجهوا إليَّ ابتسامة سريعة وآلية مراعاةً بحتة للأصول، في ظل تَرَكُّز عنيد لرغبتهم التي سأعلم لاحقًا أنها تنكب فوق الغرض المرغوب فيه كي تستسلم بصورة أسهل إلى عبادة نفسها وهياكلها المستحيلة،

التي تتصاهر مع الأمل وسط هذا الهذيان الحيواني.

وحدهم الشواءون ـ الذين استخدموا عصيهم الطويلة وجلبوا بها الجمرات التي نثروها بعناية من بؤرة النار الواقعة إلى جوارهم ـ بدوا بعيدين عن حالة الانتشاء العامة، إذ ظلوا يتابعون بهدوء واهتمام تفاصيل الإنضاج، وراقبوا وهم قريبون قدر استطاعتهم حالة اللحم وسط الدخان الذي جعل أعينهم تدمع. أحموا طبقة الرماد التي خلفتها الجمرات القديمة بجمرات أخرى جديدة، وأطفأوا بضربات قصيرة ـ لكنها متمرسة ـ الشعلات التي شكلتها أحيانًا الدهون المنصهرة وهي تتساقط في صورة نقاط وتنزلق من فوق الشوايات إلى النيران. ساروا ببطء وهم يتصببون عرقًا حول كل جوانب الشوايات لمراقبة التفاصيل كلها، وتوقفوا أحيانًا لإلقاء نظرة مدركة على المشهد بأكمله. كانوا كلهم هناك، وبدوا جميعهم حقيقيين: الشواءون الهادئون والمتمرسون، والحشد الذي استنفده من الداخل شيء مستعر لا اسم له كالنار التي تأكل الحطب. لقد طوقتهم من تحتهم ومن أعلاهم وفيما حولهم الأرض الرملية، والأشجار التي دخلتها وخرجت منها العصافير بتحليقها المفاجئ وغير المبرر ـ من دون أن تهزها أي نسمة ـ والسماء الزرقاء التي خلت من السحب، والنهر الكبير المتلألئ، وفوق كل هذا الشمس القاسية المشتعلة التي ارتفعت ببطء ووصلت تقريبًا إلى أوجها فبدت بؤر النيران التي اضطرمت هناك في الأسفل مقارنة بها مجرد شظايا ضائعة وزائلة. الأرض والسماء والخواء واللحم المهترئ والهذيان، والشمس الأبية المستمرة في دورتها حتى أبد الآبدين: هكذا ظهر الواقع أمام عينَي اللتين وُلدتا للتو في هذا الصباح.

انتزعتني من مخيلتي صرخات قادمة من النهر. جاء ضيوف أكثر عبر الماء بزوارقهم الكبيرة. ركض كثيرون ممن وقفوا لتأمل اللحم إلى استقبالهم عند الضفة حين سمعوهم، فأضافوا إلى صخب الواصلين صرخاتهم الشخصية. بدأ بعضهم يتحدثون وهم في الزوارق، من دون أن يشغلوا بالهم هل سيسمعهم من قطعوا الشاطئ ركضًا أم لا، فيما أصر آخرون، على الرغم من الاستقرار الضئيل للزوارق، على إنزال بعض الجِرار الضخمة التي تطلبت قوة عدة رجال لحملها. قفز غيرهم من زوارقهم إلى البر الثابت بسعادة ومن دون اكتراث، وهم غير عابئين أصلًا بمن حضروا إلى لقائهم، إلى درجة أن من جاءوا إلى استقبالهم التقوا بهم في منتصف الشاطئ ولم يتبادلوا أي تحية. بهذه الطريقة ركضت مجموعة من الماء نحو الشوايات ومجموعة أخرى من الشوايات نحو الماء، وكل منهما تتجاهل الأخرى. تركزَ اهتمام أولئك على قطع اللحم، وهؤلاء على الجِرار التي كرس لها من نقلوها عناية واهتمامًا كبيرين. وقف من قفزوا من الزوارق، وهم خمسة عشر شخصًا، فجأة وراء الشوائين وتأملوا الشوايات الضخمة، بالتعبير ذاته، المكبوح المبهور التائه قليلًا، الذي ظهر منذ برهة على سكان النجع. على الجانب الآخر، عاد من ذهبوا سلفًا إلى لقاء الزوارق، في صحبة حاملي الجرار، فتكدسوا حولهم كحبات عنقود، ونظروا إلى محتوى هذه الجِرار، وهم نصف مائلين نحو الأمام ومتلاصقون فيما بينهم كأنهم يتشاركون في كبح

هياجهم، وكل هذا من دون أن يعرضوا العون على من يحملونها، على الرغم من ثقلها الواضح والجهد الذي بذله هؤلاء لكيلا يسكبوا محتوياتها. تقدم من ينقلون الجرار في مسارهم نحو النجع ـ من دون أن يتوقفوا ولو ثانية أمام الشوايات أو أن يلقوا ولو نظرة واحدة على من تأملوا المشهد حولهم وهم مسحورون ـ ووضعوها في صف أسفل الظلال المنعشة للأشجار، بالعناية نفسها التي جلبوها بها. بعدئذٍ، التفتوا وتقدموا بضع خطوات واختلطوا مع أهالي النجع، وبدأوا يتأملون الشوايات.

تصاعد الدخان ببطء من اللحم وهو فوق النار، ولدى انصهار الدهون، تساقطت نقاطها فوق الجمرات فصدر منها أزيز مستمر ورتيب، وتشكلت لبضع لحظات نوَيات اشتعال صغيرة تكاثف معها الدخان، فجذبت انتباه الشوائين الذين انحنوا باهتمام وشرعوا يحركون النيران بعصيهم الطويلة. تضاخم صمت الهنود، على الرغم من احتشادهم حول الشوايات، إلى درجة أن شيئًا لم يُسمع إلا الطقطقة الخافتة للحطب والتسوية البطيئة للحم فوق النيران. انبعثت من اللحم الذي يُشوى رائحة لذيذة حادة تصاعدت مع أعمدة الدخان الكثيفة التي استغرقت وقتًا لتتبدد في السماء. اختفى الأصل البشري لهذا اللحم تدريجيًّا كلما تقدمت التسوية، إذ انبثقت من التشققات العمودية للجلد المنفلق، الذي اغمقَّ لونه، عصارة سائلة ضاربة إلى الحُمرة تساقطت نقاطها مع الدهون، فيما انفصلت نسائر من اللحم الناشف عن الأجزاء الشائطة، وبات مظهر الأقدام والأيدي، التي انكمشت بفعل النار، بعيدًا عن شكل الأطراف البشرية. كان أي مراقب حيادي ليظن أن ذلك الذي يُشوى على الشوايات هو أجزاء من لحم حيوان مجهول.

تصعب حكاية هذه الأمور بالطبع، لكن ينبغي للقارئ ألا يندهش حين أقول إنني قد جاءتني، في بعض اللحظات رغبة ـ لم ألبِّها ـ في التعرف إلى الطعم الحقيقي لهذا الحيوان المجهول؛ ربما مردُّ الأمر إلى الرائحة اللذيذة التي تصاعدت من الشوايات، أو جوعي المتراكم منذ العشية السابقة التي لم يقدم لي فيها الهنود سوى أطعمة نباتية أثناء الرحلة، أو هذا الحفل الوشيك الذي لم أرغب ـ أنا الغريب الأبدي ـ في الغياب عنه. يبدو أن الإنسانية هي أهش مكون في الإنسان، فهي ليست أصلب أو أبسط من عظامه. استغرقت بضع دقائق وأنا أقف ساكنًا بين الهنود الذين ظلوا بلا حراك وأنا أحدق مثلهم في اللحم الذي يُشوى لأدرك أنه ما دمت موجودًا أمام هذا العرض الذي تأملته وسط ضوء الظهيرة، فإن شيئًا ضد رغبتي تقريبًا ـ وهو شيء أقوى من الاشمئزاز أو الخوف ـ سيظل مصرًّا على أن يسيل لعابي مهما تمسكت بابتلاعه.

بقيت القبيلة كلها بلا حراك حول الشوايات طوال وقت التسوية، وتأملوا اللحم الذي أخذ يكتسب لونًا ذهبيًّا، من بين أعمدة الدخان العريضة والكثيفة التي تصاعدت ولم تتبدد، وعلى وجههم نصف ابتسامة تائهة. بدأت أتمشى وسط هؤلاء القوم وأفحص ملامحهم، فبدوا كأنهم تماثيل، من فرط سكونهم واستغراقهم في تأملهم الغرامي. وجه لي بعضهم إيماءات جامدة وسريعة، لكيلا يبدوا

معدومي الكياسة، من دون أن يشيحوا ببصرهم من على اللحم، إلا أن واحدًا منهم فقط تمتم بشيء ما، وهو مستاء من تجولي غير الملائم، ووجه إليَّ نظرة ملولة. سرتُ برهة طويلة بين هذه الأجساد العارية وظلالها المنكمشة التي طبعتها شمس منتصف الظهيرة فوق الرمال، حتى سُمع وسط هذا الصمت شبه الكامل، صوت أحد الشوائين، وهو يدعو الهنود بلا شك إلى الاقتراب، وهذا لأن نوعًا من الصخب تصاعد فجأة من الحشد، فيما سارع كل الهنود في الوقت ذاته، وهم في حالة من الهياج الذي لا يوصف، وتكدسوا إلى جوار الشوايات، وكل منهم يدفع الآخر في محاولة للظفر بمكان مميز قرب الشوائين.

جعلهم اقتراب موعد الوليمة متلهفين، وتمكنت من رؤيتهم يتزاحمون حول الشوايات وتوترهم ظاهر في إيماءاتهم من دون أن يدركوا، فبعضهم ـ مثل الأطفال ـ بدلوا القدم التي يستندون إليها مرة تلو الأخرى، كأن وزن أجسادهم يزعجهم، فيما وجه آخرون دفعة عنيفة إلى من يجاورونهم مع أقل احتكاك ممكن، وحك كثيرون منهم ظهورهم وشعورهم وآباطهم وأعضاءهم التناسلية بحنق حائر، بل إن بعضًا منهم وهم يرتكزون في وقوفهم إلى قدم واحدة، حكوا بأظافر قدمهم الأخرى ربلة ساقهم الداكنة بارزة العضلات إلى أن دميت، كأنهم لا يعون ما يفعلونه. حافظت على مسافة البُعد وأنا أراقبهم، وتمكنت بصعوبة من رؤية الدوائر الخارجية للحشد. من فرط تلاصقهم، تسببت أدنى حركة تصدر من أي فرد في اهتزاز من يجاورونه بطريقة جعلت هذه الاهتزازات تمتد في القبيلة كلها، كحال الارتعاشات التي يسببها إلقاء حجر في الماء. لهذا السبب، حينما بدأ الموجودون في أقرب دائرة إلى الشوائين يتحركون فجأة، اهتز الحشد بأكمله وهو يمضي وراء اندفاع اشترك فيه كل أفراده واستهدف التمركز في أقرب مكان ممكن إلى الشوايات. تعارض هذا الاتجاه العام، كما سيظهر لاحقًا، مع جهود من في الصفوف الأولى الذين حاولوا أن يشقوا طريقهم نحو الخارج بعد أن حصلوا على قطعتهم من اللحم.

أول من ظهر رجل، ليس شابًّا ولا عجوزًا. بشرته داكنة ولامعة كحال بقية القبيلة، وشعره طويل مسترسل، وعضلاته بارزة. تتدلى أعضاؤه التناسلية، بإهمال، بين ساقيه، ويخلو جسده من الشعر إلا القليل منه، كشجيرة عند عانته. كان هناك شيء مضحك في الطريقة التي أمسك بها قطعة اللحم التي أحرقت يديه من دون شك. تأملها في افتتان وغرام برأس محنيٍّ تمكن من رفعه لثوانٍ قليلة وهو يبحث حوله عن مكان مناسب ليجد لنفسه مستقرًّا ويلتهمها. لما عثر على المكان ـ وهي نقطة استراتيجية تقع بالقرب من الجِرار المتروكة في الظل ـ جلس على الأرض وأسند ظهره إلى جذع الشجرة وبدأ يأكل.

قبل أن يتناول القضمة الأولى، انغمس بضع ثوانٍ في تأمل قطعته بارتياب، كأن هذه اللحظة المنتظرة جدًّا، لدى تحققها، قد أرضت رغبة شديدة الحدة، فدفعه حجم الهبة التي تلقاها إلى الشك أصلًا في واقعيتها. بعدئذ، لما اقتنع بوجود اللحم الذي لا يُمكن دحضه، بدأ يمضغه. لم تُهدئه

القضمات، وإنما بدت كأنها ترفع من شهيته، بطريقة جعلت الفارق الزمني بين كل قضمة والأخرى يتضاءل بمرور الوقت، إلى درجة أن إيماءات رأسه السريعة دفعت المرء إلى التفكير أكثر لا في انغراس الأسنان الثابت والمطمئن في اللحم، وإنما في نقر الطيور بعناده وسطحيته، وهذا لأن الهندي ـ الذي ظل فمه ممتلئًا باللحم ولم يتمكن من مضغه إلا لمامًا ـ لم يقتلع من قِطعته بنهشات أسنانه السريعة والمتتالية إلا بعض النسائر الضاربة إلى اللون الرمادي التي لم تُشكل بمفردها قضمات حقيقية. قد يُقال إن نمطًا من إفراط الشهية سكنه؛ وهي مسألة لم تتزايد فقط مع تقدمه في تناول الطعام، وإنما تسببت أيضًا في إلغاء أو تقليل المتعة التي أمكنه أن يحصل عليها من فريسته، بسبب فيض هذه الشهية بقوامها المكون من إيماءات متكررة لا سبيل للسيطرة عليها، فبدا هو كضحية أكثر من قطعة اللحم، لأن جزءًا ما قد سكنه، وهو الجزء الذي لم يعد موجودًا أصلًا في فريسته. لما أشحت ببصري عن الهندي لأنظر إلى الحشد، ذكرني المشهد الذي أضاءته الشمس فورًا بالنشاط المحموم لجيش من النمل يغتنم جيفة: هناك نواة مضغوطة من الأجساد المحتشدة المُفعمة بالإثارة والتسرع إلى جوار الشوايات، وأفراد غير متصلين ببُقعة الحشد المركزي جاءوا وذهبوا بحثًا عن قطعة لحم أولى في حالة أنهم لم يأكلوا شيئًا؛ أو عن أخرى ثانية لو أنهم تناولوا قطعتهم الأولى؛ وظلوا ينسلُّون من الحشد المتلاصق الذي اختلج قرب الشوائين ومضوا وفي أيديهم قطعتهم من اللحم ليأكلوها بهدوء تحت الأشجار. بدوا كالنمل أيضًا بسبب سرعة سيرهم، أو ترددهم قبل أن يفسحوا المجال إن تقاطعت الطرق المتعاكسة لاثنين منهم، كما يفعل النمل بالضبط حين يتعثر في دروبه الصغيرة، بل بدوا هكذا أصلًا بسبب ذهابهم وإيابهم السريع والمتكرر بلهفة متنامية إلى ومن الشوايات.

ظهر على كل هؤلاء الهنود سعار الافتراس نفسه الذي بدا أنه يمنعهم من اللذة، كأن الذنب لازم الخطيئة داخل أنفسهم، متخذًا شكل الرغبة. بينما يأكلون، أفسحت بَشاشة النهار المجال إلى الصمت العميق والكآبة والتجهم. اجتروا ما في أفواههم بإيقاع بطيء نَسَّاء سلَّموا أنفسهم فيه إلى أفكار لا يعلمها أحد. في بعض الأحيان، حدقوا برهة طويلة بنظرتهم في الفراغ، وهم متوقفون عن المضغ وخدودهم منتفخة من قضماتهم نصف المَلُوكة وظهورهم مستندة إلى جذوع الأشجار. بدت الوليمة كأنها تُفكك وثاقهم تدريجيًّا، إذ ذهب كل واحد منهم إلى أحد الجوانب ومعه قطعته من اللحم كما تفعل الوحوش حين تستحوذ على فريسة ما وتختبئ لالتهامها خوفًا من أن ينهبها القطيع منها، أو كأن منبع هذا اللحم الذي تنازعوا عليه إلى جوار الشواية غمرهم بالعار وعذاب الضمير والخوف. في بعض الأحيان، ظهر أسفل شجرة ما أو في المساحة الواسعة الرملية المفتوحة التي تفصل الأشجار عن النهر ما يبدو أنه عائلة مجتمعة، إذ إن هذه المجموعة المنفصلة عن البقية تكونت من عجائز وبالغين وأطفال؛ ولأن أحد العجائز أو البالغين وزع في كل الحالات قطع اللحم التي ذهب لجلبها من الشواية على بقيتهم. بدوا بمجرد حصولهم على قطعة اللحم كأنهم يغرقون في صمت

عابس لم ينجُ منه حتى الأطفال، على الرغم من بقائهم قريبين جسديًّا. لُوحظ في بعض الوجوه الانجذاب والنفور: لا النفور من اللحم ذاته، وإنما بالأصح من فعل التهامه. لكنهم بمجرد أن فرغوا من تناول قطعتهم، بدأوا في مص العظام باستمتاع، وحين لم يبقَ فيها شيء آخر لاستخراجه، توجهوا بكل ما لديهم من سرعة لجلب قطعة أخرى. إن استطابتهم لهذا اللحم أمر جلي، لكن يبدو أن عملية أكله ملأتهم بالشك والارتباك.

لم أرَ حولي إلا أناسًا يلوكون ما في أفواههم تحت الشمس التي ـ وهي تعبر علياءها ـ صنعت لهذه الأجساد المتعرقة انعكاسات داكنة، وجعلت المياه البطيئة للنهر العظيم تتلألأ قرب ضفافه. الاستثناء الوحيد لحالة الشره العامة هذه هم الشواءون الذين استمروا برزانة وهدوء في مراقبة بقايا اللحم وهي تنضج فوق النار. لمَّا تفرق الضيوف، لم يعودوا يخفون الشوايات بأجسادهم المتكدسة، وتمكنت من رؤية الشوائين بسكاكينهم العظمية الصغيرة وهم يقطعون أجزاء من بقايا اللحم الكبيرة لتقديمها إلى من مالوا ناحيتهم ليطلبوا حصة ثانية بل ثالثة. ظهر في تعبيرات الشوائين الهادئة أنهم لم يتذوقوا اللحم.

استمر الأكل عدة ساعات، إذ طالت مدة الوليمة على الرغم من السرعة التي مضغوا بها، وذلك بسبب انتظارهم إلى جوار الشوايات كلما ودوا أخذ قطعة أخرى، وعملية توزيع القِطع على المجموعات التي تشكلت أسفل الأشجار، والعناد الذي اقتلعوا به اللحم حتى نسائره الأخيرة من كل قطعة، وفي النهاية تباطؤهم العنيد في ابتلاع القضمات الأخيرة، على الرغم من تخمتهم الواضحة أصلًا. جلس بعضهم أحيانًا ليرتاحوا في انتظار أن يهضموا قليلًا ما ابتلعوه، قبل الذهاب بحثًا عن قطعة أخرى.

لما بدا أن القبيلة كلها قد اكتفت، هيمن أحد أشكال النعاس على أجسادهم المبعثرة تحت الأشجار. بينما أراقبهم، شرع هندي ـ بدا أنه قد امتنع عن الأكل بسبب الطريقة البشوشة التي تقدم بها نحوي ـ يُوجهني من وراء الإنشاءات ذات الأسقف المصنوعة من القش بإشارات سريعة لكنها غير ملحة إطلاقًا كي أمضي وراءه. اجتزنا الحيز المشجر، وتركنا وراءنا بعض البيوت وأرضًا صغيرة نمَت في منتصفها شجرتان أو ثلاث وأحاطت بها مجموعة من الإنشاءات، وعثرنا على مجموعة صغيرة من الهنود وهي تُحضِّر في صمت وهدوء أسماكًا على الشواية. قال بعضهم:

ـ ديف-جي، ديف-جي.

وأشاروا إليَّ بسرور وهم يضمون أصابعهم من عند أناملها ويهزونها في اتجاه أفواههم المفتوحة، ليُعبروا لي عن فعل الأكل. تعارض المشهد بشكل جَلِي مع ما جرى آنذاك قبل بضع لحظات عند الشاطئ. ظننت للحظة أن هؤلاء الرجال لا ينتمون إلى القبيلة بسبب الطمأنينة والسذاجة التي جهزوا بها طعامهم على الشواية التي استقرت فوق أربعة جذوع مدفونة في

الأرض، وبالمثل بسبب بساطة طعامهم، والسلوك الكريم والأبوي الذي دعوني به لمشاركتهم فيه. مع ذلك، بدأت أتعرف إليهم رويدًا رويدًا: إنهم من قطَّعوا الجثث وأيضًا ـ كما سأدرك بعدئذٍ بوقت طويل جدًّا حين أبدأ في التعرف تدريجيًّا إلى عادات القبيلة ـ من قضت أسلحتهم على القبطان وبقية زملائي.

بينما آكل، راقبني مضيفِيَّ بارتياح حذر واستمتاع، وربما بحنان. دعوني إلى تناول المزيد بكياسة وعفوية سمحاء. استسلموا ببساطة إلى ذكرياتهم الهادئة وسط القيلولة الوادعة تحت ظل الأشجار المنعش، وهم يتبادلون كلمات ودية أحادية المقاطع بين الحين والآخر. بدوا كوسام مستدير صلب صيغ من معدن نفيس، أما بقية القبيلة المُبعثرة على الشاطئ فكبقايا قاتمة مغلية مشوهة من المعدن ذاته. لما انتهى طعامنا، أخمد المضيفون النيران بتمرس، واغتسلوا، ونظفوا المساحة التي أطلت عليها المساكن، وتفرقوا بعد أن وجهوا إليَّ التحية بكياسة بأصواتهم السريعة الزاعقة. توجه بعضهم نحو الشاطئ، وآخرون إلى الغابة الكثيفة الواقعة في الخلف، فيما ولج آخرون إلى الإنشاءات التي أحاطت بالأرض الخاوية. شعرت، وأنا أجلس وحدي في الظل، بأصوات وضوضاء تصل إليَّ من الشاطئ، وهي تخترق السكون المشمس، فنهضت وتوجهت إلى النهر.

تناقش رجلان بعنف قرب الشوايات وتواجها إلى حد الاشتباك، وكل منهما ينظر إلى الآخر شزرًا، ثم تفرقا كأنهما سيبتعدان تمامًا قبل أن يستأنفا مواجهتهما فجأة، وكل منهما قريب جدًّا من الآخر إلى درجة أنني خشيت في عدة مرات من تصادم رأسيهما. انكسر صوتاهما الزاعقان، بعد أن بدلهما الغضب. في النهاية، بقيا صامتين وبلا حراك، ووقفا على بُعد عدة سنتيمترات من بعضهما البعض وهما يتبادلان النظرات ويتنفسان بسرعة، فيما عكست الشمس ظليهما جزئيًّا في الاتجاه نفسه، فتراكب الظلان فوق بعضهما البعض على الأرض المائلة إلى الصفرة. عَبَّر الوجهان المتواجهان عن نزاع وشيك، وعن الكره والازدراء. ما يلفت الانتباه فوق أي شيء آخر هو اللامبالاة التي بدا أن القبيلة تراقبهما بها، وهذا أصلًا في حالة من راقبوهما، لأن الأغلبية لم تنظر أصلًا في اتجاه الرجلين اللذين تجادلا. بدت هذه اللامبالاة أكبر في الشوائين، بل بدت أيضًا متعمدة. أشاحوا بوجوههم جانبًا ونظروا، وهم يستندون إلى عصيهم، نحو نقطة مجهولة في اتجاه النهر، كأنهم عزموا على ألا يولوا أي اهتمام إلى ما يحدث في الشاطئ، أو كأنهم، على النقيض من ذلك، يعرفون تمامًا ما يحدث ويتظاهرون بتجاهله لسبب لا أعرف كنهه. بالنسبة إلى بقية أفراد القبيلة الذين تاهوا في أحلامهم الواعية، فإما مرت نظراتهم على الرجلين بلامبالاة، وإما بدوا كأنهم يجهلون وجودهما أصلًا.

فرغوا من الطعام، باستثناء قلة قليلة. إنهما مجرد عجوز بلا أسنان وطفل. ظل كل منهما يمص إحدى العظام بشرود. لم يبقَ شيء على الشواية. اجتاز رجل المساحة الخاوية بصورة آلية وهو

يحمل عظمة في يده ثم ألقاها في النار. لم يتكرم الشواءون، الذين بقوا بلا حراك وهم يرتكزون إلى عصيهم، حتى بالنظر إليه. غيَّر الرجلان اللذان تشاجرا اتجاه نظرتهما فجأة وابتعدا في اتجاه معاكس، واختفيا بين الحشد الذي سيطرت عليه بسبب الهضم حالة من النعاس العميق. افترش بعضهم الأرض بالرقود على ظهورهم، وبدا آخرون - ليسوا أقل سكونًا منهم - وهم يقفون ويضيقون أعينهم كأنهم على وشك السقوط. كان بعضهم قد تسلقوا الأشجار واستقروا هناك، وظلوا يحاولون ضبط أجسادهم مع تعرجات الأغصان. بدا هذا النعاس أقرب إلى الكابوس عن الحلم. وشت وجوههم بالرؤى العنيدة التي تهاجمهم من الداخل وتمنعهم من النوم. تحركت أعينهم ببطء، تحت حواجبهم العابسة، والتقت عند أنوفهم. لم يرفعوا نظراتهم المتملصة. اختلجت أصابع أقدامهم بصورة ذاتية، فخانت ما حاولت بقية أجسادهم أن تُخفيه في أجسامهم الساكنة. بدوا مهتمين بما يحدث فيهم كأنهم ينتظرون التأثير الفوري للوليمة ويشعرون بكل قضمة تناولوها وهي تنزل تدريجيًّا عبر دواخلهم. بدا الأمر كأنهم واثقون من أنه إذا لم يظهر أي أثر رهيب عليهم فسيمكنهم، بدايةً من لحظة ما، عدُّ أنفسهم ناجين وقادرين على التخلي عن جزعهم المخجل. بدوا كأنهم يسمعون ضجيجًا عتيقًا يتصاعد داخل أنفسهم.

بدأوا يتحركون قليلًا عند انتصاف المساء: وقفوا وهم يتثاءبون ويرمشون عدة مرات، وانطلقوا يركضون في اتجاه النهر حيث تركوا أنفسهم يسقطون فجأة عند ضفته. بدوا ضعفاء وثقلاء حتى وهم يركضون. تحرك الأطفال، الذين ظهروا مُتقدين جدًّا في الصباح، ببطء لم يُعرف ما إذا كان مرده المزاج العكر أم نعاسهم الشديد. بدأت مجموعة من الهنود تقترب من الجِرار التي استقرت تحت الأشجار وتفقدوها باهتمام، لكن من دون أن يقتربوا منها. وقف بعضهم على أطراف أصابعهم ومدوا رقابهم لمحاولة رؤية محتواها من بعيد، فيما أبدى آخرون بصورة مبالغ فيها دلائل على نفاد صبرهم. بدوا جميعًا متجهمين ومنطوين. رويدًا رويدًا، أخذت القبيلة كلها تحيط بالجِرار لكن مع إبقاء مسافة، وهي المسألة التي خلقت نطاقًا دائريًّا خاويًا حول الأشجار التي حمتها من الشمس. بينما ينظرون إلى الجرار ظلوا ساكنين، ثم تحركوا متململين بين الفينة والأخرى لإظهار نفاد صبرهم. لم يتحدث أحد منهم أو ينظر إلى غيره. في بعض المرات، وقفوا مجددًا فوق أطراف أصابعهم ومدوا رقابهم وهم يتفقدون نقطة مجهولة وراء الأشجار، باتجاه الإنشاءات. بعد مرور نحو نصف ساعة، ارتفعت ضوضاء راضية من الحشد، إذ اقترب من وراء الإنشاءات بعض من الرجال الذين دعوني إلى تناول السمك، وجلبوا معهم كميات كبيرة من صحون نباتية صغيرة. ضاقت الدائرة حول الجِرار قليلًا. فتح الرجال طريقًا لهم من بين الحشد، وتركوا ثمار القرع الصغيرة الكثيرة على الأرض، وبدأوا يملأونها في صمت بمحتوى الجِرار ويوزعونها على الحشد.

اتضح أنه مشروب كحولي، لأنهم حين تناولوه طرأ عليهم تغيير: تدريجي في البعض وفوري

في البعض الآخر. عادت إليهم حيويتهم المعتادة مع الرشفات الأولى، واتقدت نظراتهم، وكاد التعبير العام لوجوههم أن يغدو سعيدًا. بدأوا، مرة أخرى، في الخروج قليلًا من أنفسهم؛ من هذا السلوك الفظ والانعزالي الذي أغرقهم الطعام فيه. تبادلوا مقاطع أحادية سريعة وودودة، بل إن بعضهم ضحك. تزايد ميلهم إلى الثرثرة مع قلة كمية المشروب في الجِرار. قد يُقال إنهم حكوا لبعضهم قصصًا ونكات، إذ تشكلت حلقات للثرثرة تحدث فيها أحدهم، وعند انتهائه انفجر من أنصتوا إليه بسعادة وصمت واهتمام ضحكًا وهم يهتزون، وكل منهم يوجه إلى الآخر دفعات لطيفة ومبتهجة. كان انتعاشًا عامًّا، وبدا أنه في تزايد. كانت رؤيتهم غريبة وهم يخرجون من البئر عديمة القرار التي بدوا كأنهم قد سقطوا فيها أثناء تناول الطعام، وسط ضوء منتصف المساء الأقل قسوة الذي أرسل إلى السماء انعكاساته الخضراء بعد أن ارتد من الأشجار. أخذت جلبة الأصوات تتلاشى وسط الهواء، والضوء الأصفر والأوراق. جاءوا وذهبوا من وإلى الجِرار لملء آنيتهم المصنوعة من القرع، كما حدث في ساعة الطعام، وتجرعوا ما فيها في رشفة واحدة. أعطوا في بعض اللحظات انطباعًا بأنهم سيطلقون بسبب انتشائهم صرخات حيوانية بدلًا من أصواتهم البشرية. اشتدت أعوادهم وانتصبت. انتفخت الصدور واستقامت الرؤوس واستعادت أعضاء جسدهم قوتها التي فقدتها في نعاس الهضم إلى درجة برزت معها عضلاتهم وهي مشدودة وقوية، وانطبق الأمر ذاته على عروقهم. بدا جلدهم أملس وأنعم وأسمك وأصح، فيما أعطت نهود الإناث انطباعًا بأنها تنتفخ أو تتفتح كالزهور.

كبحر داخلي، تنامى استيفاؤهم الجسدي وحماسهم المفاجئ الذي ربط بينهم بانسجام، وأنبأ باستثارتهم الوشيكة التي ستتركهم بمفردهم مجددًا داخل سجون أجسادهم. أكثر ما لفت انتباهي وأنا أراقبهم، هو عُريهم الذي على الرغم من أنه بدا لي طبيعيًّا قبلئذٍ بوقت قليل، بات لحظتئذٍ يُزعجني من دون أن أعرف السبب جيدًا. حتى تلك اللحظة، كانت الأجساد كُلًّا واضحًا متينًا يتخفى في نسيانه الشخصي وهجرانه، لكن كلما تزايدت آثار المشروب الكحولي، بدا الأمر كأن هذه الأجساد الثخينة تعرض عُريها، وتجعله حاضرًا، وتدور حوله. استيقظت الأعضاء التناسلية المنسية حتى تلك اللحظة: فرك الرجال قُضبانهم بشرود أو لمسوها، كأن الأمر مصادفة، وهم يُنزلون أياديهم نحو أفخاذهم أو أوراكهم، فيما تدبرت النساء أمورهن وهن واقفات لإظهار أردافهن أو كي تغدو أوراكهن أبرز. داعب أكثر من فرد منهم جسده بشرود أو نظر بإصرار إلى عُري شخص غيره، من دون أن ينطق كلمة واحدة، كأنه ينتظر من الآخر أن يُبادله السلوك ذاته. مع كل مرة، ازداد جموح الذهاب والمجيء إلى ومن الجِرار، وارتفعت الأصوات كأن الضجيج العتيق الذي حاولوا أن يسمعوه في أجسادهم قبلئذٍ بساعات بات الآن يقارب حد الصراخ.

امتنع الرجال الذين دعوني إلى تناول السمك عن شرب الكحول أيضًا، واقتصر ما فعلوه على تقديمه للآخرين بمثابرة وبراعة. لم يتدخلوا على الإطلاق في محادثاتهم ولم يحاولوا فرض أي

نظام أو عدالة في توزيع الشراب. قد يأتي هندي ليقف إلى جوار الجِرار ليملأ خمس أو ست مرات متتالية وعاءه المصنوع من القرع ويتجرعه كله في مرة واحدة، وقد يضع آخر وعاءه في الجِرار عدد المرات التي تخطر له، ومع ذلك أظهر موزعو الشراب الكحولي، سواء في هذه الحالة أو تلك، اللامبالاة ذاتها. أظهروا أيضًا أنهم رابطو الجأش أمام الاستثارة المتنامية داخل القبيلة. شعر المرء أنهم بعيدون وغير موجودين، كأنهم وبقية القبيلة ينتميان إلى واقعين مختلفين. لم يُخاطبهم أفراد القبيلة إلا لطلب الكحول، مع أن أغلبهم اكتفوا فقط بمد أوعيتهم إليهم بحسم.

ارتفعت حمى الهنود المُضنية إلى أوجها كأنها شمس. سيطر شيء ما على إيماءاتهم وحركاتهم وضحكاتهم. اختلجت القبيلة بأكملها وهي حبيسة لانفعال جارف. بدا الأمر حتى لحظة معينة كأن الرجال يلامسون قضبانهم بالمصادفة، أثناء إنزال أيديهم، لكنهم لاحقًا باتوا يضعونها فعلًا بشرود في جوفها ليداعبوها قليلًا، أثناء استماعهم إلى أي محادثة عرضية. فجأة، قفزت إلى أحد الجوانب امرأة شابة كانت تشارك وهي متململة نوعًا ما في إحدى حلقات الثرثرة ناسية محاوريها بفظاظة. ضيقت عينيها وهي تقف منتصبة في منطقة عديمة الأشجار، بساقين ثابتتين ومفتوحتين جيدًا، وبدأت تختال بالجزء العلوي من جسدها، ثم تيبست كلوح، وأخذت تتحسس بتلذذ واضح جلدها اللامع. لم يبدُ أن أحدًا في تلك اللحظة يوليها اهتمامه. وضعت المرأة يديها تحت نهديها المستديرين الداكنين ودفعتهما إلى الأعلى وهي تحاول أن ترفعهما لتضعهما في مرمى لسانها الذي بحث عن حلمتيها بلا جدوى. وقفت على أطراف أصابعها، كأنها تجهل أن نهديها لا يقتربان من فمها هكذا، وإنما يرتفعان وهي تشبُّ، فتبقى المسافة بينهما واحدة، لكن بفضل هذه الحركة الغريزية، بدا جسدها أرشق، إذ ترتبت عضلاتها بشكل آخر، فانضم ردفاها واستدارا، وتشكل شيء يشبه غمازة الوجه عند خاصرتها، عند جانب ردفها، بين منبت الفخذ والورك. بدأت المرأة تئن لأن لسانها الأحمر والمشدود والمدبب ـ الذي لم تتوقف عن إدخاله وإخراجه من فمها ـ لم يتمكن من الوصول إلى حلمتيها، وهي تنظر إلى نهديها وتعصرهما، مع تحريكهما دائريًّا كلما أدركت في بعض اللحظات أن لسانها لا يطالهما.

اقترب هندي صغير مفتول العضلات منها وهو يتأملها. كان قضيبه القصير مشدودًا ومنتصبًا بمحاذاة بطنه وكاد أن يلتصق به. تجاهلته المرأة التي استمرت في أنينها، وهي مصرة على إيجاد التواصل بين لسانها وحلمتيها. اقترب الهندي منها، آتيًا ببطء من ورائها، وتحيَّن اللحظة ثم التصق بها بشدة بعد قفزة خفيفة إلى درجة أن عضوه المنتصب اختفى في الشق الفاصل بين ردفيها المشدودين الناتئين، كأن هذا الخندق العمودي غمدٌ مُفصَّل على مقاسه. أحاطت ذراعا الهندي بالمرأة واستندت يداه إلى يديها اللتين عصرتا نهديها من دون أن تتوقف عن أنينها الذاهل، أو أن يُغير جسدها الذي اجتاحته اختلاجات تشنجية من وضعيته السابقة. لم يشِ شيء في تعبيرات المرأة أو في سلوكها العام بأنها لاحظت وجود هذا الجسد الصغير مفتول العضلات الذي التصق بإلحاح

بجسدها الأكثر استدارة وضخامة. أسند الرجل ذقنه إلى عظم كتفها وحاول أن يدفعها بذراعيه إلى الانحناء نحو الأمام، بل ربما إلى أن تقف على أربع، ليتمكن من دون شك أن يلج فيها بقضيبه الصغير المنتصب والتائه في الحز العمودي الفاصل بين ردفيها. لكن جسد المرأة ظل مشدودًا، بساقيها المفتوحتين، وردفيها المرفوعين، ويديها اللتين ارتفعتا وهما تعصران نهديها ولسانها الأحمر المدبب الذي ظل يخرج ويدخل من وإلى فمها الذي امتلأ بخيوط سائلة أفلتت من عند زاويتَي شفتيها وشكلت مسارات متوازية عند جانبَي ذقنها إما من اللعاب وإما من الريق، بسبب أنينها المتحشرج الناجم تحديدًا عن هذا الخروج والدخول المستمر. ظل الرجل يغرز ذقنه غاضبًا وبلا جدوى عند بروزات عظام كتفها، والتصقت بقية جسده، بإصرار، بجسدها الأكبر منه، إلى أن رفعت هي يديها من على نهديها ومدت ذراعيها لتبعدهما عن جسدها، قبل أن تتخلص، بانتفاضة غير متوقعة ومفاجئة، من الرجل الذي سقط على ظهره فوق الأرض الرملية. بدا أن المرأة خرجت من نوبتها، إذ مضت بخطوات هادئة أبية في اتجاه الأشجار، من دون أن تنظر وراءها أصلًا. ظل الرجل ينظر إليها وكأنه دائخ. لم يبدُ مستاءً أو مهانًا مما حدث. فجأة، ارتخى عضوه، الذي ظل منتصبًا بإلحاح قبلئذٍ بلحظات، واختفى بين ساقيه. تاهت نظرته الزجاجية بين الأشجار بشرود أكثر من اللامبالاة. بات واضحًا أن المرأة، التي جذبته كبوصلة تُشير شمالًا، لم تعد تشغل أي حيز في أفكاره، أما في أفكاري أنا، فغدا وجودها ملتبسًا: لقد ظهرت فجأة بخلاعة أمام عينَي وسط شفافية النهار، واختفت بين الحشد بأنفَة، بعد أن بسطت فوق جسدها إيماءاتها غير المعهودة. إنها الآن ـ في الوقت الذي تصر فيه اليد الهشة لرجل عجوز على أن تُكسب بريشة الكتابة هيئةً ماديةً للصور التي تُرسلها إليه ذاكرته من دون أن يعرف كيف ومن أين ولِمَ تُرسل ـ ليست أقل التباسًا مما كان عليه الأمر بعد دقيقتين أو ثلاث على اختفائها.

الجدران البيضاء، وضوء الشمعة الذي كلما اهتز ارتعش معه ظلي فوق الحائط، والنافذة المفتوحة على الفجر الصامت الذي لا تُسمع فيه إلا حكة ريشتي وطقطقة مقعدي بين الفينة والأخرى، وساقاي المتشنجتان اللتان تتحركان أسفل الطاولة، والأوراق التي أملأها بكتابتي البطيئة فتُصدر حين تتراكم فوق الأوراق التي كتبتها سابقًا حفيفًا خاصًّا يتردد صداه في الغرفة الخاوية. تُشكل كل هذه الأمور جدارًا سميكًا يصطدم به الواقع المعيش، إن لم يصطدم به حلم يقظة سريع وهش بعد العشاء. لو نجح ما ترسله الذاكرة دوريًّا في إحداث صَدع في سُمك هذا الجدار، فإن الثبات الثخين للحاضر يتشكل مرة أخرى، ويغدو صامتًا ومستويًا من جديد، بمجرد أن يترسب ما ارتشح منه فوق ورقتي كخَبَث الحديد، كأنه ما من صور آتية من أماكن أخرى قد اخترقته. لا بد أن هذه الأماكن الأخرى، الملتبسة والشبحية التي لا تُلمس كالهواء الذي أتنفسه، هي ما كانت عليه حياتي. مع ذلك، ففي بعض اللحظات، تتنامى هذه الصور داخلي بقوة شديدة إلى درجة ينمحي معها هذا الجدار السميك، وأشعر كأنني في جيئة وذهاب، بين عالمين، ويغدو الحاجز الرقيق للكيان

الذي يفصلهما مَساميًّا وشفافًا في الوقت ذاته، فيبدو الأمر كأنني موجود الآن ـ الآن فعلًا ـ على هذا الشاطئ الكبير شبه الدائري الذي تجتازه بين الحين والآخر في كل الاتجاهات أجساد متينة وعارية، وحيث تظهر هنا وهناك على رماله الناعمة ـ التي انقلبت حالها من آثار أقدامهم المشوهة ـ فضلات جافة ترسبت من النهر الدائم، وأطراف أغصان سوداء أحرقها العراء والنار، بل حتى الوجود غير المرئي لما هو غريب عن التجربة.

حينذاك بدا الأمر كأن صخبًا ما ينبثق من الهنود ـ من أجسادهم ذاتها ـ ويتشابك في الأعلى بين أوراق الأشجار. ملأ هذا الصخب الأبكم الحيز بأكمله والأشجار التي تُحوط الشاطئ والأرض الرملية التي انعكست فوقها الظلال الزرقاء الطويلة. إنه صخب الأعضاء المشدودة، والعضلات العاصرة والمسام، الذي تمازج مع الزفير غير المسموع للهمسات الداخلية التي لم تألُ إلى الخارج لتُفسد الهواء؛ وأيضًا مع الصرير الذي ـ لدى انتعاش الهواجس المتآكلة ـ وُلد من الرغبات المجهولة التي حُكم عليها بالتصلب والتعفن في ظلمات كينونتهم الرطبة عديمة القاع؛ وبالمثل مع الاشتهاء العسير الذي التهم السماء الداخلية لكينونتهم كنار باردة مجهولة ومضى بها لاشعوريًّا نحو الموت. تحول الهنود فجأة من النظرات الواهية إلى الملامسة. فردَ بعضهم أجسادهم على الأرض كأنهم سيرتاحون، وجرُّوا معهم جيرانهم، الذين استسلموا لهم. تفتحت أجساد بعضهم كالزهور وفتحها آخرون كالبهائم، وتمشى آخرون بين الحشد بحثًا عن الشيء الذي يُلائم خيالهم بالدقة اللامعقولة لمن يرغب في مواءمة عالمَيه الداخلي والخارجي، كأن هذين العالمين من طينة واحدة. لم يضعوا السن أو الجنس أو صلة القرابة في معاييرهم. قد يولج أب في ابنته ذات الست أو السبع سنوات، وقد يأتي حفيد بالفاحشة مع جده، وقد تغوي أم ابنها كأنها عنكبوت في وقت التزاوج، قد تلعق أخت بتلذذ واضح نهدَي أختها، وهنا وهناك، استسلم بعض الانعزاليين، سواء وهم يرقدون على ظهورهم أو وهم يستندون إلى إحدى الأشجار، إلى متعة أونان(2)، وكرروها مرة تلو الأخرى.

امتلأ الغسق باللهاث والصرخات المكتومة والتنهيدات والحشرجات والآهات. تسلى بعضهم في ثنائيات والبعض الآخر في ثلاثيات، وآخرون في رباعيات وخماسيات وصولًا إلى مجموعات تتكون من اثني عشر شخصًا وأكثر. فتحت طفلة لا يتعدى عمرها سبع سنوات وهي واقفة على أربع مهبلها الضيق بأصابع عازمة، واستحثت بعينيها الزجاجيتين من فوق كتفيها صبيًّا وقف منتظرًا وراءها، ومعه عصا ملساء سميكة يحوطها بقبضة يده، وهو يداعب قضيبه بيده الأخرى، مستبقًا اللذة. جلدَ رجل نفسه بغصن أخضر، ومَص رجلان قضيبَي بعضهما البعض بالتبادل، كأنهما منعزلان عن العالم، وكل منهما راقد على جانبه في وضعية معاكسة للآخر. بدا بعضهم وكأنهم يعاشرون كيانًا غير مرئي، فلو أنهم رجال فقد شقوا الهواء بقضبانهم في جيئة وذهاب، ولو أنهم نساء، فقد وقفن على أربع وهززن أردافهن وتلوَّين كأن أحدًا موجود في داخلهن فعلًا، إلى

درجة قد يُرى معها انتشاؤهن وهو يتجلى كأنها معاشرة حقيقية، وبصورة قد يسمع معها تأوهِهن كما يحدث حين يولج أحد ما فيهن ويصلن إلى الذروة. كررت المرأة، التي رفعت قبلئذٍ بوقت قليل نهديها لمحاولة النيل من حلمتيها بطرف لسانها المدبب وتخلصت بانتفاضة متمرسة من الرجل الذي حاول أن يولج فيها، إيماءاتها الفاحشة في أماكن مختلفة، وكلما اقترب أحد منها، توقفت بعبوس وأنفة عن جهودها غير المجدية، وابتعدت من دون أن تلتفت، بحثًا عن مكان هادئ لتبدأ من جديد.

مع حلول الظلام، بدأ الهنود الذين دعوني إلى تناول السمك يشعلون بؤرًا من النيران. التمعت الأجساد العارية والمتعرقة مع بريق ألسنة اللهب، وانعكست بؤرة نار موجودة قرب الساحل فوق مياه النهر. اجتازت أطياف خاطفة متفرقة وواضحة الإضاءة الملتهبة وتاهت لاحقًا وسط الظلام. تمرغت كتلة أجساد عديمة الشكل ـ ربما بالصدفة أو عمدًا ـ وهي تتشابك في معاشرة متنوعة الأطراف فوق طبقة من الجمرات، فاختلطت بعض الصرخات الرهيبة بالتنهيدات، والصياح، والتشنجات، ثم رفعت هذه الأجساد المتمرغة، بحركاتها الملتوية وسط النيران المتحركة، دفقة من الشرر السريع. بالنسبة إلى من انتهوا، فقد ذهبوا وهم يلهثون ليستعيدوا قواهم وحماسهم بالكحول الموجود في الجِرار.

على الرغم من أننا تمشينا من دون توقف وسط القبيلة، فقد يُقال إننا ـ نحن الذين لم نشارك في العربدة ـ بدَونا غير مرئيين إلى درجة تجاهل الحشد المسعور لنا. مروا إلى جوارنا من دون أن يوجهوا إلينا ولو نظرة واحدة، أو بالأصح كأننا شفافون، إذ اخترقتنا نظراتهم التائهة بحثًا عن شيء أوقع كي تستقر فوقه. بدا الأمر كأننا نتجول عبر عالمين مختلفين؛ كأن طرقنا لا يمكن أن تتلاقى أيًّا كان خط سيرها؛ كأن جدرانًا زجاجية تفصلنا: على سبيل المثال إن تقدمت امرأة في اتجاهنا وهي تنفتح وتختلج، فكانت إما أن تتوقف فجأة لدى وصولها إلينا قبل استدارتها وابتعادها في الاتجاه المعاكس، وإما أن تمضي من دون أن تتوقف، لأننا كنا ننتحي بأنفسنا جانبًا بصورة شبه غريزية حين نراها، فتستمر هي في طريقها من دون أن تحيد عنه؛ كأننا لا نشغل أي مكان في هذه المساحة؛ أو كأننا لسنا موجودين هناك ونشق الفراغ بأجسادنا. صار سهلًا على المرء أن يعرف أن القبيلة باتت مشحونة داخليًّا في رحلة لا نهاية لها، وأن الأجساد وحدها هي ما هام حولنا كقشور خاوية من عناق إلى آخر. بدأت النجوم تظهر فوق رؤوسنا كالجمرات؛ واحدة تلو الأخرى في البداية، ولاحقًا كحفنات متتالية، ثم بصورة لانهائية. أضاءت النجوم السماء السوداء بنيرانها المتنوعة الحمراء والصفراء والخضراء والضاربة إلى الزرقة، لكنها بدت أخفت إلى جوار القمر الهائل الذي بدأ يرتفع عند الجانب الآخر للنهر. لقد حوَّل الليل النهر الذي لا نهاية له إلى خواء أسود، لكن القمر البطيء شقه إلى نصفين بقطاع هش أبيض عريض، وألقى عبر الأشجار بأشعة نوره الأبيض النقية التي أضاءت أجزاء من أجساد أو مجموعات أجساد أو وجوهًا تائهة اهتزت

وسط ظلام الغطاء النباتي.

خلَّف الليل، فوق الرمال وفي الحيز المحيط بها أثرًا لأجساد متهتكة وسط الرماد الكثيف والعشب الشائط والأغصان التي اسودت بفعل النيران. ظل بعض هذه الأجساد يختلج وهي متشابكة في عناقات آلية. تحركت أجساد غيرها بين الحين والآخر، وتأوهت أجساد أخرى بصوت خفيض وبقي بعضها الآخر بلا حراك. بينما ينبثق الفجر، اجتاز أحد الهنود الشاطئ في اتجاه النهر وهو يلامس أنفه الدامي. توقف هندي آخر عن الحركة وظل جسده ممددًا على بطنه فوق الأرض الرملية تحت إحدى الأشجار، فعجزتُ، بعد أن انحنيت للنظر إليه بشكل أفضل، عن تحديد ما إذا كان نائمًا أم ميتًا. بينما يرتفع الفجر الأزرق وينعدم لونه قبل أن تبدأ الأشعة الأولى الأفقية للشمس في كسوة رؤوس الأشجار بلونها الذهبي، بدأ الهنود يظهرون من جديد، وهم يحاولون بلا جدوى التخلص من الثقل الذي جعلهم يتقهقرون إلى قلب الليل. ترنحوا بِحيرة وسط الهواء البراق وبقي كثير منهم راقدين وهم يعيدون تسوية أوضاعهم أو وهم عاجزون عن النهوض، وبالفعل لم ينهض ستة أو ثمانية منهم مرة أخرى على الإطلاق. توقف أحدهم حائرًا بضع لحظات ظل فيها ساكنًا وشاردًا، ثم التفت فجأة وشرع يضرب رأسه في شجرة ـ في كل مرة بعنف أكبر ـ إلى أن سقط وهو يدمى من فمه وأذنيه. تحدث بعضهم بمفردهم بصوت مرتفع أو تباكوا. بدأوا في التوجه إلى مساكنهم حين استقر الصباح الذي ظل يلازمه بعض شحوبه. غلت قدور ضخمة من الفخار فوق نار كبيرة في الأرض العراء الموجودة وسط المساكن. قلَّب بعض الرجال ما فيها برصانة. لما اقتربت لأنظر، تحققت من أن ما يُطهى هي أحشاء ورؤوس زملائي، مخلوطة ببعض البقوليات المجهولة. ابتعدت مجددًا نحو النهر، وأنا أعبر الحشد الذي يمضي في الاتجاه المعاكس، نحو القدور. حاول رجل أن يقيء في الماء، وهو يجثو عند الضفة. انتفخت عيناه واحتقن وجهه، وذراعاه معقودتان فوق بطنه. بدا أنه يعاني. حاولت أن أُكرهه، لكنني لم أنجح. لما رآني، تضخمت عيناه قليلًا، لتَشِي بأمل ما. تمتم، كأنه يبتسم، بعبارة:

ـ ديف-جي، ديف-جي.

وود أن يومئ، لكن جسده لم يطعه. في النهاية، انهار في الماء، في تشنج أخير. ظل هناك، طيلة أيام، ووجهه غاطس في النهر، بينما يهزه التيار.

حسَّنت الأحشاء المسلوقة وما تبقى من الكحول من معنويات الهنود نوعًا ما، لكن ليس لوقت طويل. عبرت عجوز هادئة الشاطئ بمفردها وجلست بالقرب من الضفة، وظلت تنظر إلى منتصف النهر وهي تقرض رأسًا انتزَعت كل ما فيه من لحم تقريبًا. لم يبقَ سوى جمجمة تتدلى منها نسائر غضروفية قرضتها العجوز بأسنانها القليلة بشرود ومن دون فاعلية. تمشَّى بعضهم في مجموعات وهم يتحدثون بصوت مرتفع، فيما احتبى آخرون الأرض في دوائر صامتة تلافوا فيها،

بتوتر وقلق، النظر إلى بعضهم البعض. تغوطت امرأة بشرود وهي تجلس القرفصاء تحت إحدى الأشجار، وظلت بعض المجموعات المتناثرة تُشارك في معاشرات متهورة وغير مكتملة. مع حلول منتصف النهار، بدأوا يهدأون. هام أواخر الهنود البطيئون في الشاطئ الأصفر، وسط الهواء البراق، بحثًا عن مكان مناسب للراحة. غدا صعبًا أن يميز المرء وسط كل هذه الأجساد المنبطحة مَن النائمون ومَن الموتى ومَن شردوا في تأملاتهم وهم يضيِّقون أعينهم ويتنفسون ببطء. تمشى الشواءون بينهم، بلامبالاة، من دون أن يبدو عليهم حتى أنهم لاحظوا وجودهم، ومددتُ جسدي تحت ظل شجرة ونمت حتى الغروب. لمَّا استيقظت، وجدت أن لون النهر أوشك أن يُصبح بنفسجيًّا، فيما ظل فيه أحد الهنود يهزني بلطف وهو مقرفص. قال وهو يلامس ذراعي بأطراف أصابعه:

- ديف-جي، ديف-جي.

حين فتحت عينَي، ابتسم لي وأشار إليَّ برأسه كي أتبعه. مرة أخرى، تناول الشواءون بين المساكن الواقعة في الخلف، أسماكهم بكل تواضع. دعوني ببشاشة إلى تناول الطعام وقدموا لي الماء، فيما واصلت القبيلة، وهي متفرقة في كل الأنحاء، رقادها العميق.

ما سُمع في الليلة الثانية حتى الصباح، ليس صخب الليلة الأولى، وإنما تنهيدات ونحيب متقطع، ومحادثات مكتومة وعابرة، ونداءات من دون أمل، وعويل. تحدثوا قليلًا وببطء. حين تمشيت بينهم تابعوني بنظرتهم - كأن قواهم قد نفدت - وبعدئذٍ بدقيقة نفضوا رؤوسهم وأشاحوا ببصرهم، بل إن بعضهم انتحب. بدوا أطفالًا مرضى منبوذين. مع الشروق، تعثرت بواحد منهم يرقد على جانبه فوق الأرض وهو يصنع رسومًا فوق الرمال بغصن صغير ويمسحها على الفور بطرف يده، ولم يشغل نفسه طيلة النهار بشيء سوى هذا.

بدا كثير منهم مرضى، إذ صدرت منهم إيماءات تنم عن الألم وظلوا يلمسون أجسادهم أو عانوا من الإسهال أو افترشوا الأرض بأجسادهم وهم يتنفسون بصعوبة إلى درجة بدوا معها كأنهم يعانون من الربو أو يحتضرون. انتفخت أعينهم أو ضيقوها واحتقنت وجوههم، وبدا شعرهم دهنيًّا وباهتًا. انجرح كثيرٌ منهم أو شوهت الحروق جلودهم. تدلت ذراع أحدهم من جسده، كأنها قد انكسرت من عند كوعه، وعرج كثير منهم بل زحفوا كي يتنقلوا. ظهروا غالبًا قرب النهر ليغسلوا وجوههم وهم يقرفصون عند الضفة أو ليرشوا أجسادهم بمائه. عبَّر الجرحى والمرضى منهم عن ألمهم بالشهيق بقوة وهم يكزُّون على أسنانهم ولُعابهم يسيل. ظل أحدهم يبصق من دون توقف وهو يستند إلى شجرة، فيما تغوط آخر وأخذ ينظر إلى فضلاته باهتمام كبير وهو يحركها بطرف إصبعه. انمحى حماس الأيام السابقة وتركهم خائفين وفي حالة يُرثى لها. بدا الأمر كأن قوس الرغبة قد ارتدت بعد أن أطلقت سهامها، فأصابتهم في وجوههم تحديدًا لتتركهم دائخين ومتألمين.

بدا الأطفال عجائز والعجائز أطفالًا. صارت النساء غليظات وفقدن ملاحتهن كأنهن رجال، وصار الرجال لينين وضعفاء كالنساء. ظهر في وجوه كثير منهم حبوب ضاربة إلى الحمرة تبرز منها نقطة قيح بيضاء. أينما وجه المرء بصره لم يرَ شيئًا سوى أعين هاربة ولحم ذابل. تعارض مظهرهم، كأنهم لطخات داكنة مهتزة، مع ضوء الصيف الثابت الذي بدا براقًا وفي كامل عنفوانه ـ حتى ليلًا ـ مع قمره الهائل ونجومه التي لا حصر لها. لكن أظهر الشواءون، بتعقلهم الهادئ وأجسادهم النظيفة والقوية، أن في هؤلاء الهنود قوة قادرة على إبقائهم متماسكين وواعين، وفي مأمن من كل ما هو ملتبس.

مع مرور الأيام، بدأوا يخرجون، رويدًا رويدًا، من تقوقعهم، ولم يحدث هذا من دون جهد. احتاج بعضهم إلى أسابيع وشهور. شهدت المدة التي تلت الأمر وفيات كثيرة في القبيلة. بدأوا ينهضون بعبوس، لكن وهم صاحون، لتنظيف الحقل والشاطئ، والاهتمام بالمرضى ونقلهم إلى داخل المساكن، ولدفن الموتى. جاءوا وذهبوا من بين الأشجار بتركيز وتكاتف ـ برصانة أو شيء يُقارب القسوة ـ ولم يتبادلوا إلا العبارات السريعة التي لا غنى عنها، من دون أن يظهروا أي مشاعر. دخلوا النهر ليغتسلوا، وصنعوا أدوات من الخشب والعظام، ونفذوا بكفاءة لا تشوبها شائبة كل هذه الأفعال التي تمنحهم، هم والمكان الذي يسكنونه، إطارًا خارجيًّا كثيفًا لا يُمكن دحضه وتستشعره الحواس فورًا ويبدو كأنه لا يتبدل؛ وهو الإطار ذاته الذي رأيته من على الزورق وأنا أقترب مع حلول الليل من الشاطئ شبه الدائري وسط رائحة البشر التي وصلتني من عند بؤر النار. احتجت فقط إلى يومين أو ثلاثة أيام لأتحقق من أي قاع أسود وجب على هؤلاء الهنود أن يصعدوا وهم يجرون أنفسهم نحو الهواء الشفاف ليتمكنوا من إظهار وجه إنساني إلى العالم الخارجي.

صارت القبيلة كلها كأنها مريض واحد يتعافى تدريجيًّا من علله، فبدا من تأخروا في الشفاء أو ماتوا كأنهم أجزاء متضررة جدًّا لا يُمكن للكيان الواحد الذي تنتمي إليه استعادتها. غدت أجسادهم دلالات مرئية على وجود مرض لا يُرى، وباتت جروحهم وضعفهم وشحوبهم ودماؤهم وقيحهم وحروقهم إشارات على أن هناك شيئًا يحكمهم من الظلمات ـ لأن الأمر يروقه هكذا ـ وبالمثل على أنه موجود في الجميع وموزع بينهم. مع ذلك، فهو شيء أشبه بمادة فريدة يبدو كل واحد من الهنود أمامها ـ إن نُظر إليه بصورة منفصلة ـ هشًّا وثانويًّا. لا أعرف من الرب الذي قد يكونه هذا الشيء، لو أنه أصلًا رب، لأنني على مدى سنوات كثيرة لم أرَ قَطُّ هؤلاء الهنود يعبدون شيئًا: إنه كيان حكمهم على الرغم منهم، وتحكم في أفعالهم أكثر من الرغبة أو المساعي الحسنة وتجلى بين الفينة والأخرى، مهما تناسى الهنود وجوده أو تظاهروا بتجاهله، كوحش اللفياثان الذي لا يُرى إلا كلما ظهر من أعماق المحيط.

تعافى أغلب المرضى بعدئذٍ بأسبوع، وبات يشق عليَّ التمييز بين الشوائين الهادئين والأصحاء جدًّا وبقية القبيلة. خرجت قلة منهم ببطء وتردد من المساكن. ظهروا في كل صباح عند المدخل،

وأعينهم تطرف أمام الشمس المرتفعة بالفعل، وهم يستندون إلى حافة المدخل أو إلى أحد أقاربهم، مع نظراتهم التي تجولت وهي دائخة قليلًا بين الأوراق المتلألئة. ظلت في كثير منهم آثار لا تُمحى: فقد أحدهم أذنًا، وفقد الآخر عينًا ظلت تقيح على فترات متفرقة لعدة شهور لاحقة، وأصبح آخر أعرج طيلة حياته. التقيتهم أحيانًا بالمصادفة عند الشاطئ أو الأجمات، وبعد أن رأيتهم مُدمَّرين بتلك الدلائل الواضحة على تطرفهم مع أجسادهم ذاتها، حاولت أن أستجوبهم بنظرتي لأتبين ما إذا كانت هناك إشارة أو تعبير أو إيماءة تشير إلى وجود جمرات باقية من هذه الأيام الكريهة لا تزال تضطرم داخل ذاكرتهم، لكن حين التقت عيونهم بعينَي، بدت بريئة وصامتة وغير مبالية أو عاجزة عن الولوج إلى الذكريات. ليست الابتسامة السريعة الساخرة تقريبًا التي وجهوها إليَّ عامة إشارة على التواطؤ أو التعايش، أو أنهم يقبلون شهادتي ويعترفون بحساسية صمتي في الوقت ذاته، أو أنهم يشعرون بنوع من الأفضلية بفضل سلوكهم الذي لا تُسبر أغواره حين يجدون نظراتي الملحة والمستفسرة، بل إنها على النقيض التام مرتبطة ـ لا بالأفعال التي ارتكبوها وشهدتها ـ وإنما بأفعال معينة ظنوني قادرًا عليها وانتظروا مني أن أرتكبها يومًا ما. بعد انقضاء العاصفة الموحلة، عادت القبيلة لتعاملني ببشاشة ووقار. يوجد من يزعمون أن انطباعاتنا الأولى هي الأعدل والأصح، وعليَّ أن أقول إن ادعاء مثل هذا لا يدوم مع هؤلاء الهنود، إذ تحول من كانوا أسوأ من الحيوانات المتوحشة في الأيام الأولى بمرور الوقت إلى أعف المخلوقات وأرزنها وأوزنها التي شاء القدر أن ألتقي بها في حياتي الطويلة.

قد تستحق كياسة هذه القبيلة أن تُسمى تخنثًا أو خجلًا، فنظافتهم هوس، واهتمامهم بالغير فيه تكلف مفتخر. تنامت هذه الدماثة المبالغ فيها كلما مرت الأيام، إلى أن وصلت إلى درجة غريبة من التعقيد. كان خجلهم مذهلًا، لأنني في الشهور التالية لم أرَ هنديًّا واحدًا قَطُّ يُلبي احتياجاته على الملأ، وعلى الرغم من سيرهم عراة تمامًا، فإنني لم أرَ عضو أحد منهم ـ ولا حتى بين الأطفال ـ يفعل شيئًا أو يظهر في حالة إلا التدلي مرتخيًا بين ساقيه وهو نصف مختفٍ، كأنه ليس موجودًا. بدا كل من التلامس والتحسس والتلميحات الجسدية أمورًا مستبعدة من علاقاتهم العلنية. احترزوا منها بصورة كبيرة جدًّا إلى درجة أنني حتى الآن ما زلت أتساءل ما إذا تضاجعوا في الخفاء، فلولا الولادات التي حدثت في كل أوقات العام لخلص أفطن المراقبين إلى أن هؤلاء الهنود يجهلون المعاشرة. وجَّه الرجال والنساء الكلمة إلى بعضهم البعض بتملص وشرود، حتى وإن انتموا إلى نفس العائلة. تميز سلوكهم مع الأطفال بالصرامة والإيجاز والحسم، لكنه لم يخلُ من التقدير، بل المودة. بوجه عام، فصلوا بوضوح بين النساء والأطفال من ناحية، والرجال من ناحية أخرى، واعتنوا جميعًا بنظافتهم بصورة مفرطة وشبه مستفزة. هكذا، قد يغدو الطفل ذو العام أو العامين الذي يتمشى وردفه ملطخ بالفضلات سببًا أكيدًا للنقاش بين الرجل وزوجته، فيما تعرَّض للصفع فورًا أي طفل يتبول أمام شجرة في مكان قد يُرى فيه.

أشرت في الأعلى قليلًا إلى أنني لم أرَهم يتبولون أو يتغوطون في العلن، إلا في أوقات العربدة. أيضًا، لم أتعثر بفضلاتهم في محيط النجع قَطُّ، وتفهمت بعد مرور وقت قليل أنهم أصلًا يدفنونها وأن الأمر لا يقتصر على تغطيتها سطحيًّا بالتراب، وإنما اعتادوا أن يصنعوا لها حفرًا صغيرة في الأرض ويردموها لاحقًا إلى أن تختفي. في فترات الحر، تحمموا في النهر عدة مرات خلال النهار، بصورة جعلت نطاق الشاطئ الأصفر ممتلئًا على الدوام بهم. كلما تمشيت على الضفة، رأيتهم وهم يدخلون ويخرجون باستمرار من الماء، وكلما مررت قرب المكان بالمصادفة، من دون أن أتمكن من رؤية النهر، لم أتوقف عن سماع ضوضاء غطسهم طوال النهار المبارك، بل حتى ليلًا. سخنوا الماء في قدورهم الفخارية في الشتاء ليتحمموا، لكن من اغتسلوا في النهر أيضًا ليسوا قلائل، إذ توجهوا بعفوية نحو الضفة، غير مكترثين بصقيع الفجر الأزرق. لطالما غسلوا الأطعمة وأعادوا غسلها من دون كلل قبل أن يبدأوا في طهيها. اعتادوا أن يكنسوا دواخل مساكنهم وما حولها أكثر من مرة يوميًّا بمقشاتهم المصنوعة من الأغصان، وفي أمسيات الصيف رشوا دواخلها وخوارجها بماء النهر الذي جلبوه في جرارهم، وهم ينثرونه بأيديهم، ليتلألأ مع الضوء الأخير للنهار. بدوا متباهين وثقلاء الظل، من فرط كرمهم، إذ يكفي أن يمر المرء قرب مساكنهم كي يُقدموا، على الرغم من تركيزهم عامةً في أعمالهم اليومية، على تحيته بإصرار والذهاب لحثه على التوقف بضع لحظات عند أبوابها وبدء حوار طويل يهدف إلى الاطلاع على الحالة الصحية لكل واحد من أقارب الشخص المار، من دون تجاهل أي فرد، مع المطالبة بإجابات دقيقة، ما يؤدي إلى ردود أوسع مع أسئلة جديدة، فيمتد هذا الطقس قرابة الساعة التي يطلب فيها صاحب المسكن إيضاحات حول الحالة الصحية لأشخاص سبق أن رآهم على الشاطئ في الصباح ذاته وتبادل معهم التحية من بعيد. كلما حدثت هذه اللقاءات العرضية في أي مساحة عامة، أي في أي مكان بعيد عن المساكن، اقتصرت الأمور على حوارات سريعة ومقتضبة، بل متعالية بعض الشيء. المسافات أيضًا ضرورية، إذ باعدت بينهم دائمًا مسافة قدرها متران أو ثلاثة كأن عدم تلامس الهنود وتجنب أي احتكاك بدني بين الشخص ومحاوره بأي ثمن أحد اهتماماتهم الرئيسية. اعتادوا أن يقفوا بضع ثوانٍ بإباء وأجساد منتصبة تميل قليلًا نحو الخلف، وهم يتبادلون عبارات سريعة تخلو من الحرارة والصدق، قبل أن يواصلوا طريقهم بهامات مرفوعة وظهور وأكتاف متيبسة، وهم يضيقون أعينهم، في تصرف تقليدي يعكس العزة والرصانة. جعلهم هذا الإفراط في الحشمة والوقار سريعي التأثر ويشعرون بالإهانة من أتفه الأشياء، فلو حدث على سبيل المثال أن شهدت المحادثة من دون قصد تلميحًا صادمًا نوعًا ما، أحنى المشاركون رؤوسهم، وتبدلت سيماهم كأنهم مستغرقون في التفكير، وصمتوا للحظة، قبل أن يتحججوا بعد بضع دقائق بأي عذر ليغادروا. لطالما أبعدوا الأطفال قبل تناول أي موضوعات مرتبطة بالمعاشرة أو الدورة الشهرية أو الفضلات، وإذا ما تصرف أحدهم بخفة، وشرع يتحدث عن الموضوع من دون أن يحث أصغر الموجودين على

المغادرة، طالبوه بنبرة حازمة لا تقبل المجادلة بالعودة إلى النظام مجددًا. بدأ الهنود تدريجيًا يستعيدون الإيقاع السريع الذي اعتادوا أن يفعلوا به كل شيء، كأنهم احتاجوا إلى وقت معين ليتعلموه من جديد. تميز الذكور بهذه السرعة، لأن الإناث تحركن بوداعة غير مكترثات، وعملن دائمًا وهن يُفكرن في شيء آخر. تنقل الرجال وهم يهرولون تقريبًا، وكلما تقاطعت طرقهم مع النساء، قفز فارق السرعة أمام الأعين. كأن الرجال مثّلوا الأفق المتحرك الصلب لمركز غامض وناعم ومستقر شكلته النساء. بدا الرجال أحيانًا، كلما تقابلوا في الشاطئ الأصفر وتوقفوا لتبادل رسمياتهم المقتضبة على بُعد مُناسب من بعضهم البعض، كأنهم يقفزون في أماكنهم أو كأن ثباتهم الكامل ممنوع عليهم، من فرط تعجل إيماءاتهم. على سبيل المثال، كلما ذهبوا إلى الصيد في زوارقهم، اجتازوا الشاطئ ركضًا وقفزوا إليها وابتعدوا بها وهم يجدفون بقوة، بصورة جعلتهم يختفون بعد بضع دقائق في الأنهار الفرعية الصغيرة التي تشكلت بين الجزر. بدت المسألة، في ظل هذه السرعة المستمرة والمعتادة، كأنهم يفعلون كل الأمور ركضًا، وكلما حل الليل، سقطوا فوق أرض المساكن المكنوسة وناموا حتى الشروق.

ملأوا الصباحات المشمسة والحيز شبه الشفاف بذهابهم ومجيئهم. لم يبقَ أثر آخر مما حدث في الأيام الأولى، إلا بعض المشوهين الذين تمازجوا مع بقية القبيلة. إنها قرية متحضرة وعاملة ومتقشفة. لم يمزحوا إلا قليلًا، وباستثناء الأطفال الذين اعتادوا أن يلعبوا بشكل عام في ضواحيها، فلم يضحكوا تقريبًا. بدت النساء أقل جدية من الرجال، أو ربما أقل صرامة. اقترب سلوك الرجال من حد الفظاظة، فيما بدا الذكور والإناث كأنهم يفعلون الأمور لا لاستطابتها، وإنما بدافع الواجب. بدت المتعة غائبة عن حياتهم العامة. لم تكن الشهوة في تصرفاتهم العلنية هي ما أثبت أنهم يتعاشرون في الخفاء، وإنما بطون النساء وهي تكبر أثناء الحمل والأطفال المجعدون الملطخون بالدماء الذين ظهروا أمام شمس هذا العالم بين حين وآخر.

سواء كنتُ هدفًا لاهتمامهم أو لامبالاتهم أو مراعاتهم المفرطة أو العابرة أو مطالبهم غير المفهومة أو ازدرائهم المستمر، مضيت بينهم وأنا مقتنع بأنهم لن يحصلوا بموتي على الأمر الذي بدوا أنهم ينتظرونه مني ـ هذا لو أنهم قد انتظروا شيئًا فعلًا ـ وإنما بوجودي المستمر واهتمامي الصبور بخطبهم المسهبة. حدث أحيانًا أن اقترب أحد الهنود مني، ووقف وشرع في إلقاء خطبة لانهائية ممتلئة بالإيماءات البطيئة الشارحة التي تشير إلى الأفق والنهر والأشجار، ليس من دون أن يثني ذراعه ويضرب صدره بقوة، جاعلًا من نفسه بهذه الطريقة مركزًا لهذه الدفقة من الكلمات السريعة الزاعقة. في مرات أخرى، وأنا أمر إلى جوار المساكن، إذا بصوت امرأة تعمل في الظلال إلى جوار بابها يحثني على التوقف وهي تتمتم بنبرة خافتة ناعمة:

ـ ديف-جي، ديف-جي.

فتبدأ من دون أن تشيح ببصرها عن عملها خطابًا قصيرًا محددًا، ثم تواصل عملها لاحقًا في صمت كأنني قد رحلت، وكل هذا من دون أن توجه إليَّ نظرة واحدة. اعتاد الأطفال أن يتبعوني وأن يتحدثوا معي بصورة أكبر. إنهم الوجه الضوضائي الآخر للقبيلة، لكن رصانتها العامة نالت منهم، وعملت على إخماد حماسهم.

مرت الأسابيع والشهور. جاء الخريف، ومع إحدى العواصف انمحى الصيف. غدا الضوء الذي يظهر بعد المطر أشحب وأرق، وفي فترات القيلولة المشمسة، بقيت جالسًا على الأرض بين الأوراق الصفراء التي تساقطت من دون توقف وتعفنت أسفل الأشجار، وأنا أحلم يقظًا داخل الانبهار الملتبس لما هو مرئي. حينما لم تقدم المودة أو الذاكرة أو حتى الغرابة نظامًا أو معنى لحياتي، وحينما بدت الشمس وهي تلقي بدفئها فوق رأسي كأنها تصهر قالب الاعتياد المحدود، لطالما نهض العالم كله ـ ذلك الذي أدعوه الآن خريفًا ـ من فوق وجهه الأسود الآخر، من بين النجيل الباهت والرمال البيضاء الحريرية الجافة وتحت السماء اللبنية بل الضاربة إلى البياض، ليتجلى بنفسه أمام حواسي، وسط هذا الضوء الواهي الموحد الذي ازداد نحولًا مع طبقة الأوراق الصفراء، وأظهر نفسه بعفوية جمة لا تُدحض، كجزء مني أو ككلٍ ما اتسعت له، مع أن شيئًا لم يربط بيننا سوى انتمائنا المشترك البعيد عن أي عقبات تشكلها العاطفة أو الفزع أو التعقل أو الجنون. بعدئذٍ، اعتادت الشمس أن تبدأ مَيَلانها، ليبقيني الاعتياد مجددًا في احتمالاته المُنقذة وأنا أتمشى بين الهنود بحثًا عن أي عمل غير مُجدٍ قد يُساعدني على الوصول إلى نهاية اليوم، كي أغدو مجدَّدًا المنبوذ ذا الاسم والذاكرة: شبكة النبضات التي تتنازع في وسط الحدث.

جلب الشتاء مزيدًا من الواقعية. تعاقب علينا الصقيع والمطر الخفيف فذكَّرانا بالعراء الإنساني، وحرَّضانا على بناء وسائط تحمينا من العالم. شغلتنا الأعمال المحددة المرتبطة بالأكواخ والجلود والنار البدائية التي تكدسنا حولها، ومراوغاتنا الرامية إلى تحقيق الدفء الحيواني والنجاة، وشتتت انتباهنا عما يعجز اللسان عن وصفه. لطالما تخطى الهنود العوز بعزة: وزعوا القليل الذي انتزعوه من الشتاء بعدل، وشكل أقوى من فيهم جدارًا حول أضعفهم ومده بالغذاء والحياة. فعلوا كل الأمور بتبصر وحذر، لهذا فهمت بعدئذٍ بوقت طويل، أنه لو تمتع بعض الرجال الأشداء بمزايا أثناء أشهر العوز، فمرد الأمر ليس خوف الآخرين من قوتهم المتوحشة، وإنما لأن هؤلاء الرجال الأقوياء ضروريون لنجاة القبيلة كلها؛ التي لكل فرد فيها دور محدد منوط به، حتى أكثرهم تواضعًا؛ بداية من حديثي الولادة وانتهاء بالعجوز المحتضر. رأيت أكثر من مرة أحد هؤلاء الرجال الأشداء، يتخلى عن مأواه أو طعامه لعجوز أو مريض أو طفل، في تعارض مدهش مع رعب الأيام الأولى.

هكذا تصرف الهنود في الشتاء الرمادي القارس، من دون أن يفقدوا تجهُّمهم أو تحفُّظهم. جرت العادة أن يصل إلى كوخي المنفصل نوعًا ما عن بقية النجع رجل صامت ومعه بعض الطعام وقليل من الحطب الجاف من أجل النار. ينبغي لي أيضًا أن أقول إن الشتاء الأول كان الأطول

والأقسى من بين كل فصول الشتاء التي قضيتها بين الهنود، إذ طمس مطر جليدي خفيف الأفق طيلة أسابيع، وحين توقف أخيرًا، لم يتراجع البرد، وإنما تزايد، وبدأ الجليد يسقط ليلة تلو الأخرى من السماء الصافية والقريبة جدًّا إلى درجة أنها كادت أن تدهسنا، فأصبحت الحقول تصحو يوميًّا وهي مكسوة بالبياض، كأن النجوم، التي سحقها البرد قد تفتتت تدريجيًّا ونثرت مسحوقها فوق الأرض. صار كل الماء، باستثناء النهر العظيم، صقيعًا رقيقًا متلألئًا سهل الانكسار. لونه أزرق فجرًا، وأخضر مصفر نهارًا ووردي عند الغروب. غدت الرمال أنقى كأنها مصنوعة أصلًا من غبار نجمي؛ وباتت الأرض التي لا تتمازج في مساراتها الصلبة والجافة مع الرمال مزرقة ولامعة. هيمن نوع ما من السكون على الوضع طيلة أسابيع، كأن الهواء قد تجمد أو الزمن نفسه. إنه توقف جليدي للضوء أو بالأصح شفافية تغير فيها لونه بين الأزرق والأخضر والأصفر والبنفسجي والوردي أو الضارب للحمرة، الذي ظهر كلما انعكس فوق الصقيع. بدت الأشجار المتحجرة والأفرع العارية السوداء التي تقاطعت أمام السماء الضاربة إلى البياض كأنها مشهد من كابوس. ماتت البهائم والطيور من البرد، وبقيت هناك، برماديتها وتيبسها وهي سليمة وملتبسة من دون أن تتحلل وسط البرودة والموت. حدث الأمر ذاته لكثير من الرجال، وعلى وجه الخصوص العجائز الذين امتلأوا في هذه الليالي التي لا نهاية لها بالبرد والنعاس من دون رغبة في النهوض، إما بدافع الكسل وإما بدافع الراحة، فمضوا في رحلتهم نحو الموت. سقط هؤلاء الرجال موتى وسط الشتاء القارس بخفة وصمت، من دون عنف، كحال أوراق الأشجار وهي تتهادى نحو بيتها الحقيقي على الأرض. ترقب الناجون أولى النسمات الهادئة، من الشمال الملتبس. لما بدأت الأوراق الأولى الغضة الصغيرة الحمراء تتبرعم، بدا الأمر لا كأنها تشق براعمها، وإنما كأنها تشق الهواء الجليدي نفسه.

بدأ الهنود يخرجون تدريجيًّا من أكواخهم: لا إلى حيزها الخارجي فحسب، وإنما إلى الربيع نفسه. انساب الهواء الساكن مرة أخرى، كحال الصقيع الذي ذاب وصار ماء، وانبثقت من الأشجار الساكنة سُحب متدرجة من الأوراق الخضراء وسط الهواء الأزرق. استؤنفت جيئة وذهاب الهنود السريعة في الحقول المزهرة. حلقت أسراب طيور متعددة الألوان بقوة من الجزر، فاخترقت السماء الزرقاء ورصعت أشجار الحقل الواقع وراء النجع. عادت البومات وتماسيح «الكايمان» لتظهر مجددًا وهي لا تزال ناعسة. امتدت النهارات الدافئة إلى أمسيات حمراء ومحمومة نوعًا ما، وكلما تقدم الربيع، تزايد تأخر الوقت الذي ظل فيه الشاطئ الأصفر ممتلئًا بالناس، بطريقة جعلت أمسيات فصل الأمل هذا هادئة وطيبة، بين روائح الأطعمة والتمشيات البطيئة على ضفة الماء، والبريق الأصفر للنجوم الأولى في السماء الصافية، والبهاء المنبعث من كسوة الأشجار. جرت العادة أن تُشعَل بؤر النار في الخارج أمام أكواخ القش، بين الأشجار، مع انتصاف الصباح وانحسار البرد، فيبدأ الدخان ارتفاعه المنتصر من بين البراعم مرة أخرى وسط الحيز بأكمله،

الذي يظل محتفظًا ببقايا فصول سابقة بين أوراق شجر متعفنة مدفونة أماتها الزمن والمطر، وخشب وجثث حيوانات ولحم وعظام بشرية وفضلات، فيجلب عبر الأحاسيس التي يوقظها ذكرى المثابرة القديمة إلى كل من فقدوا أثر أنفسهم وسط حرمان الشتاء. صارت رؤيتنا، ونحن نخرج إلى العالم في الصباحات التي ازداد دفؤها وطابعها المشمس بعد شهور من التراجع والنعاس، أمرًا ممتعًا. بدا الأمر كأن النهار المضيء يمنح الغبطة، بل السعادة، إلى هذه الكائنات المحترزة والمتكلفة. بدا الأمر كأن شيئًا أكثر حيوية وقربًا من الواجب والكفاءة والعيش نفسه يمنحهم مبررًا وهم يذهبون إلى العمل، فباتوا، كلما تقاطعت طرقهم في أي لحظة في الشاطئ أو بين الأشجار، يستغرقون وقتًا أطول من المعتاد في الحديث، كأنهم لم يعودوا يعتبرون الكياسة جريمة أو تهاونًا، وإنما صاروا يشعرون بأن هذه المتعة المتقشفة التي يتبادلونها تُعد برهانًا على تفوقهم على الزمن والأشياء.

مع ذلك، بدأت هذه العذوبة تتشقق بمرور الأيام، إذ دخلنا في الصيف وكأنه بيت من نار، وذُرنا بخبل وتيه في ضوئه الأبيض. لم يعد الظل اللصيق للأشجار يحمينا. خفف الفجر وحده الحر، لأن الضوء الأول للصبح بث أوارًا لم يتبدد إلا بعد حلول الليل بمدة. تقلبت القبيلة في نوم غير هانئ. لطالما نام الهنود في الشهور السالفة مبكرًا واستيقظوا فجرًا بانتعاش وعزيمة، ولم يظهر أي منهم ليلًا في النجع، فسادَ الأجواء صمت مسالم لم يقطعه شيء سوى نعيق الطيور الليلية، لكن مع فترات الحر الكبرى انهار هذا الانضباط العفوي. أرجعت الأمر في البداية إلى هذه الشمس المستعرة التي ارتقت باستمرارية وخبل في السماء اللانهائية، لكن تدريجيًّا بدأت أفهم أنه مثلما ترتفع الحمى ليلًا من داخل أحشاء شخص يحتضر، فإن العام وهو يمر يسحب من إحدى الظلمات المجهولة كمًّا هائلًا من الأشياء شبه المنسية وشبه المدفونة التي بدا لنا بقاؤها، بل وجودها نفسه، غير محتمل، لكنها حين ظهرت مجددًا بينت لنا، بحضورها الحاسم، أنها الحقيقة الوحيدة في حياة كل منا. بالطريقة ذاتها، أظهر النهر العظيم، بعد عدة أشهر من الهدوء، قوته الحقيقية في أيام الفيضانات عبر عنفه المتدرج ونفاياته وجثث البهائم المجهولة.

انجرفت علاقات الهنود المهذبة والفاترة نحو التهامس سرًّا واللامبالاة والشجار. بات كثير منهم قليلي الصبر وسريعي الغضب. بوجه عام، بدوا جميعًا منعزلين، وساروا كأنهم تائهون أو مسرنمون. لم يبدُ تناول نبيذ الصباح سهلًا بالنسبة إلى هؤلاء الرجال، كأنه قد تخمر في الغم والاشتياق. من المؤكد أنهم افتقدوا شيئًا ما، لكنني لم أتمكن من معرفة ماهيته وأنا أراهم من الخارج. تلصصت أعينهم على النهار الأبيض والسماء المفتوحة والساحل المضيء، آملين أن يتلقوا نداء أو رؤية من الهواء المتلألئ. انجرفوا في هذا الانتظار، وهم خائرو القوى، من دون نقطة ارتكاز. ازداد وهن الجوهر المشترك الذي بدا أنه يُبقي على تماسك القبيلة ويمنحها تناسقها ككيان واحد، فباتت مهددة بالتيه والتشتت. شفَّت معاملاتهم اليومية عن الغياب والتجهم. بدوا كأنهم

يستشعرون نقصان شيء من دون أن يسموه، كأنهم يبحثون عنه من دون أن يعرفوا ماهيته أو ما الذي ضاع منهم أصلًا.

لما تفهموا الأمر صارت كل إيماءاتهم رسائل وعلامات، فاتفقوا بعد أن تراجع ترددهم تدريجيًّا على التحرك. ظللت أقرأ في وجوههم وتصرفاتهم الإصرار الذي يتنامى داخلهم. ذات يوم وأنا أمر قرب أحد أكواخ القش رأيت عجوزًا تتأمل جمجمة جافة وملمعة بالفعل. عبَّر وجه العجوز المتغضن من دون مداراة عن الشوق والانبهار. في الأيام التالية، رأيت حلقات نقاشية كثيرة تتداول فيما بينها وبعض الهنود وهم يمضون وحدهم جيئة وذهابًا من مجموعة إلى أخرى لنقل الرسائل والانطباعات. جهز آخرون بتمرس مفعم بالحماس أسهمًا مسممة. بدأت متعلقات القبطان وزملائي ـ بعض الملابس وخوذة وسيف ومعادن وعملات ـ تظهر مجددًا في أماكن مختلفة، من دون أن أعرف من أين جاءت. ود الجميع أن يُلقوا نظرة عليها، وأن يلمسوها ويتحسسوها. لقد اكتسبت في أقل من عام الطابع الرث والنهائي للرفات. وقع أكثر من شجار، بل سالت الدماء، من أجل مزية ملامستها العابرة. ظهرت مختلطة بأغراض أجهلها، لكن منبعها يسهل تخمينه. قلائد، وأحجار، وسكاكين، وقطع من الخشب منحوتة جدًّا ومصفرة، إلى درجة أنه لولا أحجامها وأشكالها المختلفة لما ميزها المرء بسهولة بين العظام البشرية والحيوانية التي تاهت بينها. تدحرجت بعض الجماجم على الأرض أثناء المناوشات الشائعة العنيفة. مع ذلك، لم يبقِها أحد وقتًا طويلًا بين يديه، كأن هذه الأغراض سم، بخلاف عامل الجذب المفرط الذي تفرضه.

ذات صباح، أيقظتني ضوضاء ما في وقت باكر جدًّا. كان النهار قد بدأ يبزغ قليلًا. تلألأ حشد من الأجساد الداكنة وسط أجواء الشاطئ الزرقاء. اختلجوا من فرط الاضطراب والتسرع والحماس، بل السعادة. ركب نحو مائة رجل الزوارق المصفوفة على الشاطئ، واحتشدت القبيلة حولهم لتوديعهم. أومأوا جميعًا وهم يتحدثون بصوت خفيض وسريع ومكتوم نوعًا ما، بسبب إثارتهم المكبوحة. انفصلت كل الزوارق عن الضفة في الوقت نفسه تقريبًا ـ وربما أيضًا في الوقت نفسه الذي ركبها فيه الرجال ـ وبدأت تبتعد كلها بالسرعة ذاتها في اتجاه منبع النهر إلى أن تاهت بين الجزر. ظلت القبيلة برهة عند الضفة قبل أن تتفرق، كأنها بقيت لتتأمل بذهول وأمل الشمس الكبيرة الضاربة إلى الحمرة التي ارتفعت وراء الجزر وهي تُطهر هواء الصباح من الظلمة، وتبذر النهر الضارب إلى البنفسجي بانعكاسات هشة.

بينما تمضي الأيام، توجهت النظرات، بصورة شبه مستمرة، نحو النهر المتلألئ الخاوي. رقدت في منتصفه الجزر المنخفضة الساكنة التي تشكلت هناك وامتدت في اتجاه منبع النهر. لم تنبثق أي طراوة من الماء، ولم تقترب أي علامة تدريجية في الأفق الأبيض الذي طمسه الحر. نخر الشك والجزع قلوب الهنود بحدة متنامية. بين الحين والآخر، اقترب أحدهم من الشاطئ، وتظاهر بغسل يديه أو بالتبول في الماء، ونظر بمواربة إلى النهر، آملًا أن يُبصر عودة الزوارق. خرج آخرون

لاستقصاء النهر مرات كثيرة نهارًا، ووقفوا عند أبواب الأكواخ التي احتموا بظلها من الحر. دفعهم نفاد صبرهم إلى هجر مشاغلهم تدريجيًّا والاقتراب من الضفة. تعلق الأمر في البداية بثلاثة أو أربعة أشخاص، ثم حفنة في اليوم الثاني، أما في الثالث فبات حشدًا تقريبًا، وحين جاء اليوم الرابع وقفت القبيلة كلها في الشاطئ وهي تحدق بنظرها إلى مكان ما في النهر بين الجزر الصغيرة الممتدة التي اختفت الزوارق عندها، حيث انتظروا من دون شك رؤيتها وهي تظهر.

وصلوا مرة أخرى وهم يتلألأون وسط الزُّرقة. هذه المرة مع حلول الليل، كما حدث حين جلبوني معهم، وليس فجرًا كما رحلوا. اشتعلت سلفًا بؤر النيران نفسها التي سبق أن رأيتها من الماء وهي تُضيء الشاطئ، لكن في هذه المرة حدث الأمر أمام عينَي. تكرر كل شيء، لكن جاءت الأحداث لحظتئذٍ لتتكاتف مع أحداث أخرى مُشابهة وانبسطت داخل ذاكرتي. بدا مذاق ما هو آتٍ معروفًا بالنسبة إليَّ: الأمر كأن الزمن تركني وهو يبدأ من جديد في نقطة مغايرة داخل هذا الفراغ، ما أتاح لي أن أتأمل الأحداث نفسها وهي تتكرر مرة تلو الأخرى من منظور مختلف. كان الانطباع الذي تركته هذه الأحداث ضخمًا جدًّا إلى درجة أنني انتظرت من دون أن أدرك فعلًا ـ لكن بصورة حادة وقاطعة ـ وأنا أرى الزوارق وهي تتقدم في النهر الذي انعكست بؤر النيران فوقه وسط الهواء الأزرق، أن أرى نفسي تائهًا وشبه مسحور في هذا المساء الأزرق الذي امتلأ بالسلام الخارجي وتشوش الأفكار الإنساني وأنا أستكشف تدريجيًّا الظلام اللانهائي الذي جعلته هذه الجزر يتراءى من حولي حين رأيتها لأول مرة.

لكن من جاء على متن هذه الزوارق ليس «أنا». من جاء فعلًا رجل حي وعمره في مثل عمري تقريبًا. جلس متيبسًا بلا حراك بين المُجدفين. «ديف-جي، ديف-جي»، هذا ما قاله له بعضهم، بمجرد أن لامس الأرض بعد أن منعتهم الفوضى والحشد من الاقتراب من الجثث التي أنزلها أعضاء البعثة ووضعوها فوق رمال الشاطئ وهم يُكومونها من دون اعتبارات كثيرة. تجاهلهم السجين ـ وهي الكلمة التي سيظهر لاحقًا أنها غير لائقة ـ ولو أنه نظر أحيانًا إلى بعضهم، فقد فعلها بأنفَة محسوبة واحتقار غير مبالٍ. أصر الآخرون على قول: «ديف-جي، ديف-جي»، وهم يشيرون إلى أنفسهم لجذب انتباه السجين. وجهوا له الابتسامات المعسولة نفسها التي عرفتها جيدًا، والمزحات الغثة نفسها، ومنها تظاهرهم بأنهم غاضبون وأنهم مستعدون للاعتداء عليه وصولًا بعدئذٍ بعدة دقائق إلى الانفجار ضحكًا والتباهي المسرحي ذاته لتهيئة أنفسهم كأشخاص يسهل التعرف عليهم من الخارج. تجاهل السجين تصرفات الإغواء هذه عن عمد، ما ساهم في تحفيزهم وحثهم على الإكثار من التنويع، إلى درجة أن المرء لم يعرف في لحظة معينة ما إذا كان تغير سلوكهم حقيقيًّا أم مصطنعًا، أو ما إذا كان مرد تحولهم من الضحك إلى الغضب، ومن الشاعرية إلى العنف، ومن الترفع إلى البذاءة هو رغبتهم في تكوين سلوك أو تغيير متعمد يُمكن إدراكه فورًا؛ أم أنهم صاروا كمادة لينة عديمة الشكل صاغها ذهاب وإياب الأحداث على هيئة أشكال

اعتباطية زائلة، في ظل استثارتهم من لامبالاة السجين والقلق الذي بدا أن وجوده يُثيره فيهم. مع ذلك، يوجد أمر أكيد: عرف السجين من اللحظة الأولى ما ينتظره هؤلاء الهنود منه، وهي المسألة التي ظللت أنا على النقيض أخمنها تدريجيًّا على مدى وقت طويل. إنني اليوم، بعد مرور ستين عامًا، وأنا في هذه الليلة الصيفية التي أكتب فيها على ضوء الشموع، لست متأكدًا من أنني فهمت المعنى الدقيق لهذا الانتظار، على الرغم من أن هذا الحدث ظل هدفًا لتفكيري طيلة حياتي.

يُمكن تخمين ما حدث في الأيام التالية بسهولة: بداية من تراكم الرغبة في الصباح المشمس الهادئ، والأجساد المقطعة وهي تُشوى فوق الجمرات وصولًا إلى صف الموتى والمشوهين بعد ثلاثة أو أربعة أيام، والبداية الجديدة المترددة للقبيلة، مرورًا بالمتعة المتناقضة للوليمة، والإصرار الانتحاري على الثمل، والعاصفة الموحلة للمعاشرات الخارقة العنيدة متعددة الأطراف. تبدو عودة الأحداث بالترتيب ذاته أكثر إثارة للدهشة، حين يضع المرء في عين الاعتبار أن هذه العودة ليست متعمدة، وأنه لا يوجد أي تخطيط سابق يُحددها، وأن أيام هؤلاء الهنود الموزونة والكئيبة ومعدومة الفرحة قد أخذتهم تدريجيًّا ـ ومن دون أن يدركوا أصلًا ـ نحو هذه العقدة المحتدمة التي شكَّلها عيدهم الوحيد الذي نجا كثيرون منه بمشقة وفي حالة مزرية، وبقي بعضهم عالقين فيه أبد الدهر. بدا الأمر كأنهم يرقصون على إيقاع لم يكف عن التحكم فيهم، وهو إيقاع صامت استشعر هؤلاء الرجال وجوده. كان إيقاعًا منيعًا ومريبًا وغائبًا وحاضرًا. حقيقي، لكنه ملتبس، كوجود الرب.

ظل السجين يتمشى على الأرض الرملية العارية التي تصاعد دخان الشوايات منها، منسيًّا بعض الشيء، كأنه شبحي الذاتي. حينما توقف الهنود عن إبداء الاهتمام به أثناء انغماسهم في تأمل الشوايات أو ضياعهم في أحلامهم الشهوانية، لم يبدُ غير مكترث وهادئًا فقط، وإنما أيضًا محبط بعض الشيء، خاصة إذا ما وُضعت في الحسبان الوضعيات التي اتخذها، على العكس مني أنا الذي تجولت في يومي الأول بذهول وخوف بين القبيلة. بدا الأمر كأنه ينتظر من الهنود تملقًا أو خضوعًا، ولُوحظ استياؤه قليلًا، لما تيقن من أنهم لا يحتفون به بصورة كافية. ربما قد يُقال إن أسره منحه نوعًا من السمو. صحيح أنهم قد اقتربوا منه في لحظة نزوله وأحاطوا به وحاولوا بكل السبل لفت انتباهه، وأنني شاهدت الحصار ذاته الذي عانيته في أولى فترات حياتي في النجع يبدأ من جديد، لكن بدا، على عكس ما حدث معي، أنه يعرف أسبابهم تمام المعرفة، إذ أظهر سلوكه المتغطرس والأبي أن هذا الحصار لا يضايقه، وإنما يمنحه سلطة مجهولة لأسباب غامضة. تجلى، على النقيض، أن وجودي يزعجه. امتلأت النظرات المزدرية والمغرورة والاعتباطية التي وجهها إليَّ بالكره، على عكس تلك التي وجهها إلى القبيلة. ضبطته أكثر من مرة وهو يراقبني في الخفاء، كمن يدرس عدوًّا. بوجه عام، تفادى نظرتي بنفس طريقة تفاديه النظر إليَّ مباشرة، كي يُرسي ـ بقرار سحري ـ انعدام وجودي داخل هذا العالم الذي بدا أن حضوري فيه يزعجه. لما رأيته يصل، ناجيًا، في وضع مطابق لي، ظننت أن الأفق المجهول أرسل لي حليفًا، لكن مجرد نظرة سريعة

كفته كي يتعرف إليَّ وسط القبيلة، ومنذ تلك اللحظة ارتبطت النظرات بالتحاشي والعداء. لم يعرف أو يدرك فقط دوره الشخصي الذي أداه بحماسة وإسهاب، وإنما أيضًا دوري أنا الآخر، فأعطاني انطباعًا كريهًا بأنني مشمول في كيانه ومرفوض منه. كلما عاد الهنود لمحاصرته، في استراحات هياجهم، تصرف السجين معهم كرجل ذي شأن يتفضل من دون عناية كبيرة بإبداء اهتمامه الرزين بتوسلات العوام، قبل أن يعود بالنظرة الاعتباطية ذاتها إلى استعلائه، من دون أن يُلمح إلى ما إذا كان سيضع طلباتهم في الحسبان في قراراته المستقبلية أم لا، أو حتى ما إذا كان ببساطة وصراحة قد سمعها. أثار هذا السلوك سخط الهنود الذين انتقلوا بنفاد صبر من الطلب المُلِح إلى التهديد. لكن تجلى أن هذا الغضب لم يُفزع السجين. بدا كأنه يحكم القبيلة بأكملها عن طريق تنويع وضعياته المبالغ فيها. عامله الشواءون، الذين اختلفوا عن المرة الأولى، بالكياسة الهادئة نفسها التي عاملوني بها، لكنه كان صعب المراس معهم أيضًا. ما زلت أتساءل حتى يومنا هذا: هل هذا السلوك الشائن سمة شخصية أم أسلوب للتمثيل؟ اليوم، وفي هذه الليلة، بعد وقت طويل جدًّا، أظن أنني أعرف ما انتظره هؤلاء الهنود مني، لأنني اكتشفته تدريجيًّا على مر السنين. علم السجين هذا الأمر منذ البداية لأنه ينتمي إلى قبيلة ليست بعيدة جدًّا وتحدثت اللغة نفسها التي تحدثها من أسروه، أو لأن قبيلته تعرضت بسبب هذه الجيرة إلى حملات مشابهة، فسمع آخرون يحكون عنها، وبالتالي انبغى له أن يُدرك أسباب أسره. شكلت هذه الأسباب بالنسبة إليه مزية لم يستغلها باللباقة المطلوبة ـ وهو أمر يجب قوله ـ إذ بدا لي أن الابتزاز ليس بعيدًا عن سلوكياته، فقد قبِل بفجور كل أنواع الهدايا، ومع ذلك لم يمنح لمن قدموها إليه يقينًا بتحقق رغباتهم. قضى شهرين داخل هذه الوضعية المريحة، إلى أن اختفى ذات صباح خريفي تساقط فيه المطر الخفيف، وهو على متن زورق محمل بالأطعمة والحلى. جدف صامتًا وبجسد منتصب، في اتجاه منبع النهر، من دون أن يفقد ولو للحظة الطابع المستاء والأبي لشخص يشعر بأنه لم تُكرم ضيافته بين قوم أقل منه قدرًا ولا يستحقون صُحبته الرفيعة. لم يبالِ بصخب القبيلة التي رافقته قبلئذٍ حتى الزورق كأمير صاحب سيادة، من دون أن يتوقفوا ـ عبر تصرفاتهم وتعبيراتهم ـ عن إظهار إلى أي مدى قد تصل رغبتهم في أن يستقروا إلى الأبد داخل تفكيره وذاكرته. وسط الخريف المتقدم، وبين رمادية الأرض والهواء والماء والسماء المتشابهة، اختفى في الأفق وصار تدريجيًّا جزءًا منه، كسراب آخر ضمن الأسراب التي يقدمها لنا هذا العالم.

آنذاك، كان الهنود قد خرجوا فعلًا ـ لا من دون بطء أو مشقة ـ من الثقب الأسود الذي يغرقون فيه بصورة دورية. على مدى السنوات العشر التي عشتها بينهم، عاد إليهم الجنون ذاته عشر مرات كاملة في موعده بالضبط. أكثر ما يُميز الأمر أنهم لم يُظهروا في شهور الانقطاع عن أكل لحوم البشر أي علامات خارجية تشف عن القوة المفرطة للرغبة التي تنخرهم من الداخل. حين بدأت توجيه نفسي داخل أحراش لغتهم والاستفادة منها بفظاظة ـ وهي المسألة التي استغرقت وقتها

ـ استجوبتهم أكثر من مرة بفضول وبصورة غير مباشرة. بدا الأمر كأنهم يفقدون الذاكرة أو كأنهم لا يعرفون ما الذي أشير إليه. ليس ما في إجاباتهم تملصًا أو رياء، وإنما نسيان أو جهل. لم يكذب هؤلاء الهنود قَطُّ. تحدثوا قليلًا ودائمًا من أجل أسباب محددة، إذ لم يعرفوا فن المحادثة. ليست نقاشاتهم مثل المحادثات المتعارف عليها، وإنما تبادل لأفكار محددة جدًّا ينطقونها باقتضاب أمام محاوريهم الذين يستقبلونها من دون تعليقات، وقد تمر أحيانًا ساعات بين سؤال وإجابته، أما الهياج اللفظي الذي سيطر أحيانًا على هذه الاجتماعات فمرده ليس سعة خُطبهم القصيرة، وإنما التكرار الذي قد تتغير فيه سرعة قول جملتين قصيرتين زاعقتين أو ثلاث جمل قصيرة زاعقة، بل مجرد كلمة واحدة في بعض الأحيان. بدت لهم التحيات التقليدية التي وجهوها إلى بعضهم البعض وإفراطهم في الصياغات المُهذبة شرًّا لا بد منه. أرى أن هذا الفقر الشفهي دليل على أنهم لم يكذبوا، لأن الكذب يُخلق داخل اللغة ويحتاج إلى غزارة الكلمات كي ينطلق. بدا نسيانهم وجهلهم حقيقيين: الأمر كأن ذاكرتهم تتشرب جزءًا من الظُّلمة التي يجتازونها، فيرقِّع هذا الجزء بالسواد الذكريات التي ستُصيبهم بالجنون، لو ظلت حاضرة. بالغوا من دون أن يدركوا في حيائهم وهم مرعوبون ومرتبكون لأنهم بلا شك استشعروا، كالحيوانات، ما هم قادرون على فعله. لطالما صار نسيانهم كاملًا في شهور العام التي أجبرهم فيها العوز على مواجهة العالم الخارجي، فتقشفوا وترابطوا كإخوة، ليس بسبب المشاعر النبيلة بقدر ما ارتبط الأمر باستشعارهم أن صلابة ووحدة القبيلة ضروريتان لحفلاتهم الشهوانية. كلما انتهى الشتاء، بدأ إنهاكهم، إذ وضعهم النهار الدائم بضوئه الباهر، وهم منبوذون وعراة، وجهًا لوجه أمام البرهان الواضح، فانتقلوا من جمود الحس إلى الحماسة. لم ينتقلوا إلى فصل آخر في العام، وإنما إلى عالم آخر ينسون فيه أيضًا كل شيء: الخجل والتعقل وصلة القرابة. اعتادوا أن ينتقلوا من عالم إلى عالم آخر، مرورًا بمنطقة سوداء تبدو كمياه للنسيان، واجتازوا بين الحين والآخر نقطة تمحو كل الحدود وتتركهم عند حافة الفناء، فغدا طبيعيًّا ألا يعود بعضهم أو أن يخرج بعضهم منها مشتاطين كمن اجتاز حريقًا. أظن أن هذه الجيئة والذهاب مثلت منبعًا لتعاستهم. يكفي المرء أن يراهم وفي حوزتهم الغرض الذي ودوه بشدة، ليدرك أنه يحرق أيديهم. نبع تحفظهم خلال أشهر الامتناع من شعورهم بأن أفعالهم اليومية محض مظاهر، وأنهم على الأرجح جاءوا من أحد العوالم المنسية. هكذا مضى الهنود منذ ولادتهم حتى مماتهم، وهم تائهون في هذه الأرض الشاسعة. لقد اتقدت في الوقت ذاته، داخل كل فرد منهم وفي القبيلة ككل، النار التي استنزفتهم بحضورها الكلي، وهي نار فريدة تنتشر باستمرارية في كل الأنحاء وتُظهر نفسها بين الحين والآخر، أكثر من كونها نارًا تشتعل فجأة داخل كل واحد منهم. جاءت وذهبت بهم هذه الهالة الوهاجة، فبات تحكمهم في قراراتهم شبيهًا بزوبعة من التراب وسط أحد أعاصير شهر نوفمبر. كبرت معهم ويمكنني أن أقول إنه مع مر السنين، فقد حل التعاطف محل الرعب والنفور الذي أوحوا إليَّ به في البداية. إن هذا العراء الذي أساء معاملتهم ـ وقوامه

الجوع والمطر والبرد والجفاف والفيضانات والأمراض والموت ـ موجود داخل عراء أكبر حكمهم بصرامة وقسوة، وهم لم يتحلوا بأي دفاع ضده لأنهم عجزوا أمام خفائه عن تشييد أسلحة أو ملاذات قد تُخففه، كما فعلوا مع ذلك العراء الآخر. عهدتهم قادرين على المقاومة وكرماء وشجعانًا ومتمرسين في التعامل مع ما يعرفونه. يكفي المرء أن ينظر إلى أغراضهم ومهاراتهم في البناء والاستخدام ليدرك فورًا أن هؤلاء الهنود لم يسمحوا للقشرة الخارجية القاسية لهذا العالم بأن تُرعبهم. لكنهم في الوقت ذاته، بدوا كغرقى في زورق يحاولون الحفاظ على انضباطهم فوقه، وسط إعصار يضربهم في عز الليل داخل بحر مجهول.

تتشكل العشر سنوات من أيام وساعات ودقائق كثيرة؛ ومن وفيات وولادات كثيرة أيضًا، ومع مرور الزمن الذي يعيد صوغنا ويغيرنا، فإن ما حسبته غريبًا في ليلتي الأولى حين لامست الشاطئ، صار مألوفًا. لو أن رجلًا يجد ماضيه الشخصي ملتبسًا ويشق عليه وضعه في نقطة معينة زمانيًّا ومكانيًّا، فإن واقع الماضي بالنسبة إليَّ ـ أنا الذي جئت من العدم ـ لمعضلةٌ أكبر. ما من حياة بشرية أطول من ثواني الإدراك الأخيرة التي تسبق الموت، وسواء تشكل الماضي من عشرة أو عشرين عامًا أو ثلاثين عامًا أو ستين عامًا أو حتى عشرة آلاف عام، فإن امتداد وواقع الماضي لا يتبدلان. لا يبقى من أضخم الحرائق شيء حقيقي أكثر من الرماد. لكن أيضًا يوجد في أي حياة وقت حاسم يُعيد صوغنا بصورة نهائية، على الرغم من أنه بلا شك ليس إلا محض وهم. يغدق هذا الوهم ـ وهو أكثف من بقية الأوهام ـ بعطائه علينا كي ننجح في استحضار معنى كلمة «حياة» ونحن ننطقها. كنت صلصالًا غضًّا حين لامست سواحل الهذيان هذه، ولما غادرتها صرت حجرًا صلبًا، على الرغم من أن بقائي فيها، إن نظرنا إلى عمري الحالي، قصير نسبيًّا؛ وأيضًا على الرغم من أنني ظاهريًّا عشت أمورًا كثيرة قد يصفها آخرون بالمهمة والمتنوعة.

استمرت حياتي بين الهنود مدة طويلة، ولهذا لم تتشابه مع الإقامة الفخمة للسجناء الذين اعتادوا أن يحتجزوهم بضعة أشهر في القبيلة قبل أن يرسلوهم في زوارق محملة بالهدايا نحو أفق النهر. تشاركت معهم في خططهم وأزماتهم، على الرغم من أنهم وفروا لي بعض المزايا وحمَوني من دون تباهٍ. لقد عرفوا فعلًا كيف يتركونني بعيدًا عن حفلاتهم الجامحة، ولكيلا أراهم، ذهبت في المرات الأخيرة بمفردي خارج المعسكر لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، وليس النفور مرد الأمر، وإنما بالأصح هو الغم ورغبتي في ألا أشاهد كثيرًا ممن أظهروا لي احترامهم وطيبتهم وأيقظوا المودة في داخلي، وهم يسقطون في مستنقعات السنين السابقة ذاتها. شق عليَّ تعلم اللغة التي تحدثوها لأنها بدائية. ربما سيفكر أي مراقب عرضي أن قوام هذه اللغة يتشكل وفقًا لأهواء الشخص الذي يتحدثها، لكنني أدركت لاحقًا أن فهمنا يفرض قوانينه على الأهواء نفسها ويمنحها وهم المعرفة؛ بل أيضًا أن حياة هؤلاء الهنود تتعارض مع حياة البشر الآخرين الذين عشت وسأعيش معهم. تذوقت هذه الحياة وأنا أشعر بأن فيها طعمًا للكوكب نفسه، أو لقطيع من البشر، أو لعالم ليست صفته أنه

لانهائي وإنما غير مكتمل، أو لحياة مُلتبسة وغامضة، أو لمادة مبهمة عديمة القوام، أو لسماء خرساء، أو كما قد يقول آخرون: كأن طعمها كالرماد، مع العلم بأن اللغة التي تحدثوها ليست بمنأى عن إحساسي هذا. لطالما استيقظت يومًا تلو الآخر، طيلة سنوات، من دون أن أعرف هل أنا بهيمة أم دودة أم معدن ساكن، فأقضي يومي كله بين الشك والارتباك، كأنني عالق في حلم مظلم ممتلئ بالأطياف المتوحشة ولا يُحررني منه إلا غيابي الليلي عن الوعي، لكنني الآن، بعد أن بتُّ عجوزًا، أدركت أن يقين المرء الأعمى من كونه إنسانًا ـ مجرد إنسان ـ يجعلنا نتآخى مع البهائم أكثر من الشك المستمر الذي يكاد ألا يُطاق حول وضعيتنا الشخصية.

تدريجيًّا، بدأت أرى هذا الأفق من الماء والرمال والنباتات والسماء مستقَرًّا نهائيًّا. لطالما بحثت عيناي خلال شهوري الأولى، أو ربما خلال أول عامين أو ثلاثة أعوام، عن شيء يأتي لينتشلني من الغرابة لا من العوز، لكن هذا الأمل انمحى مع مرور السنين. ظل ما عشته ينخر الذكريات الثابتة العَزلاء بسُمكه المخادع. من دون شك، رغباتنا لا ذكرياتنا هي أكثر ما نخسره، حين ننسى. لا وجود للفطرة فينا. يكفي أن تتراكم سنوات حياة واحدة علينا ـ حتى وإن كانت حياة محايدة ورمادية ـ كي تنهار أرسخ آمالنا وأشد رغباتنا. نحن نستقبل كتلًا مستمرة من الخبرات، كما يستقبل التابوت، وهو في مقبرته الرطبة، مجاريف التراب التي لا تُرد. بكلمات قصيرة، بدا الأمر بعد عامين أو ثلاثة على وصولي، كأنني لم أكن موجودًا من ذي قبل في مكان آخر. لم يوجد شيء سوى الواقع اللزج، الذي تنازع داخله إدراكنا الشجاع والهزيل في الوقت ذاته، ومعه المستقبل الذي ينبئ بالتكرار أكثر من التجديد. بهذه الطريقة، لم تصبح غرابتي مصحوبة بالاندهاش، وإنما اللامبالاة. جعل التفجر البطيء للأحداث جسدي ـ ذلك الشيء الكثيف الذي لا مصير أو ذاكرة له ـ ينقاد بين جيئة وذهاب وسط تتابع الفصول في هذا المكان الموحش، منتظرًا مجيء اليوم الذي قد يُخرجني فيه الموت بأهوائه المتقلبة، من هذه المنظومة المعهودة والمجهولة. لم تعد حياتي قادرة على أن تحلم بانفتاح بأي تنوع ممكن.

بوجه عام، يحدث ما لا يتوقعه المرء. ذات مساء، جاء الهنود، وهم متحمسون جدًّا، للبحث عني في كوخي. رأيتهم يتناقشون بصوت خافت خلال الأيام السابقة وهم يوجهون إليَّ نظرات ظنوها خفية. لقد تصرفوا بالطريقة ذاتها في مرات أخرى. على سبيل المثال، كلما استعدوا لاقتراح أن أقوم بعمل ما أو كلما وجهوا إليَّ دعوة. جرت نقاشات مشابهة في المرة الأولى التي أخذوني فيها للصيد معهم، أو حينما طلبوا مني أن أساعدهم في إخراج البقوليات من الأرض قبل هبوب عاصفة. لكن ما اختلف لحظتئذٍ هو أن حصارهم لشخصي، الذي تسبب تعايشنا في تراجعه، اكتسب فجأة حدة غير متوقعة.

لما خرجت، تيقنت من أن صخب الأيام الاستثنائية ينتظرني هناك. احتشدت القبيلة كلها حول بيتي. أخرجني ثلاثة أو أربعة هنود وهم يدفعونني تقريبًا؛ لا لإلحاق الأذى بي وإنما لأُسرع، أو

ربما من دون أي غاية، وصدرت منهم إيماءات فظة لأنهم سيطروا عليها بصعوبة من فرط ضخامة استثارتهم. تمكنوا بمشقة من اصطحابي إلى الشاطئ من بين الحشد الذي بذل كل من فيه قصارى جهده للاقتراب مني. لامسني الكل، وهزوني، بل تحسسوني. حاولوا إيقافي وللفت انتباهي لجأوا إلى تلك الوضعيات المبالغة التي قللت العيون المتوسلة والمهزومة من مصداقيتها. إن هذه النظرات، التي بدا أن آخر آمالهم الباقية يتراكم فيها، أقوى صورة بقيت لديَّ منهم، وهي أيضًا الدليل الأخير على استمرار ذلك الشيء الذي حاولوا هزيمته أو إخفاءه بتصرفاتهم غير الطبيعية. بطريقة ما، يُمكن قول إن هذه النظرات هي ما يُساعدني على إمساك ريشتي وسط هذا الليل الرائق. لطالما وَشَت أعين الهنود بوجود هذا الكيان الذي لا يُوصف. لم أرَ أحدًا يغرق في مستنقع من قبل، لكن أظن أن عينَي أي إنسان عالق في هوة لزجة لن تنظرا بصورة مختلفة عن عينَي شخص في وضع مثل هذا، وهو محروم أصلًا من فرصة الصراع من أجل حياته ومجبر على البقاء جامدًا لكيلا يُعِين ما يبتلعه. إن هذه النظرات، التي تعلَّم كثير من البشر مداراتها، هي الوجه الآخر الذي يدحض باستمرارية البنيان زائف العزة للعالم المرئي. إنها ما يثبت أن الرأفة مبررة، لكن لا جدوى منها؛ وإنها أيضًا ما يقوِّض زهو المظاهر برعبها المتكتم. إنها ساطعة، على الرغم من بريقها المنطفئ وانطماسها تحت ما يُحاصرها، أو ربما لهذا السبب تحديدًا. تصبح أيضًا وضاءة من شدة تعبيرها عن أصولها. يمكن لمن يرى هذه النظرات وسط إصرارها البائس، ولمن يدرك معناها، على الرغم من جهود إخفائه، أن يعُدَّ نفسه عليمًا بالثمن الذي يتطلبه هذا العالم.

كما حدث مع أسلافي، كانوا قد جهزوا لي زورقًا محملًا بالطعام ظل يتأرجح عند الضفة. ارتبك الهنود بين إيماءات متناقضة، في ظل انقسامهم بين رغبتهم في إفساح الطريق لي والحفاظ على حضورهم، ما تسبب في فوضى صاخبة وسط الحشد. اجتزت الأمتار الأخيرة وأنا في الهواء تقريبًا، مرفوعًا بأذرع قوية وقلقة، إلى أن وجدت نفسي جالسًا، كأنها معجزة، في الزورق. في الوقت نفسه تقريبًا، دفع بعض الهنود الزورق في اتجاه مصب النهر بعد أن دخلوا إلى الماء. تركتهم وبقيت بلا حراك من دون أن ألمس المجداف أصلًا. بينما أبتعد، رأيت الحشد المجتمع عند الشاطئ، فبدا أقرب أفراده إلى الزورق، بمياه النهر الواصلة عند خصورهم، كجزر صغيرة في قارة مُعذبة وسط المحيط. ركض كثير منهم، فوق الضفة، في اتجاه مصب النهر وهم يُشيرون في اتجاه الزورق. غطس أحدهم وسبح إلى جواره. ظل يتوقف بين كل حركتين أو ثلاث من ذراعيه، قبل أن يبزغ من الماء ويوجه إليَّ إيماءات جامحة وهو يضرب صدره، ثم عاد بعدئذٍ إلى الغطس ومواصلة السباحة. تشبثت بالمجداف في النهاية لأوجه الزورق بصورة أفضل. بينما أبتعد، اكتسب كل ما اختفى أمامي معناه أكثر من فقدانه، وصارت القبيلة كلها للمرة الأولى، وهي تهتز بفعل صخب غامض، دليلًا على قدرتي على النظر من الخارج، وللمفارقة انمحت من ذاكرتي، بدلًا من أن تترسخ فيها بوضوح، صورة كل من سبحوا إلى جواري أو ركضوا عند الضفة لمرافقة

الزورق كي يُظهروا أنفسهم وأتعرف عليهم وأحفظهم فيها بصورة أكثر أو أنعش من البقية، وهذا فقط لأنهم انفصلوا عن القبيلة. صحيح أنني الآن قادر على تذكرهم بصورة منفصلة، إلا أنهم ليسوا سوى «الرجل الذي عام إلى جوار الزورق» و«من ظلوا يركضون على الضفة»، من دون أن أعلم، علم اليقين، ما إذا كان هذا هو الدور الذي رغبوا في تمثيله. توجه السباح منهكًا بعد الجهد الذي بذله إلى الضفة والماء يسيل منه، فيما ركضت بقيتهم، برهة أخرى، حتى وقفوا بلا حراك. لم تعد عبارات: «ديف-جي، ديف-جي» التي ظلوا يوجهونها إليَّ حتى آخر لحظة مسموعة. توقفوا جميعًا تقريبًا عن التحرك. لم يومئ أحد تقريبًا بأي إشارات أو يرتكب أفعالًا ساخرة تُميزه عن الحشد المجهول، بصورة مكنتني من رؤيتهم، في ظل ثباتهم وكثرتهم، وهم يقفون في مواجهة النهر الجامح بمياهه التي اهتزت قليلًا، بينما تقدم الزورق أمام الأشجار المنفتحة في صورة شبه دائرية خلف الشاطئ، ومن ورائها الإنشاءات المجزأة التي تراءت من ورائها الخضرة النباتية، تحت الشمس الفريدة بعد أن مالت قبلئذٍ وسط السماء الضاربة إلى الخضرة فوق الأرض المصفرة. لقد شعرت وأنا أبتعد مع تيار النهار من دون وجهة معروفة بشيء سأتجرأ أخيرًا بعد مرور ستين عامًا على صياغته في هذه الليلة، من دون أي مستقبل أمامي، مع أنني لست متأكدًا تمامًا منه: لم يجدف أحد داخل هذا الزورق وهو يمضي مع التيار. لم يوجد أحد قَطُّ طيلة عشر سنوات إلا ذلك الشخص الذي تجول مرتبكًا وعلى غير هدى داخل هذا الحيز الواضح. هكذا، حين انمحت الرؤية فجأة عند أحد منعطفات النهر، خرجت من هذا الحلم إلى الأبد.

جرفني التيار بثبات وسط الغروب. وجهتُ الزورق بمجدافي من دون جهد كبير. لم يُسمع شيء طيلة ساعات إلا جَلبته التي أدت إلى تصاعد صخب الطيور أحيانًا كلما اقتربتُ من الضفة بصورة زائدة عن الحد. نزلت تماسيح «الياكار»، ناعسة، من طمي السواحل المتآكلة إلى الماء. في بعض المرات، قفزت سمكة لتلتقط بفمها شيئًا صغيرًا يؤكل، من دون أن تُرى كاملة عند السطح الذي صعدت إليه، فلم يدل شيء على وجودها إلا ضوضاؤها التي اختلفت حدتها وفقًا لحجمها أو المياه التي رفعتها حولها كتاج من الريش. رأيت أسماكًا صفراء كأنها مدرعة بالذهب، وأخرى مرقطة كالنمور، وأخرى خضراء نحاسية، وغيرها مما له رؤوس كالقطط أو الأفاعي، وبعضًا مما تخطى طوله الإنسانَ مرتين، وما هو سمين منها كالأبقار: إنه التنوع الحي والغامض الذي جعل من هذا النهر مسكنه. انجرفت تائهًا ومنبوذًا في هذا العالم الخارجي البحت، وسط هذه الحمى الحيوانية التي قوامها حشرات وطيور وأسماك وبهائم ووحوش، وفي داخلي ذلك الضوء الصغير كشعلة شمعة قادرة على مقاومة كل الرياح التي انبغى لكياني أن يتسع لها. حل الليل. الليل بلا قمر، ومظلم للغاية، وملآن بالنجوم. بدا لي لبرهة طويلة أنني لا أتقدم عبر الماء، وإنما عبر السماء السوداء، من فرط انخفاض الأفق، الذي بدا النهر نسخة منه، في هذه الأرض المنبسطة. كلما لمس المجداف الماء، بدت نجوم كثيرة منعكسة فوق سطحه كأنها تنفجر وتنسحق وتختفي في المُكون

الذي يمنحها أصلها ويُبقيها في مكانها، لتتحول من نقاط ثابتة مضيئة إلى بقع مشوهة أو خطوط متقلبة، بطريقة بدا معها الأمر كأن المُكون الذي تنحدر منه يتعرض للإبادة أو الامتصاص من قِبل الظلام.

قادني الإرهاق إلى الضفة. نمت في الزورق. أيقظني صوت ما فجرًا. قال بحرص، لكن بصورة ليست بعيدة عن مسامعي:

ـ لديه لحية.

لما فتحت عينَي، وجدت رجلين ملتحيين يقبض كل منهما على سلاح ناري، وهما يميلان نحوي ويتفقدانني باندهاش. توجت رأسيهما خوذتان لامعتان. بدوا مرهقين وساذجين نوعًا ما. انتفضت في البداية لأنني نمت ووجهي في اتجاه البر وبسبب انحنائهما ناحيتي وهما يقفان عند الضفة رأيت وجه كل منهما بالمقلوب، فظننت، وأنا أستفيق من النوم، أنهما فصيلة خاصة من سكان هذا المكان قد منحتهم الطبيعة رؤوسًا مقلوبة في إحدى نزواتها، لكنني حين اعتدلت فجأة ـ بصورة أفزعت قليلًا الرجلين اللذين انتصبا وهما يهددانني بسلاحيهما ـ تمكنت من التحقق من أن رأسيهما في مكانيهما المناسبين، وأن الوجهين اللذين تأملاني ـ لا من دون فزع ـ يشبهان جدًّا الوجوه الكثيرة الأخرى التي رأيتها سابقًا أثناء طفولتي في الموانئ. بدأت أحكي لهما حكايتي لأهدئهما، لكنني وأنا أتكلم ظللت أرى الاندهاش وهو يتنامى في تعبيراتهما إلى أن أدركت بعد لحظة أنني أتحدث معهما بلغة الهنود. حاولت التحدث بلغتي الأم، لكنني تحققت من أنني نسيتها. تمكنت بعد جهد كبير من نطق بعض الكلمات المنفصلة، لكنني صغتها، بحكم العادة، بالنحو المميز للهنود، وهو الأمر الذي ـ إلى جانب هيئتي الجسدية ـ قدم للرجلين دليلًا على أنني غريب مثلهما عن هذا المكان الذي يشبه الكابوس، على الرغم من أنه لم يوضح أي شروحات.

أمراني بأن أسير وراءهما. على الضفة، في اتجاه مصب النهر، ظهر معسكر ووراءه بقليل سفينة ساكنة في وسط المياه. كان لكل شيء، في الفجر المتقدم، هذا اللون الفريد الذي يعلن عن أيام الإقصاء والهذيان. أخفت لِحيتا هذين الرجلين تعبيراتهما الشاحبة والجزعة نوعًا ما كأنهما قناعان متيبسان. أدركت بسبب الصعوبة المتبادلة في التعامل أن السنوات العشر التي قضيتها بين الهنود جعلتني أستغرب هؤلاء الرجال. لما وصلنا المعسكر، أبعداني عن فضول الجنود الذين عملوا عند الضفة، ومضيا بي لأمثل أمام ضابط بدأ يستجوبني. على الرغم من جهودي حسنة النية، لم أتمكن من فهم شيء. صارت الكلمات التي لفظها ببطء شديد كي يُسهل عليَّ فهمها محض ضوضاء، والأصوات المنعزلة القليلة التي سمحت لي بالتعبير عن أي صورة محددة مجرد شظايا مميزة من غرض عهدته في حقب سابقة، لكنه تحطم بفعل كارثة. جاءت الكلمات القليلة التي تمكنت من صوغها في لغتنا المشتركة كأنها محاطة بعناقيد وشباك من كلمات الهنود التي تعلمتها وبدت أقوى

وأسرع وأسهل وأغزر، كنباتات هذه الأرض، لتتعارض مع كل صمت أرساه الضابط ليسمح لي بتقديم إجاباتي. انتهى بنا المطاف ونحن نتواصل أخيرًا عبر الإشارات: أجل. يوجد هنود على بُعد أقل من يوم، في اتجاه منبع النهر، ضد التيار. ربما سيستغرق الوصول وقتًا أطول. اسمهم «كولاستينيه». لا. ليس لديهم ذهب أو أحجار كريمة، وإنما رماح وأقواس وأسهم. أجل. أجل. أجل. يأكلون لحوم البشر. هز الضابط رأسه، متململًا بعض الشيء. اعتبر كل واحدة من إجاباتي البدائية تأكيدًا لشكوكه وظنونه الشخصية، على الرغم من أن هذه كما عرفت لاحقًا أول مرة يطأ فيها هذه الأرض. تعاطى مع كل واحدة من خصائص الهنود، مهما بدت ساذجة، كإهانة شخصية. بات لديَّ انطباع بأنني أصلًا بدوت له مثيرًا للشبهات، كأن إقامتي الطويلة في هذه الأرض لوثتني بقوة سلبية. أوشك على إرسالي إلى الحبس، لكنه تنازل في اللحظة الأخيرة ووضعني في عناية قس. يصفون ضابطًا مثله في هذه الأمم بأنه شخص وسيم جدًّا: شعره أسود وناعم ومهذب، كحال لحيته. جسده رياضي ومتناسق، وجلده برونزي وصحي من حياته الطويلة في البحر والعراء، وحتى في هذا الصباح الغريب، عند هذه السواحل الموحلة التي ترصدتنا منها باهتمام مستتر تماسيح وعناكب وسكان آخرون، بدا بملبسه وقميصه المُنشَّى وقطعه المعدنية البراقة، وهو يتلألأ منتصبًا بأناقة، كأنه سيحضر حفلًا راقصًا في البلاط. لما خلص إلى أنه بات مطلعًا بشكل كافٍ، نسي وجودي وبدأ يوجه أوامر نفذها مرؤوسوه بسرعة وإخلاص. تمكنت في الأيام القليلة التي حظيت فيها بفرصة مراقبته من التحقق من أن البحارة والجنود بجلوه، وأن مزاحه المقتضب والمتكلف أسهم ـ لا بصورة قليلة ـ في تخفيف عبء الأعمال القاسية لكل من عملوا تحت إمرته، كأنه يعي المزايا التي يعنيها منصبه هذا، ويشعر بالرأفة، بل ربما نوع معين من الحب، تجاه رجاله، لكنني كلما وجدته أمامي شعرت نحوه بنوع من النفور الذي ظل يتزايد خلال الأيام التالية. عاد الرجال سريعًا إلى السفينة الراسية في منتصف النهر، وأخذوني معهم، وخلال ساعتين، تضمنتا توزيع الأسلحة والصراخ، كانوا قد جهزوا بعثتهم. أبحرت السفينة في اتجاه منبع النهر وتوقفت من جديد بعيدًا عن الضفتين. قضيت الليلة في أحد أركان سطح السفينة في عناية الراهب الذي بعد أن ناولني الطعام ظل يستجوبني بعذوبة، وسط لحظات طويلة من الصمت، لكن من دون نتيجة. مرد الأمر إما إرهاقي وإما أن هذه الأحداث البعيدة قد التبست تقريبًا على مشاعري، فلم تعثر في أعماق كينونتي على لغة قد تُعبر عنها. في الصباح التالي، استجوبني الضابط مجددًا، وهو يشير في اتجاه الضفاف، فشرحت له عبر إيماءاتي، أن النجع ليس بعيدًا، وبما أننا وقفنا بالقرب من سور السفينة، فتحققت من أن واحدة ثانية رست ليلًا بالقرب منا. اقتربت زوارق محملة برجال مسلحين منها إلى سفينتنا التي استعد طاقمها هو الآخر. بدا الضابط حتى اللحظة الأخيرة مستعدًّا لأخذي معهم في بعثتهم، لكن هذا الشك المحدد تجاه شخصي ـ وربما سببه الذي لم يدركه هو نفوري منه ـ لم يدفعه فقط إلى تركي على متن السفينة، وإنما إلى إرسالي مع الراهب إلى

عنبرها، كأنه يخشى خيانتي أو سحري المؤذي. ينبغي لي أن أقول إن الفضول الذي أثارته مغامرتي وشخصيتي في البداية جاء ممزوجًا بالشك والرفض، كأن اتصالي مع هذه المنطقة المتوحشة أصابني بمرض معدٍ أو كأنني عدت ملوثًا من العالم الخارجي بسبب بقائي بعيدًا لمدة طويلة عن العالم الذي انتمى إليه هؤلاء الرجال.

خرجت البعثة مع انتصاف الصباح وعادت حين أمسى اليوم. عثروا على الأشجار والشاطئ شبه الدائري والنجع، لكنهم لم يجدوا أثرًا لساكنيه المزعومين. اختلط الرماد الذي ظل فاترًا بأرضه الرملية. استدعاني الضابط لاستجوابي للمرة الثالثة ورافقني الراهب. بناء على طلب الضابط، وعبر إشارات منهكة وعبارات مجزأة خلطتُ بين كلمات من اللغتين وكلمات أخرى جمعت بينهما من دون أن توجد بمفردها في أي منهما، قلت إن الهنود رأوا السفن تصل بلا شك وإنهم تقهقروا إلى الأجزاء الداخلية لهذه الأراضي، كما رأيتهم يفعلون عدة مرات قبلئذٍ في أوقات الفيضان أو أمام خطر تعرضهم لغزو من أي قبيلة مجاورة. هز الضابط رأسه في حركات بطيئة مؤكِّدة، وهو يُضيق عينيه، كأنه توقع هذه الإهانة سلفًا. بدت إيماءاته كأنها تفيض بقناعة أن الهنود وجب عليهم ـ بموجب التزام لا يعرفه أحد ـ أن ينتظروه وألا يتقهقروا إلى الأجزاء الداخلية من الأراضي حين رأوه يصل بقواربه الممتلئة بالجنود المسلحين. كأن الضابط قد امتلك الغرور الكافي ليتصور أن الهنود سيعرفون سابقًا الخطط التي جهزها لهم، وأنهم سيوافقون عليها من دون تردد وسينفذون كل التصرفات التي ستؤدي إلى اكتمالها. رأى الضابط أن امتلاك هؤلاء الهنود لوجهة نظر شخصية حول هذه الخطط فكرة لا يُمكن تصورها.

نقلوني مع الراهب وكل شيء إلى السفينة الأخرى، بعد أن استنزفوني بأسئلتهم المتكررة وغير المجدية. اضطلع ضباط جدد بمسؤوليتي واستجوبوني أمام النظرات الفضولية للبحارة إلى أن نبذوني عند أحد أركان سطح السفينة. أضافوا قميصًا وحذاء لم أجد سبيلًا في البداية لانتعاله إلى الملابس التي سلموها إليَّ في أول يوم لإخفاء أعضائي التناسلية. انزلقت الملابس من على جلدي، وأشعرتني بكوني غريبًا وبعيدًا عن جسدي، لكن تدريجيًّا نسيت أنني أرتديها واعتدت عليها. في الصباح التالي، أيقظني الكاهن ليقص لحيتي وشعري وليقدم لي شيئًا آكله. عرفت عبره أن بعثة جديدة خرجت فجرًا في اتجاه الساحل وأن سفينتنا بداية من تلك اللحظة بدأت تبحر في اتجاه مصب النهر. أطللت من فوق سورها ولم أرَ إلا النهر الجامح وهو ينساب في اتجاه البحر، والسواحل الخاوية والصامتة. لا أثر للهنود أو الجنود، على الرغم من أننا لم نبحر منذ وقت طويل. توقفنا بمجرد أن حل الليل. إنه لصمتٌ هائل ومنهك ذلك الذي جاء من السواحل التي تركتها السفينة خلفها ووقفت الآن بمحاذاتها. تفقدت أفق الماء من دون أن أعرف السبب جيدًا. بزغ القمر، كقوس أصفر في تلك الليلة، بعد غيابه الدوري، فتأملت النجوم الكثيرة، من بين الصواري والحبال، وأنا فوق سطح السفينة الذي اجتاحه البعوض، لكن ما من صوت واحد صعد إليها، ولم يصل إلى سطح

السفينة الناعس، سوى الصمت ذاته الذي لم يقطعه شيء طوال النهار.

لم يحدث شيء مختلف في اليوم التالي. استأنفنا إبحارنا مع الفجر في اتجاه مصب النهر، ولما حل المساء رسونا مجددًا. بدا الطاقم غير منشغل البال بالسفينة التي تركناها وراءنا، بين جزر صغيرة ومنسية. أنا الوحيد الذي نظر، بقلق، إلى ما هو أبعد من الأثر الذي تركناه خلفنا. في شروق اليوم الثالث، وصلت العلامات المنتظرة بشدة، لأن كثيرًا من الجثث التي لم يتوقف الماء عن تحريكها طوال الليل، على عكس سفينتنا، سبقتنا وطفت أمام مقدمتها. الجنود ليسوا قليلين، لكن الأغلبية من الهنود. رجال وعجائز ونساء وأطفال. انغرست الأسهم إما في صدور أو حناجر الكثير من الجنود. ركضتُ إلى مؤخرة السفينة وتمكنتُ من التحقق من أن جثثًا كثيرة تقترب منها ـ بل من ميسرتها وميمنتها ـ وهي تتقدم طافية بسرعتنا نفسها تقريبًا، إلى درجة أن السفينة، خلال اليومين أو الثلاثة أيام التي مرت، مضت في طريقها نحو مصب النهر وفي رفقتها جمع من الجثث. أشار البحارة إلى بعض الجنود الذين انبثقت وجوههم الناعسة من الماء، وبدا عليهم الرضا من التعرف على زملائهم، لكن الضباط أصدروا أوامرهم بتركهم يطفون. كانوا موتى كثيرين، متيبسين، ومطموسي الملامح بين هنود وجنود، وبدوا كموكب صامت يتقدم بصورة أسرع كلما مر الوقت، إلى أن تبعثروا حين وصل النهر إلى مصبه المتسع وسط البحر العذب الذي اكتشفه القبطان قبلئذٍ بعشر سنوات، وتاهوا في مياهه المفتوحة والرحبة. علمت في ذلك اليوم أن السفينة ستجتاز هذا البحر تحت وطأة الشمس التي تعمي الأبصار، كأنها تجتاز جسرًا من الأيام الجامدة، لتمضي نحو ما سماه هؤلاء البحارة، ليس من دون مهابة بليدة: «وطننا».

بمرور الأيام، عادت لغة طفولتي التي هُيئ إليَّ في الساعات الأولى أنه لم يبقَ منها سوى أجزاء لا يُمكن فك شفرتها، وصارت حميمية ومكتملة؛ أولًا في ذاكرتي قبل أن تجري بعدئذٍ تدريجيًّا مجرى الدم. ساعدني الكاهن بإصراره. صحيح أنه التزم بدقة بواجبه الخيري، إلا أن الشك داخله تجاه شخصي زاد عن الآخرين، إذ أظهر مسار أسئلته أنه يبدو مقتنعًا بأن صُحبة الهنود، الذين لم يعرف عنهم شيئًا أصلًا، مثلت فرصة بالنسبة إليَّ لتجربة كل الخطايا. اعتبر هذا الكاهن، الذي تولى أمري حتى تمكن من التخلي عني بارتياح في عناية أيدٍ طيبةٍ، أن قربه مني كالقرب من الشيطان، ولولا استقامته وتقيده المحكم بالواجبات الكنسية، لتركني، إذ بدا واضحًا أن شخصي يبث فيه الخوف أكثر من الرأفة. وصلت الريبة التي أيقظتُها داخل الكاهن إلى حد من اليقين لم تبلغه عند أحد غيره: لو كنت مجذومًا، فلربما لامسني بتساهل أكثر. اكتسب هذا القلق من شخصي في البدايات طابعًا عامًّا، إلى درجة أنني تساءلت في بعض اللحظات هل تتضمن نجاتي وإقامتي الطويلة بين الهنود جريمة سرية ينبغي لأي رجل شريف أن يشعر بالذنب بسببها، أو ما إذا كنت تشاركت معهم في جوهرهم الدبق من دون أن أدرك، ولهذا صرت أمشي بين البشر كأمارة حية وواضحة على هذا الأمر أمام الكل إلا أنا وحدي. صارت رحلتي ووصولي عبارة عن استجواب

بحت ونظرات خفية أو متفحصة من قِبل رجال حاولوا أن ينتزعوا مني أشياء شغلت بالهم، لكنني جهلتها. بدا أن الضباط والموظفين العموميين والبحارة والقساوسة يعانون من الهوس ذاته الذي لم يعلموا عنه شيئًا مثلي. لم نتمكن لا أنا ولا هم من تحديد ما إذا كانت شكوكهم المُلحة التي تعاملوا بها مع شخصي مبررة فعلًا أم لا.

لم يشعر رجل واحد بهذه الشكوك، ومرد الأمر ليس رحمته بقدر ما هي فطنته. مات هذا الرجل منذ أكثر من أربعين عامًا، واسمه الأب كيسادا. خضعتُ إلى الاستجواب والفحص من قِبل حكماء ورجال من البلاط وجئت وذهبت معهم، وحين شعر القس، الذي رافقني في السفينة وجاء بي إلى هنا كمن يُمسك جمرة في راحة يده، بأن لحظة تحرره من شخصي حانت، أوحى إلى بعض النبلاء بأنه ما من مصير ممكن لي سوى الدين، في ظل قلقه على خلاصه الشخصي أكثر من خلاصي أنا واقتناعه ـ الذي مرده سذاجته نفسها ـ بأن كليهما مرتبط. تعرفت إلى الأب كيسادا بفضل اقتناع هذا الكاهن بأن شيطانًا يسكنني، وقضيت معه سبع سنوات في دير يقع عند أعلى نقطة في سهل ويطل على قرية صغيرة بيضاء.

مرت شهور كثيرة أغرقتني في الحزن، كمن يغرق في بركة من الماء العكر، منذ عثر عليَّ الجنود صباحًا وأنا نائم في الزورق حتى منتصف ذلك المساء الذي وصلت فيه فوق حصان في عناية بعض الحرس إلى الدير. ذابت الكلمات في فمي كحفنة من الرماد، وبدا كل شيء حزينًا وسط النهار اللامبالي. اجتاحتني، يومًا تلو الآخر، غواية ألا أتحرك وألا أتحدث وأن أصبح شيئًا منسيًّا وبلا وعي. كفاني طيلة مدة طويلة أن تسقط ورقة شجر أو أن أرى أحد شوارع الميناء أو ثنية في رداء أحدهم، أو أي شيء آخر بلا معنى لأوشك على الانفجار في البكاء. شعرت أحيانًا أن شيئًا ما داخلي يتضاءل فيكاد أن يختفي، وأن العالم ـ ابتداء من جسدي أنا ـ شيء بعيد وغريب لا ينبثق منه معناه، وإنما طنين رتيب. حينما لم تحاصرني هذه المشاعر المتطرفة، قضيت أيامي، وأنا شبه نائم، فاقدًا الإحساس بكثافة وغلظة الأشياء، وموهَنًا من اللامبالاة. في ظرف أشهر قليلة، بدأت أي إشارة أو حركة تشق عليَّ. قضيت ساعات كاملة إلى جوار إحدى النوافذ، من دون أن أرى زجاجها أو ما هو وراءه في الخارج، وصارت رغبتي الأولى لدى استيقاظي هي أن يحل الليل سريعًا كي أستلقي وأنام. اعتدت أن أقضي النهار كله في فراشي في حلم يقظة خاوٍ، إن لم يأتوا ويذهبوا بي لسؤالي وإبداء ملاحظاتهم عليَّ. بدا الأمر، الذي لم أفكر فيه قَطُّ حتى تلك اللحظة، كأنني أطلب المساعدة من النسيان كي ينتشلني من شيء يدفنني أسفل طبقات متكاثفة من الأسى غير المبرر والغم.

انتشلني الأب كيسادا من هذا البؤس بوجوده المجرد. لم يكن رجلًا طيبًا فحسب، وإنما أيضًا شجاعًا وذكيًّا وقادرًا على إضحاكي طيلة ساعات، ما دام مزاجه رائقًا. تظاهر بقية أعضاء الرهبانية باستهجانه، لكنهم في أعماقهم حسدوه. لمَّا تعرفت إليه، كان في الخمسين من عمره،

وجعلَته لحيته شبه الشيباء وخصلات شعره الشعثاء الملتفة يبدو أكبر في السن قليلًا، لكنه تمتع بجسد سميك مفتول العضلات، واستقر رأسه بثبات بين كتفيه بفضل رقبته المشدودة المفعمة بالصلابة. ذكَّرت عروقه وعضلاته وجلده الداكن الذي دبغته الشمس دائمًا بالجذور والحطب الجاف المتفتل. رأيته لأول مرة وهو عائد إلى الدير بعد نزهة فوق حصانه، ولهذا دخل بعدي أنا وحراسي. أتذكر أنني سمعت حوافر الحصان قبل أن أرى من يمتطيه، وأنني استدرت حين لاحظت النظرة المستهجنة الشاردة التي وجهها إليه الراهب الذي استقبلنا. بدا طيف شعره الهائج شبه الشائب طويلًا وحريريًّا أمام الشمس الآفلة. انساب العرق، المتسخ قليلًا، على جبينه ووجنتيه قبل أن يتيه لاحقًا داخل لحيته الرمادية. انبعثت من شخصه جرأة سمحاء ومستكينة. علمت من النظرة السريعة التي وجهها إليَّ أنه خمن أحزاني وبررها وتعاطف معها. مع ذلك، كانت هذه النظرة مبتسمة، بل شبه ساخرة، كأنه رأى لغزي الشخصي بصورة أوضح من رؤيتي له فدحر المعاناة ـ بفضل تفهمه ـ إلى بُعد مقبول. تتحلى هذه النظرة التي لطالما أغضبت نظراءه بقوة معدن لا تنجح النار في تدميره مهما استمر تأججها حوله. يُمكن القول، داخل هذا الإطار، إنها أقل إنسانية، لأنها لم تعرف حيرة الفزع التائهة ولا الشرود المستسلم. لم يمنحني هذا اللقاء الأول الذي استغرق ثواني قليلة الشجاعة أو الصفاء بقدر ما منحني أملًا خفيفًا وملتبسًا. وجه لنا الأب كيسادا التحية بانحناءة من رأسه وقاد حيوانه نحو الإسطبلات.

كان رجلًا عالمًا، بل حكيمًا. تعلمت كل ما يُمكن تعلمه منه. حظيت في النهاية بأب انتشلني ببطء من هوتي الرمادية، إلى أن جعلني أحظى بعد المرور بعدة مراحل بأقصى ما قد يمنحه لنا هذا العالم: حالة حيادية ومستمرة ورتيبة ومتساوية الأبعاد بين الحماس واللامبالاة تجد مبررًا لوجودها بين الحين والآخر بأي تمجيد متواضع. لم يكن أمرًا سهلًا؛ فالأصعب من اللاتينية واليونانية والعبرية والعلوم التي درَّسها لي هو ترسيخ قيمتها وضرورتها داخلي. بالنسبة إليه، فهي كلاليب مهمتها التعامل مع وهج العالم المحسوس، أما بالنسبة إليَّ ـ أنا المبهور بقوة الاحتمالات ـ فبدا الأمر كالخروج لاصطياد وحش قد التهمني أصلًا. مع ذلك، جعلني أفضل. استغرق الأمر منه سنين وما دعم جهودي أكثر من حب المعرفة، هو حبي لصبره وبساطته. تفهمت لاحقًا، في وقت متأخر جدًّا، بعد أن مرت عدة سنوات على وفاته، أن الفعل الوحيد الذي قد يبرر حياتي كان سيظل بعيدًا عن متناولي، لو لم يعلمني الأب كيسادا القراءة والكتابة.

أتذكر أنني لم ألتقِ به مجددًا في الأيام الأولى، ثم علمت لاحقًا أنه رحل إلى قرطبة وإشبيلية للتداول مع بعض الأصدقاء والبحث عن بعض الدراسات. منحَته معرفته حريات اعتبرها بعض أفراد جمعية الرهبان مفرطة، لكن لأن أصحاب المناصب البارزة الذين اعتادوا أن يأتوا لاستشارته ليسوا قلائل، لم يجدوا مفرًّا من التساهل معه.

بدا لي ضخمًا فوق الحصان، لكنني حين رأيته ثانية وهو يقف في أحد أروقة الدير، تحققت من

أن قامته قصيرة. مع ذلك، فإن صغر جسمه هذا بدا كأنه يشع قوته ويضاعفها ويرفع من تركيزها. لكنها قوة رصينة بعيدة عن التفاخر، وبالتالي عن كل أشكال العنف. ربما ليست قوة بقدر ما أنها صرامة، وهي السمة التي، على الرغم من تواضعه بل نوبات اعتزازه بنفسه، استخدمها للحفاظ على برودة أعصابه أكثر من استخدامها للإقناع أو للتغيير. ارتكزت صيغته الخاصة للتواضع على التسخيف من نفسه بتعبيرات تأملية ساخرة، وراق هذا الأمر من يمقتونه أكثر ممن يحبونه لأنهم تاقوا إلى تأكيد حقيقة افتراءاتهم على أرض الواقع. بدت الضحكة السوقية والمبالغة التي استقبلوا بها الصورة الهزلية التي صنعها الأب من نفسه بسبب شطاطها دليلًا مسموعًا على وجود هذا التوق، لكن الأب الذي أدرك الأمر استمر في إصراره على التسخيف من نفسه بدافع الإحسان البحت. لطالما اغتم من يحبونه في الدير، وتظاهر هو بأنه يجهل الأمر، كأنه يطالبهم بالتواضع ذاته. راقبت الوضع من بعيد، ولم أتجرأ على الاعتراض عليه في أي شيء لأنني وصلت للتو، ولم أتمكن من معرفة ما إذا كان سلوكه مدروسًا، لأنني أدركت بعد تعرفي تدريجيًّا إلى بقية رجال الدين أن كثيرًا منهم قادرون، تحت مظهرهم الورع والطيب، على ارتكاب أكبر الجرائم لأن السلطة تقف في صفهم. بلا شك، تنازل الأب كيسادا عن كبريائه لكيلا يجرحهم لأنهم جهلة ومتطيرون ومساكين ومتساهلون ومدَّعون وصبيانيون، لكن أيضًا ليحمي نفسه، لأنهم على الرغم من مظهرهم الوادع والرزين، قادرون على إرسال رجل إلى المحرقة. بلا شك، لدى الأب كيسادا بعض العيوب من وجهة نظر دينية، لكن هذه العيوب موجودة أيضًا في بقية رجال الدين، من دون أن يتحلوا ولو بواحدة من فضائله. قِيل همسًا إن لديه محظيات في قرطبة وإشبيلية، حيث اعتاد أن يذهب كثيرًا، وهو الأمر الذي بغض النظر عن لامبالاتي تجاهه، لم يثبت. الأمر الوحيد المؤكد هو حبه المفرط للنبيذ، لكن هذه المسألة في رأيي لم تُفسده بقدر ما حسنت من حاله، فمزاياه التي أخفاها وهو واعٍ بدافع التواضع، ظهرت في النور كلما تناول قليلًا من النبيذ في رفقة أصدقائه، وجعلته من دون أن يدرك أجدر بالحب. لطالما أذهلنا وجعلنا نضحك طيلة ليالٍ كاملة وبدت كل موضوعات المحادثات مألوفة بالنسبة إليه. كان فيلسوفًا مرهفًا ومنفتحًا ومحاجًّا صبورًا ودقيقًا، وشغلته الحياة اليومية بقدر انشغاله بالفيزياء أو علوم اللاهوت. لطالما أصابه الحزن، في النهاية، بعد الإفراط في الشرب، لكنه حُزن يتسع كرمه لمصائر الآخرين، لأنني طيلة سبع سنوات لم أسمعه يشتكي من مصيره ولو مرة واحدة. كلما جاء فجرٌ حرارته مرتفعة، اعتاد أن يظل صامتًا ومتعرقًا بعض الشيء بسبب النبيذ وهو ينظر إلى الخواء من دون أن يرمش، قبل أن يهز رأسه فجأة ويبدأ في التحدث عن سمعان القوريني، مبديًا إشفاقه عليه بسبب نصيبه الذي وضعه في طريق الصليب وجعل منه أداة للعذاب، أو القديس بطرس الذي انفجر بالبكاء بعد إنكار يسوع المسيح ثلاث مرات. كلما وصل الأمر إلى هذا الحد، وجَّه أصدقاؤه ابتساماتهم الخفية إلى بعضهم وهموا بالانصراف، وهم واثقون من أن الأب سينام ويشخر على الأرجح بعد خمس دقائق فوق

مقعده. اعتدت أن أحثه على النهوض ليمضي شاردًا ومطيعًا إلى صومعته وهو يستند إلى كتفي، فينام بعد أن أتركه ممددًا فوق فراشه، قبل أن أغلق الباب ورائي. تنامت استطابته للنبيذ بمرور السنوات، وفي الأواخر صارت تجمعات الأصدقاء تنعقد مرة بل مرتين أو ثلاثًا أسبوعيًّا، على الرغم من أنها خلال شهور إقامتي الأولى انعقدت مرة واحدة في الشهر أو كل خمسة عشر يومًا. لطالما قال الأب إنه يشعر بآلام قوية في ظهره وإن النبيذ وحده جعلها تتبدد. مع ذلك، لم يشرب شيئًا في الأشهر الأخيرة من حياته، وما زلت أتساءل ما إذا كان هذا سبب موته. الأمر المؤكد أنه ذات صباح خرج مبكرًا فوق حصانه، وأن الحيوان عاد بعدئذٍ بعدة ساعات وحده إلى الإسطبل. لما عثرنا عليه، مع حلول الليل، وسط الجبل الموحش، كان ميتًا، من دون إصابة واضحة، إلا الدماء القليلة التي خرجت من أنفه وبقيت جافة فوق لحيته الضاربة إلى البياض، لكننا لم نعرف قَطُّ هل تسبب سقوطه في مقتله أم أنه تعرض إلى هجوم. لا بد أنه مات تحت السماء المفتوحة ـ بما أن الأمر حدث في عز الصيف ـ ووجهه ينظر إلى الضوء الحاد والملغز ذاته الذي ظل يواجهه بذكائه طيلة أيام حياته.

إن اهتم بي، فمرد الأمر الرأفة، لا الفضول، على الرغم من أن حالتي ـ وهو المسمى الذي أطلقه أحيانًا على وضعي الشخصي ـ بدأت تهمه أكثر فأكثر، كلما ازدادت معرفته بي. ينبغي لي أن أقول إن موت القبطان وزملائي وقع أمام أعين الأغلبية الكبرى من طاقم الملاحة التي ظلت في السفن وراقبت المشهد من قرب أسوارها الجانبية، ولدى عودة هذه السفن إلى الموانئ التي انطلقت منها، انتشر الخبر في كل المدن الكبرى، فخضع للنقاش والتضخيم والتأويل بصورة مغرضة وذهب وجاء من دون كلل من الموانئ إلى القصور، ومن القصور إلى مراكز التجارة. وقعت حالات أخرى مشابهة في نقاط أخرى في أفريقيا أو بلاد الهند. من ضمنها، اختطاف عدد من الهنود لمجموعة من البحارة، فقرر المتبقون من طاقم الملاحة عدم الانسحاب والتوجه لإنقاذهم بعد مداولات كثيرة، لكن حين وصل الطاقم إلى نجع الهنود، اكتشفوا أنهم أكلوا سجناءهم من دون طهي، وأن كل ما بقي منهم بعض العظام التي التصقت بها نسائر وجماجم مسلوخة. خضعت حالة الهنود نفسها إلى النقاش. رأى البعض أنهم ليسوا بشرًا، وعدَّهم آخرون بشرًا، لكنهم ليسوا مسيحيين، فيما رأى آخرون أنهم ليسوا بشرًا لأنهم ليسوا مسيحيين. بين الحين والآخر، أثناء الدروس، وجه لي الأب كيسادا أسئلة أصابتني في بعض المرات بالحيرة، لكنه سجل إجاباتي بخصوصها وجعلني أكررها للحصول على تفاصيل إضافية. هل لديهم حكومة؟ ممتلكات؟ كيف يتغوطون؟ هل قايضوا أغراضًا صنعوها بأغراض أخرى صنعتها قبائل مجاورة؟ هل عرفوا الموسيقى؟ هل لديهم دين؟ هل ارتدوا زينة في أذرعهم وأنوفهم ورقابهم وآذانهم أو في أي مكان في جسدهم؟ بأي يد اعتادوا أن يأكلوا؟ كتب الأب عبر البيانات التي جمعها بحثًا موجزًا جدًّا عنوانه: «تقرير المخذول»، وحكى فيه حواراتنا. لكن ينبغي لي أن أقول إنني في تلك الحقبة كنت

لا أزال دائخًا من الأحداث، وإن احترامي للأب كان كبيرًا جدًّا إلى درجة أنني بسبب رهبتي لم أتجرأ على قص أشياء كثيرة جوهرية لم تستدعها أسئلته.

ذات مرة سمعته يقول في أحد الاجتماعات، وهو مبتسم ويهز رأسه، إن الهنود أبناء آدم ـ غير المعترف بهم من دون شك ـ لكنهم أبناء آدم، ما يعني أنهم بشر بالنسبة إليه. أتذكر جيدًا الآن أنني في هذه الليلة فكرت وسط الصمت أن الهنود هم البشر الوحيدون على سطح هذه الأرض، وأنني ـ باستثناء الأب كيسادا ـ لم أعثر منذ اليوم الذي أعادوني فيه إلا على كائنات غريبة وملتبسة توصف بالبشر بحكم العادة والعرف فحسب.

امتلأ الدير، الذي يفترض أنه مكان للخلوة، بذهاب وإياب لا ينتهي. امتلك رجال الدين المنتسبون إلى عائلات جيدة خدمهم الشخصيين، ودخل الغرباء وخرجوا في أي وقت: أقارب، وزيارات، وفلاحون، وحرفيون، وبائعون، وكثير من رجال الدين الذين باتوا في الدير أثناء مرورهم في المنطقة. استقبل كل كاهن أصدقاءه وحُماته، وبعض منهم عشيقاته، وجرت العادة على أن يصير المستجدون مراسيل لمن رُسموا كهنة، وأن تمتد الاحتفالات الدينية التي تبدأ بالقداس صباحًا إلى يوم أو اثنين من اللهو والولائم. قد يجمع رئيس الدير أحيانًا الآباء الكهنة ويطالبهم بالرزانة، لكنه استقبل بنفسه، بفضل علاقاته الكثيرة مع أشخاص لهم مكانتهم، فنانين ونبلاء، ونظم مواكب ومناظرات شعرية على شرف هذا القديس أو ذاك، مُطالبًا بأن تتفوق في بريقها على المناظرات التي تنعقد في الأديرة المجاورة. ذات مرة جاء رسام من البلاط ليقيم معنا ويرسم لوحة «العشاء الأخير» كي توضع في قاعة الطعام. مكث قرابة العام في الدير، وتسببت تجهيزاته في بلبلة كبيرة. تفقدنا باهتمام، أماميًّا وجانبيًّا، وجعلنا نظهر له أيدينا ونقف في أغرب الوضعيات ونرتدي الملابس بطرق مختلفة. اختار عارضيه في النهاية وبدأ يرسم. بات واجبًا على الدير كله أن يصير تحت تصرفه، فوجه أوامره إلى الجميع، حتى رئيس الدير نفسه، الذي تعامل معه بخضوع وتوقير، وبدا مع ذلك مستمتعًا جدًّا بوجوده في الدير، ولبى له أصغر نزواته. طلب الرسام دائمًا أغراضًا يجب أن تتوفر له في لحظة طلبها. لطالما سُمع وهو يتحدث بصوت مرتفع، إن مر أحد ما أمام باب الغرفة التي يعمل فيها. مع ذلك، اعتاد أحيانًا لدى نهاية اليوم، حين تنقصه الإضاءة، أن يصرف عارضيه بوجه منهك وشارد، وأن يتوجه بعد ترتيب مواده بدقة وحرص، إلى صومعة الأب كيسادا، مع قليل من النبيذ تحت عباءته، فيظل يتحدث معه برزانة ووداعة هناك، وسط الجدران المغطاة بالكتب، حتى ما بعد منتصف الليل بكثير.

ما أبقاني في الدير هو وجود الأب. لو أن الأمر بيدي، لما استمر بقائي وقتًا كثيرًا. كنت معتادًا على الخلاء والصمت الحقيقي والوحدة، وأصابني كل هذا الحراك بالدوار. من جانب آخر، استنتج الأب أنني لم أستوعب من الدين الذي يجب أن يُصلحني إلا الضوضاء الرتيبة للكلمات التي لا معنى لها والتكرار الشعائري للإيماءات الفارغة. في الأيام الأولى، قبل أن يأخذني الأب في

عنايته، وضعوني بين يدَي طارد أرواح ليُحررني، بعباراته اللاتينية، من شياطيني. تدخل الأب بعد عدة أسابيع وتمكن من جعلهم يتركونني في سلام. بدأت أجهز له طاولته، وأنظم صومعته، وشرع هو تدريجيًّا يعلمني القراءة والكتابة، فقرر، لما رأى أنني أتطور سريعًا، إطلاعي على أشياء أخرى لأنني، كما أخبرني، دخلت العالم للتو، بل وصلت عاريًا كأنني خارج من بطن أمي. تقريبًا، لم أتحدث قَطُّ، فاحترم صمتي. ذات مرة قال لي، قبل أن يموت بوقت قليل:

- يوجد نوعان من المعاناة. في واحد منهما يعرف المرء أنه يعاني، وبينما يعاني تُسرق منه حياة أفضل؛ تلك التي يظل مذاقها باقيًا في ذاكرته. في النوع الثاني، لا يدرك المرء حين يجتاز المعاناة أنه يعاني، لكن العالم كله يغدو مكانًا مقفرًا ومحترقًا، حتى في أكثر مظاهره تواضعًا.

قال لي الأب ذلك وهو لا ينظر إليَّ، لأنه خاف بلا شك أن يرى هذا النوع يظهر على تضاريس وجهي من دون أن أدرك أصلًا أن هذه المعاناة المجهولة هي التي يُمكن لطاردي الأرواح محاولة إبعادها باصطلاحاتهم اللاتينية لو رغبوا، لكنه بدا متأكدًا من أنه لا يوجد مسبار قادر على الوصول إليها، وأن محوها من هذا العالم يتطلب في الوقت ذاته محو العالم نفسه.

ذات مساء صيفي، جاءوا إلى الدير بهذا الرجل الطيب الذي واجه الأمور بالأبعاد الدقيقة التي تستدعيها الحقيقة، وهو صامت وغائب عن الوعي ودماء قليلة تلطخ لحيته البيضاء. بالنسبة إليَّ، «الأب» هو الاسم الذي يُمكنني أن أصفه به؛ أنا الذي جئت من العدم وبدأت أعود تدريجيًّا ومن دون ارتعاد، بفضل ولاداتي المتعاقبة، إلى مكان نشأتي. ما إن انغلقت الأرض عليه، حتى جمعت الأغراض القليلة التي امتلكتها وامتطيت حصانًا وانطلقت لأتيه عبر المدن مدة من الزمن.

تشكلت السنوات الأولى من الظلال والرماد. تجولت، وأنا شبه منطفئ، عبر عوالم كثيرة في الوقت ذاته إلى درجة أن هذه العوالم تمازجت لعدم وجود قانون يحكمها؛ أو أنني بالأصح قد تجولت عبر قشور عوالم وأراضٍ منهَكة هام في سهوبها رفات لا سُمك له، ولديه ـ بصورة غامضة ـ هيئة بشرية، في أعجوبة لا يعرف أحد سببها. أبقتني معجزة ما بالتأكيد على قيد الحياة. حصلت على الطعام في أيام كثيرة من التسول ومقالب القمامة، وفي أيام أخرى من أعمال مؤقتة ووضيعة. صحيح أنها كانت أزمنة صعبة وأن عادات حياتي لم تتفق مع بقية البشر، لكن عليَّ أن أعترف بأن ما بقي داخلي من صدامي مع العالم خلال هذه السنوات هو أحد أنماط الذهول، وأن أسباب العيش ـ بل رغبتي فيه أصلًا ـ كادت أن تنعدم. اعتبرت، حتى ذلك الحين، مسألتَي «أن تكون» و«أن تعيش» شيئًا واحدًا، فغدا العيش في هذه الحياة بالنسبة إليَّ جدولًا ذا ماء مُر، لكنه جدول ثابت ولا ينقطع جريانه، أما منذ عودتي، فصارت حياتي التي رأيتها وهي تنبسط على بُعد واضح مني شيئًا غريبًا هشًّا وغير مفهوم قد تتسبب أقل هزة في انهياره. بدا الأمر كأن حياتي طُردت خارج كينونتي، ولهذا السبب أصبح كلاهما، بالنسبة إليَّ، مظلمًا ولا لزوم له. شعرت أحيانًا بأنني أقل من العدم. لو أن إحساسًا بالهدوء المتوحش والحيواني هو ما نفهمه من مقولة «الشعور بالعدم»، فأن يشعر المرء بأنه «أقل من العدم» تعني فوضى بطيئة لزجة يسود العجز واللعثمة

لغتها؛ وكذلك أن يعاني المرء في دهليز جهنم الثخين والمصمت لازدراء النفس ولأحلام الإبادة، وهذا تحديدًا لأنه «أقل من العدم» ولا يمتلك أصلًا قوة الرغبة الموجودة عند آخرين.

مع ذلك، انتظرني سلام غير متوقع في مكان عادي. ذات ليلة، وأنا في أحد الحوانيت، دخل بعض الأشخاص في حوار معي وهم يثملون بجوار طاولتي. إنهما رجلان، أحدهما عجوز والآخر شاب، ومعهما أربع نساء. ظنوني أديبًا، لما لاحظوا أنني درست قليلًا وعلمت أنهم ممثلون. قرب النبيذ بيننا. كانوا يتنقلون بين القرى والمدن وقدموا أعمالًا مسرحية وكسبوا عبر هذه اللعبة الطفولية قوت حياة بائسة، لكن الرجل العجوز الذي عرج بقدمه قليلًا وتمتع بالوجاهة على الرغم من فقره، كان ذكيًا ولم يستخف بمتعة المحادثة. لما لاحظ أنني أعرف اللاتينية واليونانية وأنني على دراية بترنتيوس وبلاوتوس، اقترح عليَّ أن أنضم إليهم وأن نتشارك المخاطر والمنافع. نادى الشاب، وهو ابن أخيه، النساء كلهن ببنات العم. قبلت المقترح بالشجاعة التي يبثها النبيذ الليلي، من دون أن أكشف عن أن الأمر بالنسبة إليَّ تعلق بالاختيار بين المسرح ومقالب القمامة.

بهذه الطريقة، انطلقنا عبر الطرق. رأيت، من مكاني في العربة، أشجار الزيتون والقمح والأراضي الممتلئة بالحجارة وهي تتعاقب وراء بعضها. ذكرتني هذه الحقول الخاوية أحيانًا بماضي حياتي الضخم والفريد. ذات يوم، عسكرنا بين بعض الأشجار، قرب جدول، وفي واحدة من أوقات القيلولة التي تفيض منها البهجة، حكيت للعجوز قصتي، وبقيتهم نائمون أو يستمتعون بالتجول عبر الريف. سمعني بصورة امتزج فيها إشفاقه عليَّ بانبهاره، وحين انتهيت بدأ سجاله بحماس، لكن بصوت خافت محموم، مقتربًا مني وهو ينظر بطرف عينه بين الحين والآخر إلى كل الأنحاء، كأنه يخشى أن يسمع مقترحه ـ الذي تعامل مع قيمته ككنز مدفون ـ جواسيس مجهولون قادرون على استغلال مشروعاته. قال العجوز إن ما حدث لي منذ سنوات كثيرة أمر معلوم في القارة كلها، وإن الحديث عن هذه الأحداث لا يزال يجري بالإصرار المتكرر ذاته الذي تُستحضر به الأساطير. لو قررت فرقتنا ابتكار مسرحية ترتكز على هذه الأحداث وأعلنت تقديمها، فسينتظرنا الثراء من دون شك. ظل العجوز، الذي ضيق عينيه ولم يرمش، ينتظر ردي وهو قريب جدًّا مني وجسده منحنٍ قليلًا في اتجاهي. عرفت أن فننا سخيف وأن أهدافنا نفعية وسوقية، لكن اللامبالاة تغدو في كثير من الأحيان السبب السري وراء أنجح المشروعات. تعهدت بكتابة العمل لهم والظهور على المسارح وتمثيل دوري، على الرغم من أساليبهم الغامضة التي تُقارب حد الإجرام، وهذا لأن الفرقة تعاملت معي بمودة وإخلاص.

الأمر ليس صعبًا. استبعدت كل أشكال الحقيقة من عباراتي ولو تسلل سهوًا جزء منها إليها، فقد دفعني العجوز ـ الذي لم تشغله دقة تجربتي بقدر انشغاله بذوق جمهوره المعروف سابقًا ـ إلى شطبه. لما باتت المسرحية جاهزة، جمع الفرقة كي أقرأها لهم بصوت مرتفع، وحين فرغت من القراءة، احتشد هذا الجمهور المُصغر، الذي استمع إليَّ وهو يرسم أذكى وأصرم تعبيراته، وقدموا

إليَّ التهنئة على الإتقان في عرض عباراتي والدقة الحسابية للحبكة. حين بدأنا التجارب، جسد العجوز دور القبطان، وابن أخيه دور بقية زملائي، وشخصت النساء دور الهمج. ادخروا لي دوري الشخصي، كأنه سمة طبيعية لكيان فارغ.

بدأنا نمثل، وبعد العروض الأولى، سبقتنا شهرتنا، حيثما ذهبنا. اكتسبنا شهرة كبيرة إلى درجة أنهم جاءوا بنا إلى البلاط، فأثنى الملك نفسه علينا. أصابني الذهول. تساءلت مرارًا وتكرارًا، وأنا أرى حماس جمهورنا: هل تنقل مسرحيتي رسالة سرية لا أدركها ويحتاجها البشر كالهواء الذي يتنفسونه، أو هل يُمثل الجمهور من دون أن ندرك دورًا خاصًّا به أثناء العروض، بينما نؤدي نحن الممثلين أدوارنا، وبالمثل هل نحن جميعًا شخصيات داخل مسرحية لا نستطيع التقاط حبكتها ووجود مسرحيتي فيها ليس سوى جزئية مبهمة؛ وهل التباس هذه الحبكة كافٍ إلى درجة تُصبح معها أكاذيبنا السوقية وتصرفاتنا عديمة المضمون، حقائق جوهرية؟ لا بد أن المعنى الحقيقي لتمثيليتنا الرخيصة موجود منذ الأزل في حبكة تطوقنا جميعًا. لو أن الأمر ليس هكذا، فالتهليل والتكريمات التي تراكمت طوال جولتنا والاحتفالات، والذهب الذي حصلنا عليه، مكافآت لا مبرر لها. لا بد أن الملوك الذين جاءوا للاحتفال بنا عرفوا أكثر مما عرفنا؛ فأي شيء آخر سوى هذا سيجعل أوامرهم لأمناء خزائنهم بمنحنا مكافآت ملموسة بعد عرضنا شيئًا سخيفًا. أبحرت، بحيادية، وسط هذا الانتصار الملتبس، أما زملائي، فلم يشُكوا في شيء. استمتعوا وهم مسرورون بالبراءة المثالية والمثمرة للحكَّاء الذي يعرض، من باب الجهل أكثر من كونه إحسانًا، المظهر السائغ للأمور أمام أخيلة مآتة تحسب أنها تتمتع بحساسية الحقيقة والإخلاص لها. بدت لهم الحياة من دون معوقات اقتصادية دليلًا لا يُدحض على وجود نظام عادل وشامل. عشنا طيلة سنوات على سوء الفهم هذا. أكثر الأمور إثارة للدهشة أن صوتًا واحدًا عاقلًا لم يرتفع لاستنكار الأمر طيلة هذه المدة. انتظرت في كل لحظة، أثناء الصخب المستمر للاحتفاء بنا، الصمت المرتاب أو المستهجن الذي قد يلفت النظر أخيرًا إلى احتيالنا إلى أن أدركت أن هذا الصمت في داخلي منذ اليوم الأول وأن وجوده المجرد بين صخب القصور والمدن غير العقلاني جعل حشودًا كاملة تتقلص إلى محض أوهام ودمى بلا حياة. تعلمت بفضل الأوعية الخاوية التي سمَّت نفسها بشرًا الضحكة المريرة والمتعالية بعض الشيء لمن يحظى بميزة الخبرة أمام من يتلاعبون بالأغلبية. أوضح لي نجاح مسرحيتنا الجوهر الحقيقي للبشر أكثر مما أوضحته بشاعات الجيوش أو سرقات التجارة الفاحشة أو التلاعب البهلواني بالأخلاقيات لتبرير كل أنواع الشرور، إذ أثبتت حماسة التهليل، الذي احتفوا عبره بعباراتي غير العقلانية، الخواء المطلق لهؤلاء البشر، ومع كل عرض لنا، راودني دائمًا إحساس بأنهم عبارة عن كومة من أثواب غير مغسولة ومحشوة بالقش أو أشكال عديمة الجوهر منتفخة بالهواء المحايد للكوكب. في بعض المرات، غيرت عمدًا مقاطعي الشخصية وقلبتها إلى أن تحولت إلى خطب جوفاء وسخيفة، آملًا أن يبدي أحد ما في النهاية رد فعل ويكشف

تدليسي، لكن هذه المناورات لم تُغير على الإطلاق من سلوك الجمهور. لقد قرر شيء ما خارجهم ـ ربما شهرتنا التي سبقتنا أو الأسطورة التي نبعت منها المسرحية ـ أن عرضنا لا بد أن يحمل معنى ما. لطالما عثر عليه الجمهور فورًا بصورة آلية وانتشى معه. بدأوا يطلبوننا أيضًا من دول أخرى في القارة، فقررنا أنا والعجوز ذات ليلة أن نحول المسرحية إلى تمثيلية إيمائية، لأن هذه الدول تتحدث لغات أخرى. اعتدنا أن يسرد أحد أبناء المكان مقدمة تشتمل على الأحداث الرئيسية قبل أن نظهر بعدئذٍ لتمثيلها. ازداد هزال المسرحية حين صارت تمثيلية إيمائية لأنها تحولت إلى هيكل نحيل وضامر لم تتدلَّ منه ولو نسيرة واحدة، مهما بدت شاحبة، من نسائر الحياة الحقيقية. منحت الموسيقى والألوان والشقلبات هذه الأشباح التي تأملت حركاتنا الاعتباطية وهمًا بأنهم يتشربون الكثافة والمعنى. تنامى نجاحنا في كل أنحاء القارة، حتى في أحلك وأبرد القصور، فسمحت لنفسي، وأنا غير مبالٍ، بالاندماج داخل هذا النسق الذي لم أفهمه.

نال الرخاء والدنيوية منا. اكتسب العجوز وابن أخيه مظهر الفرسان، وراكمت أنا الأرباح، من دون أن أعرف جيدًا ما الذي قد أفعله بها. مارست النساء البغاء، بخلاف ظهورهن فوق خشبات المسارح وهن متنكرات بالصورة التي ظننَّ أن الهمج يبدون عليها، وقضين وقت الفراغ الذي أتاحته لهن العروض في أفرشة النبلاء. لم نعد نبيت في عربات، وإنما في نُزل. لطالما استقبلونا في قلاع وأديرة. أجرى معي حكماء وموظفون عموميون مقابلات في كثير من الأحيان. تعلمت من العجوز أن أنسَب الردود التي يُمكننا أن نقدمها هي تلك المنتظرة منا أصلًا، لأنها جعلت من يتحاورون معي يعودون بعد لقاءاتنا إلى الاستقرار في أجواء قناعاتهم الشخصية الدافئة عقب تحققهم منها في الخارج. اعتدت أن أبقى وحيدًا، مع ضحكتي الصامتة والمريرة، التي اكتسبت بمرور السنوات جمود التكشيرة، من تحت لحيتي التي ازدادت بياضًا.

أنجبت إحدى النساء ـ الأخيرة في الانضمام إلينا وأصغرهن سنًّا ـ ثلاثة أبناء في ظرف خمس أو ست سنوات من معاشراتها النفعية. ما إن بدأوا السير، حتى جعلهم العجوز يتنكرون كالهمج وأجبرهم على الصعود فوق المسرح. أحزنني الأمر وتعلقت بهم. كلهم أبناء لآباء كثيرين، ما يعني أنه لا أب لهم، كحالي. إنهم ولدان وفتاة. اعتاد العجوز، الذي شارك هو وابن أخيه في معاشرة أمهم، أن ينظر إليهم بين الحين والآخر، وأن يهز رأسه بشفقة، مُلمحًا إلى حياتها. أما أنا، فعلمتهم القراءة والكتابة في أوقات الفراغ. ازداد تعلقهم بي في ظل سهولة انقيادهم وتيههم عبر هذا العالم. ذات ليلة، رحلت الأم مع رجل بعد أحد العروض ولم تعد. مزقها عاشق غيور بطعناته وألقاها على جانب الطريق. غسل الماء الدماء، لأنها أمطرت طوال الفجر، بصورة جعلت الجروح الموجودة في لحمها، الذي ابيض وتورم بسبب العنف والمطر، تبدو كندبات قديمة أظهرها الموت أخيرًا.

ذات يوم، قررت بعد أحد العروض وأنا مشمئز النفس من كل هذا الرياء أن أترك الفرقة. قراري لم يكن بمنأى عن قلقي على الأطفال. في البداية، لم يود العجوز ـ الذي صار مستاء هو الآخر

وأقرب إلى الموت مني ـ أن يسمع شيئًا عن الأمر، مقتنعًا بأن غيابي سيعني تراجع نجاح العروض. لم يُخطئ كثيرًا. لقد أكسب وضعي كناجٍ حقيقي العرض قوة إقناع أكبر. لا شك في هذا. لكن معارضة رغباتي أحزنت العجوز أيضًا لأنه علم أن أعماله بدأت تسير جيدًا بسببي، ولأنه أضمر لي نوعًا معينًا من الاحترام الذي امتزج ربما بقليل من التعاطف بعد رؤيتي صامتًا ومنعزلًا وغير مبالٍ بالأرباح والخسائر طيلة سنوات كثيرة. آلمتني أنا الآخر قليلًا مسألة تركه، لأنني نفعته ولأن هؤلاء الممثلين، على أي حال، أخرجوني بالمصادفة من بئر عميقة حتى سطح الاستسلام المحايد الذي لا يُؤلم. رفض العجوز أيضًا أن آخذ الأطفال معي، مُدعيًا أنهم ممثلون في طاقم عمله، لكنه علم أنني لن أتراجع ولم يُصر كثيرًا على رأيه. تناقشنا طيلة ساعات ونحن نحاول العثور على حل، حتى خلصنا إلى أن ابن أخيه ـ الذي كان في مثل عمري ـ يُمكنه أن يمثل دوري بل أن ينتحل هويتي، على أن أتعهد بتغيير اسمي وعدم كتابة أعمال مسرحية أخرى تحكي مغامرتي. توصلنا إلى هذا الاتفاق من دون صعوبة. كنا، آنذاك، في الشمال المظلم والضبابي، وذات صباح ونحن على طريق رطب مفتوح بين هضبتين من الجليد الأزرق الرتيب الذي يرتفع معه إحساس الغياب وانعدام المادية، دثرت الأطفال بالجلود وودعت العجوز وبقية الممثلين وبدأت سفري الذي استمر شهورًا نحو الجنوب، من دون أن أتوقف، حتى وصلت إلى هذه المدينة البيضاء التي تطهوها أشعة الشمس بين أشجار الكرمة والزيتون.

استقررنا في هذه المدينة، في البيت الأبيض نفسه الذي أكتب فيه الآن. كنت قد جمعت بعض الثروة وأعطاني العجوز قبل انفصالنا حصة من مدخرات المرأة المطعونة. خلَّف الأب كيسادا داخلي استطابة الكتب التي غمرت بموسيقاها الصامتة اشمئزاز الأيام التي لا تنتهي. رأيت في بلاد الشمال كيف يطبعونها، وخطر لي أنني قد أفعل المثل، ومرد الأمر ليس إلى زيادة ثروتي بقدر رغبتي في تعليم من صاروا مثل أبنائي صنعة تسمح لهم بالتعامل مع شيء أوقع من الأوضاع التمثيلية والمظاهر. لم تمضِ الأمور معنا بشكل سيئ. بدا العمل في المطبعة بالنسبة إلى الأطفال كاللعب، ومع تقدمهم في السن، ازدادت أوقات فراغي. ربما نحن قوم بلا سعادة، لكن لدينا فائض من الرزانة والإخلاص. لديَّ الآن أحفاد وأبناء أحفاد. تُزين ضوضاؤهم المطبعة بين الحين والآخر، وتصل أصداؤها خلال النهار إلى غرفتي أحيانًا. باتت حياتي مقتصرة خلال السنوات الأخيرة، على حفلة عائلية هنا وأخرى هناك، أو تمشية مع الغروب يتزايد قصر مدتها بمرور الوقت، أو القراءة. أجلس ليلًا بعد العشاء على ضوء شمعة، والنافذة مفتوحة على الظلام الهادئ الممتلئ بالنجوم، لأتذكر وأكتب. يُرسل ليل الصيف إلى غرفتي، بعد أن تهدأ ضوضاء الشوارع وبعد أن يستقر الصمت في المدينة، روائح السماء وزهر العسل التي تُطهرني من صخب السنين التي عشتها. لا تُمطر بقوة إلا نادرًا، وحتى القطرات الأولى التي تصل بعد أيام كثيرة من الحر، تجف فورًا لدى اصطدامها بكلس الجدران الجافة، فينبثق منها صرير خافت وسريع وغيمة صغيرة

شفافة. يجعلني اعتيادي العراء أطيق الشتاء، وهو هنا قصير ومعتدل الحرارة جدًّا. من وراء الزجاج، تبدو الأشجار كزركشة سوداء لامعة ممتلئة بالعُقَد أمام السماء الزرقاء، وفي كل ليلة تصعد في العاشرة والنصف واحدة من زوجات أبنائي إليَّ بالعشاء الدائم نفسه: خبز، وطبق من الزيتون، وكأس من النبيذ.

إنها لحظة فريدة، على الرغم من تكرارها كل ليلة في الموعد نفسه، بل إن تكرارها الدوري كحركة الكويكبات هو الأبهى والأطيب بين كل سماتها. تخلو غرفتي من كل شيء تقريبًا باستثناء جدار جانبي ممتلئ بالكتب. تبرز الطاولة، والمقعد والفراش، والشمعدانات الداكنة التي تستقر فوقها الشموع بين الجدران البيضاء. يعكس الطبق الأبيض الذي يتمازج فيه الزيتون الأخضر والأسود بلمعانه الخافت بعد إخراجه توًّا من العبوة التي ظل محفوظًا داخلها في المطبخ، والكوب الطويل الذي تتصاعد رائحة برية حادة من النبيذ العسلي الخفيف الذي يحتويه، في مرات كثيرة وبأشكال مختلفة، ضوء شعلات الشموع التي تبدو وسط الهواء الهادئ كأنها تسترد مرة أخرى علوها وثباتها. في كل مرة يظهر رغيف الخبز الضخم بحجمه وسمكه الذي لا يدحض ويستقر كمعجزة متواضعة فوق طبق آخر إلى جوار النبيذ والزيتون، تمنحه عودته هالة من الأبدية. أترك ريشة الكتابة وأبدأ في رفع الزيتون إلى فمي ببطء، زيتونة تلو الأخرى، وبعد أن أبصق البذور في جوف يدي، أضعها بعناية عند حافة الطبق. لا تزال فاترة بعد خروجها من فمي، بفضل حرارة جسدي الداخلية. أتناول الزيتون الأخضر والأسود بالتبادل بحكم العادة البحتة، ولهذا يأتي إليَّ الطعمان غالبًا وكل منهما فوق الآخر في صورة خطوط خضراء وسوداء تمضي بالتوازي من فمي إلى ذاكرتي. تمنحني رشفة النبيذ الأولى المتطابقة مع الليلة الفائتة وكل الليالي التي سبقتها، الآن وعبر ثباتها، يقيني الأول. يأتي هذا اليقين ضمن حقائق قليلة مؤكدة، وهو شديد الهشاشة ولا يتمتع ـ عبر كيانه وحده ـ بقيمة الدليل. في الحقيقة، أكثر من كونه يقينًا، فهو مؤشر على شيء مستحيل لكنه حقيقي؛ على وجود نظام داخلي خاص بالعالم وقريب جدًّا من تجربتنا التي يعد فيها الإحساس بالسرمدية مجرد سمة دنيوية ومتواضعة، حتى ولو كانت سمة عليا عند آخرين؛ الحُلي الذي لا قيمة له ويُوضع في متناولنا كي تتمكن حواسنا المسكينة من إدراكه. إنها لحظة مستنيرة تمر سريعًا كل ليلة، في ساعة العشاء، وتتركني بعدئذٍ وأنا شبه ناعس لبضع لحظات. لا جدوى منها أيضًا، فهي لا تُساعد خلال الأيام الرتيبة في مواجهة الليل الذي يحكمها ويقتادنا، من دون سبب واضح، نحو المسلخ. مع ذلك، فإن هذه اللحظات هي التي تدعم، في كل ليلة، اليد التي تقبض على ريشة الكتابة وتجعلها ترسم باسم من سبق أن ضاعوا فعلًا، هذه العلامات الملتبسة التي تبحث عن ديمومتها.

علمت تدريجيًّا أنه لم يبقَ منهم أثر. سبق أن أدركت فعلًا، حين مضت السفينة في طريقها عبر البحر وتلك الجثث ترافقها، أنهم لم يتمكنوا من حماية أنفسهم حين بدأت تلك العاصفة الجديدة

تضربهم من الخارج. ليسوا ـ وهو أمر يجب الاعتراف به ـ قومًا يحاربون من أجل حبهم للحرب. لم يشغلوا بالهم بالحرب، باستثناء حملاتهم السنوية التي عادوا فيها مع فرائسهم بكل دقة وإجادة. لم يحدث قَطُّ أن وقفوا وراء الحرب إلا في حالة الهجمات التي تعرضوا لها أحيانًا من جيرانهم الراغبين في الثأر للضحايا الذين اختطفوهم من أجل حفلاتهم. كانت هذه الحملات صيدًا، أكثر من كونها حربًا. الهنود صيادون أكثر من كونهم محاربين، لأن سبب حملاتهم هو الاحتياج وليس اشتهاء الدم الذي تنبع منه كل الحروب. لقد أشفقوا فعلًا على القبائل المحاربة وبدوا كأنهم يعدون النزوع إلى الحرب نوعًا من المرض. بدوا كأنهم يتصورون الحرب إهدارًا غير ضروري للنفقات وعادة سيئة يمارسها أطفال غير عقلانيين. ليس طابعها الدموي ما أزعجهم: ما استحث استهجانهم لها هو التبذير والاضطرابات التي تجرها وراءها. كلما تعرضوا لغارات، لم يبكوا على جرحاهم وموتاهم، بقدر أسفهم على الفوضى الناجمة منها والمساكن المحروقة والآنية المكسورة والأدوات المفقودة والقذارة. دافعوا عن أنفسهم جيدًا؛ بسهولة تقريبًا، ومردُّ الأمر غالبًا أن الحملات ضدهم لم تكن شائعة. لا بد أن القبائل الموجودة حولهم خافت منهم أو احترمتهم كثيرًا، فعلى مدى سنوات كثيرة، لم تُشن ضدهم أكثر من ثلاث أو أربع حملات، منها اثنتان فقط ضد النجع، فيما ارتبطت البقية بهجمات خاطفة على الرجال الذين يتوجهون إلى الصيد. بوجه عام، لطالما انتهت الأمور بصورة سيئة بالنسبة إلى المعتدين، لأن سرعة الهنود الفظيعة أربكتهم وفاجأتهم، بصورة سرَّعت إما من هروبهم وإما من هزيمتهم وإما من موتهم. اليوم يبدو لي أمرًا كوميديًّا رؤيتي السابقة لهم وهم يتذمرون في وسط المعركة بإيماءات احتجاج عريضة أمام طنجرة مقلوبة ومكسورة أو سقف مشتعل، أو وهم يوبخون أعداءهم بصراخهم وحركاتهم وسط الأسهم المسمومة المثنية التي اخترقت الهواء الشفاف. لم يغضبوا من اختراق أحد هذه الأسهم لحنجرة فرد في العائلة بقدر غضبهم من هذه الأضرار، لأنهم بمجرد انتهاء المعارك، اهتموا فعلًا بمقتنياتهم أكثر من جرحاهم. أعطوا انطباعًا كريهًا بأنهم سلميون فقط بسبب بخلهم. تخلصوا من سجناء وجرحى الطرف المعادي سريعًا، من دون قسوة، لكن في الوقت ذاته من دون تعاطف مصطنع، بعد تجريدهم من أسلحتهم وزينتهم. أحيانًا قطعوا رؤوسهم أو مزقوا أوصالهم وألقوا بالقطع في النهر. تعلقت المهمة الرئيسية بعد المعارك بتنظيم وتنظيف كل شيء، فكنسوا وغسلوا وأصلحوا الطناجر والمساكن إلى درجة لن يقول معها أحد في اليوم التالي إن الموت والنار والفوضى قد اجتاحت النجع قبلئذٍ بساعات.

ربما هذا الإفراط في التدقيق ما جعلهم يخسرون. ليس مستبعدًا أنهم بدأوا يفكرون في حال مساكنهم وممتلكاتهم المنسية، بعد أن تراجعوا نحو الداخل قبل وصول الجنود، ولهذا عادوا إلى إنقاذها وحمايتها، بعد أن وضعوا المخاطرة بالموت في المقام الثاني بعد خطر إهدار الموارد والفوضى. في كل الأحوال، لم يعنِ الموت شيئًا بالنسبة إلى هؤلاء الهنود. تساوت الحياة مع

الموت. تعايش البشر والأشياء والحيوانات والأحياء والأموات في البُعد نفسه. رغبوا بالطبع، كأي شخص آخر، في أن يبقوا على قيد الحياة، لكن الموت بالنسبة إليهم لم يكن أفظع من أخطار أخرى أصابتهم بجنون الذعر. لم يُرعبهم الموت، ما دام حقيقيًّا. بهذه الصورة، يمكنني أن أتخيلهم جيدًا وهم يعودون كي يجلبوا ممتلكاتهم من بين نيران الجنود، بل أنا متأكد من أن الأجساد المزرقة التي طفت بعدئذٍ بأيام مع التيار لترافق السفن لم ترحل عن هذه الحياة بخوف أو حزن. لم تُرعبهم الكينونة المحتملة للعالم الآخر، وإنما الكينونة المحتملة لهذا العالم. شكَّل العالم الآخر جزءًا من هذا العالم، وصار كلاهما الشيء نفسه. لو أن هذا العالم حقيقي، فالآخر أيضًا كذلك. كفاهم أن يكون أي شيء ما هو عليه، كي تكتسب بهذه الطريقة كل الأشياء الأخرى ـ سواء كانت مرئية أم غير مرئية ـ واقعيتها.

بعد أن رجعت من هذه الأراضي، شعرت طيلة سنوات، كلما وجدت نفسي قريبًا من الموانئ، بغواية استجواب البحارة العائدين من رحلاتهم، لمحاولة استنتاج أي تفاصيل من حكاياتهم الملتبسة قد تقدم لي مؤشرات على مصير القبيلة. لكن البحارة اعتبروا كل الهنود سواسية، إذ لم يتمكنوا من التفريق بين القبائل والأماكن والأسماء مثلي. لم يعرفوا أن قبائل كثيرة تجاورت في السكن في محيط فراسخ قليلة، وأن كل واحدة منها ليست مجرد مجموعة بشرية بسيطة أو امتدادًا عدديًّا لمجموعة ما مجاورة، وإنما عالم مستقل له قوانينه الداخلية الخاصة، وأن كل قبيلة لها لغتها الخاصة، وعاداتها، ومعتقداتها وتعيش في بُعد لا يمكن أن يخترقه الغرباء. لا ينطبق الاختلاف على البشر فقط، وإنما على الحيز، والزمن، والماء والنباتات والشمس والقمر والنجوم. عاشت كل قبيلة في عالمها المتميز اللانهائي الفريد الذي لم يتماسَّ أصلًا مع عالم القبائل المجاورة. لقد تعلمت تدريجيًّا وأنا بين الهنود التمييز بين القبائل التي تسكن هذه الأرض اللانهائية، وعلى الرغم من اقتناع الهنود بأنه توجد احتمالية لأن يكون الآخرون حقيقيين، فقد استأثروا بهذه الاحتمالية لأنفسهم فقط، فأصبح كل ما هو موجود خارج أفقهم ـ أي القبائل الأخرى ـ مجرد صهارة لزجة غامضة، ومع ذلك، عدُّوها قابلة للتصنيف وذات مظهر وجودي. بدت لهم طرق حياة الآخرين سخيفة وغير مجدية، لكنهم عرفوها بالتفاصيل، وعرفوا أيضًا أن هذه الأخيلة عديمة الكيان التي تحدثوا عنها باستهزاء وسخرية، تتجمع في قبائل منظمة منتشرة على امتداد الفراسخ الكثيرة التي تحيط بهم. تسببت خصائصهم دائمًا في إضحاكهم: سواء كانوا رحالة أم مستقرين؛ أكلوا لحم البشر أم امتنعوا عنه تمامًا؛ ساروا عراة أم بملابس؛ وضعوا زينة على شفاههم أم وضعوها حول رقابهم أم في أنوفهم؛ عاشوا في خيام من الجلد أم مدن من الحجر؛ دخنوا أعشابًا معينة أم راكموا الذهب والأحجار الكريمة؛ تنقلوا سيرًا على الأقدام أم في زوارق؛ عبدوا النباتات أم الأماكن أم أسلافهم، تناقص طولهم كلما زاد بعدهم عن شمال القبيلة أم ازداد كلما تقدموا جنوبًا، وسواء كانوا سلميين أم من دعاة الحرب. بدت كل الأمور للهنود حمقاء وغير مجدية وسخيفة على حد سواء. كانوا قلب

العالم، أما البقية فمجرد أمور ملتبسة وغير متبلورة موجودة في محيطهم. لو علموا أن البحارة عجزوا عن تمييزهم، لأصبح هذا الأمر سببًا إضافيًّا لابتهاجهم.

لم يعرف البحارة شيئًا لإحقاق الحق، ولم تُخلِّف هذه المحادثات لي إلا يقينًا واحدًا وهو أن إحدى روائح الموت صارت تطفو في هذه الأراضي منذ بدأ البحارة والجنود ينزلونها، فاختلطت في البداية على كثيرين وظنوها رائحة الفردوس. تدريجيًّا، صارت لديَّ قناعة بأنه لم يبقَ شيء من الهنود. لا بد وأن المعركة الأولى مع الجنود قد أهلكت القسم الأكبر منهم، فجاءت المعارك التالية وخسفت بقوتهم الأرض. يشق عليَّ تصور الناجين وهم متفرقون أو مأسورون في أي مكان آخر غير الشاطئ الأصفر الذي اكتست أرضه بالخطوط من ذهاب وإياب أجسادهم العارية بسرعة مبالغ فيها. هذا المكان، هو مركز العالم، الذي حملوه داخلهم، وبداية منه يصبح قوام الأفق المرئي حلقات من الواقع المعضل الذي يصير وجوده مُستصعبًا أكثر فأكثر كلما ابتعدوا عن نقطة مراقبته. لقد تحققت بنفسي من حيرتهم الكبيرة وهم يبتعدون عن هذا المكان كلما أجبرهم الفيضان، وكيف حاولوا بكل السُّبل تقصير المسافة بين مكان النجع التقليدي والمكان الذي انتقلوا إليه، وكيف عادوا إلى الاستقرار عند الساحل بمجرد انخفاض منسوب المياه. بدا الأمر كأنهم يعودون لا إلى بيتهم نفسه، وإنما إلى مجرى الحياة. كان هذا المكان، بالنسبة إليهم، هو بيت العالم. لو أن شيئًا قُدر له الوجود، فليس ممكنًا أن يوجد خارجه. في الواقع، يُعد تأكيد أن هذا المكان بيت العالم خطأً من طرفي، لأن هذا المكان والعالم بالنسبة إليهم هو الشيء نفسه، وحيثما ذهبوا، حملوه داخلهم. إنهم هذا المكان، إذ وُلدوا وماتوا وزرعوا وعملوا فيه، وحين خرجوا إلى الصيد بحرًا أو برًّا، جلبوا إليه غنيمتهم. بدت حملاتهم كامتداد مطاطي للمكان الذي عاشوا فيه. الأمر كأن هذا المكان ارتحل معهم في كل تنقلاتهم، لأنهم حملوه داخلهم. في الوقت ذاته، اضطلعوا بأنفسهم ببث الواقع في الأماكن الأخرى التي زاروها، إذ أكسبوا بكيانهم المجرد واقعًا ماديًّا للأفق الغامض عديم الشكل. إنهم النواة الصامدة للعالم التي طوقها عجين لدِن اكتسب أحيانًا ـ بفضل تنقلاتهم ـ لحظات منعزلة سريعة الزوال من الحياة الصلبة. لطالما عادوا إليه سريعًا لأن قسوة الغياب استنزفت على الفور اليقين القليل الذي قدمه لهم مكانهم الاعتيادي. لم يشعروا وهم في الخارج أنهم في مكان آمن.

لم يختلف الأمر في الداخل. لطالما عاقبتهم المعايير الشاقة للعراء وهم في وطنهم. صحيح أنهم والعالم شيء واحد، لكن هذا الكيان الواحد الذي شكلوه، أصابه الوهن بسبب الارتياب المشترك بدلًا من تأكيد نفسه عبر الوجود المتبادل. مسألة أن عالمهم هو الوحيد الممكن أو الأفضل بين كل العوالم لا تعني أنه الأوقع، وعلى الرغم من أنهم سلَّموا بعدم وجود العوالم الأخرى، فإن وجودهم نفسه لم يكن أمرًا مؤكدًا. لقد عدُّوا، على أي حال، السمة المميزة لكل الأشياء هي وقتيتها. ليس فقط بسبب صعوبة استمرارها في العالم حتى تلفها أو مماتها، وإنما بالأصح ـ أو ربما بالأخص ـ بسبب صعوبة الوصول إلى هذا العالم. إن حضور الأشياء المحض لم يضمن وجودها. على سبيل المثال،

الشجرة، كونها شجرة، لم تكفِ بنفسها لإثبات وجودها، إذ افتقرت دائمًا إلى شيء من الواقعية. يبدو وجودها نابعًا من شيء يشبه المعجزة لأن الهنود تنازلوا بتساهل أبيٍّ وسمحوا لها به. منحوا لها وجودها مقابل فائدة نفعية معينة، أي الفاكهة والحطب والظل، لكنهم علموا في قرارة أنفسهم أن الحقيقة الفعلية لهذه المبادلة مُعضِلة: الشجرة موجودة هناك، وهُم هذه الشجرة. من دونهم، لا وجود لها، لكنهم أيضًا والعدم سواء، من دونها. اعتمد كل منهما على الآخر بصورة جعلت الثقة مستحيلة. عجز الهنود عن الثقة في وجود الشجرة لأنهم عرفوا أنها تعتمد عليهم، لكنهم في الوقت نفسه لم يتمكنوا من الشعور بوجودهم الكامل لأنها ساهمت بحضورها في وجودهم، وبالمثل لأنهم أدركوا أن وجودهم سيغدو إشكاليًّا إن جاء منها، لأن الشجرة ستبدو كأن لها وجودًا شخصيًّا غير الذي سمحوا لها به. لم تنبع المشكلة من نقص في الضمانات، وإنما من الإفراط فيها. كذلك، استحال الخروج من هذه الحلقة المفرغة ورؤية الأمور من الخارج ومحاولة اكتشاف أساس هذه المزاعم بحيادية.

العالم الخارجي هو مشكلتهم الحقيقية. لم يتمكنوا من تحقيق رغبتهم بالنظر إلى أنفسهم من الخارج، أما أنا الذي وصلت من الأفق الضبابي، فترتبط أول ذكرى لديَّ عنهم أصلًا بعالمهم الخارجي، ورؤيتهم يجتازون الشاطئ بين بؤر النيران التي اشتعلت مع حلول المساء، بأجسادهم المتينة واللامعة. بدا الأمر كأن يتذوق المرء للمرة الأولى طعم الرسوخ. بدوا من الخارج كأنهم في مأمن من الشك والضعف. منحوني في البداية انطباعًا بأنهم المقياس الدقيق الذي يُحدد مكان كل شيء بين الأرض والسماء. قد يفكر المرء بعفوية حين يراهم وهم يُحكِمون سيطرتهم بسرعة وفاعلية على غلاظة العالم، بعد انتهاء حفلاتهم المرعبة، في أن هذا العالم قد خُلق من أجلهم، وأن الهنود لا ينشز إيقاعهم أبدًا، حتى وإن مروا بلحظات ارتباك. تأملتهم في بعض المرات لأوقات طويلة، وأنا أحاول أن أستنتج الكيفية التي يختبرون بها من الداخل حركاتهم في منتصف النهار داخل الأفق المادي الذي يُحيط بهم، وهل اجتاح أي تشكك هذه الأيادي أثناء ملامستها للهواء المضطرم، وهي تقبض على العظام والخشب والسمك وتقولب الطمي الضارب للحمرة وتمنحه الشكل الذي حلموا به. لكن إيماءاتهم كانت خرساء ولم تشِف عن أي علامة. بدوا مثل الحيوانات التي تتعايش مع أفعالها، بصورة ربما يُقال معها إن معنى هذه الأفعال استُنفد في لحظة تنفيذها. بدا لهم الحضور المحدد والمفتوح لأي يوم عويص من دون بداية أو نهاية بمثابة الجوهر الذي تحركوا عبره كجسد كامل. أعطوا انطباعًا يُحسدون عليه بأنهم موجودون في هذا العالم أكثر من أي شيء آخر. أثبت غياب بهجتهم وتجهمهم أن هذا التنظيم العمومي جعل السعادة والمتعة لا لزوم لهما بالنسبة إليهم. حسبت أنهم قادرون على الاستغناء عن السعادة في ظل امتنانهم من توافق الجانب المتاح من العالم مع كيانهم المادي وشهواتهم. مع ذلك، تفهمت ببطء أن المسألة تتعلق أكثر بنقيض هذا الأمر: على الرغم من أن هذا العالم بدا لهم شديد الصلابة، اضطروا إلى تحديثه في كل لحظة

لكيلا يتلاشى كخيط دخان وسط الغروب.

تحققت من هذا الأمر وأنا أتوغل في اللغة التي يتحدثونها كمن يتوغل في مستنقع. إنها لغة متقلبة، ومتناقضة، وليس لها شكل واضح. كلما تحققت من أنني فهمت معنى كلمة، أدركت لاحقًا أن الكلمة نفسها تعني أيضًا نقيضها، وبعد تعرفي إلى هذين المعنيين، اتضحت لي معانٍ أخرى، من دون أن أفهم جيدًا لِمَ يُخَصص اللفظ نفسه لأشياء متباينة بهذه الصورة. على سبيل المثال، معنى لفظ «إن-جي»: البشر، والناس، ونحن، وأنا، ويأكل، وهنا، وينظر، وفي الداخل، وواحد، ويستيقظ وأشياء أخرى كثيرة. استخدموا كلمة «نيجه» لتوديع بعضهم، على الرغم من أنها تُشير أيضًا إلى الاستمرار، وهي مسألة سخيفة إذا ما وضع في الحسبان أنه حينما يودع رجلان بعضهما، فمعنى هذا أن تبادل العبارات بينهما قد انتهى. تعني «نيجه» أيضًا شيئًا مثل «وحينئذٍ»، كأن يقول المرء مثلًا: «وحينئذٍ، حدث هذا الشيء». ذات مرة، سمعت أحد الهنود يضحك لأن أبناء إحدى الأمم المجاورة يبكون في الولادات ويقيمون حفلات ضخمة حين يموت أحدهم، فقلت له إنهم حين يودعون بعضهم يقولون: «نيجه»، فنظر إليَّ لوقت طويل وهو يضيق عينيه بطابع شابه الارتياب والازدراء، ثم ابتعد من دون وداع. لا توجد كلمة في هذه اللغة مساوية لـ«يكون». أقربها تعني «يبدو»، ولأنهم أيضًا ليس لديهم أدوات تنكير، فلو ودوا أن يقولوا: «توجد شجرة» أو «الشجرة شجرة»، يقولون: «تبدو شجرة». لكن معنى الشك في «تبدو» أكثر من الشبه. إنه لفظ سلبي أكثر من كونه إيجابيًّا. يعني ضمنيًّا الاعتراض أكثر من المقارنة. ليس الأمر أنه يبث صورة معروفة بالفعل، وإنما يميل بالأصح لإفناء التصور وإسقاط طابعه الحاسم. الكلمة ذاتها التي تُستخدم للإشارة إلى المظهر، تشير إلى العالم الخارجي، والكذب، والشفق، والعدو. إن الأفق الدائري، الذي بدا لي في البداية، أمرًا متينًا ومفروغًا منه، كان في الواقع مخزنًا للخدع وآلة للألاعيب. في هذه اللغة، أملس وخشن لهما كلمة واحدة. أيضًا توجد كلمة واحدة، بمتغيرات في نطقها، لتسمية الحاضر والغائب. كل شيء يبدو ولا يكون بالنسبة إلى الهنود، وفضاء اللاوجود هو حيث يتموضع مظهر الأشياء على وجه الخصوص. الشاطئ المفتوح، والنهار الشفاف، وخضرة الأشجار المنعشة في الربيع، وثعالب الماء ذات الجلد الفاتر والخافق، والرمال الصفراء، والأسماك ذات الحراشف الذهبية، والقمر، والشمس، والهواء، والنجوم، والأدوات التي انتزعوها من المواد الخام العنيدة بصبر ومهارة، وكل هذه الأمور التي تتجلى واضحة أمام الحواس بدت لهم، في وجهها الآخر الذي يتراكم الظلام أمامه، مشوهة وملتبسة ودبقة.

تقدم الهنود بصعوبة في هذا الوسط عديم القوام، وشعروا في كل لحظة بتهديد الفناء. حرمهم العالم الخارجي بوجوده المشكوك فيه من الواقع، وعلى الرغم من طابع هذا العالم المؤقت، كان حقيقيًّا أكثر منهم، فصارت نقيصتهم الشك الذي لم يتيقنوا منه في العالم الخارجي.

كان الكون شيئًا مشكوكًا فيه وعدُّوا أنفسهم شيئًا أيقن منه قليلًا، ولأنهم جهلوا ما يحسبه الكون

عن نفسه قلل ذلك الشك الإضافي من سلطته. آلمتهم كل هذه الخيالات أكثر مما هو مكتوب عليهم لأنهم جهلوها، على الرغم من أنهم عاشوها بشحمهم ولحمهم. عاشوها في كل تصرف نفذوه، وفي كل كلمة نطقوها، وفي إنشاءاتهم المادية وفي أحلامهم. ودوا أن يُرسخوا وجود العالم الملتبس والمتغير بكل السبل الممكنة. على سبيل المثال، كان إهدار سهم بالنسبة إليهم كانتزاع جزء من الواقع. لطالما أصلحوا وكنسوا ونظفوا كل شيء، وكلما دفعهم الفيضان إلى التقهقر داخل الأرض، عادوا ليستقروا في المكان نفسه، بمجرد انخفاض مستوى المياه. لا بد من الحفاظ على العالم الوحيد المعروف بأي ثمن، مهما كان مرهونًا بالظروف. لو أن ثمة فرصة للوجود أو الاستمرارية، فلا يُمكن أن تتحقق إلا هناك. هذا هو ما وجب عليهم فعله، مهما بدا الأمر ملتبسًا. لقد حدَّثوا عالمهم الوحيد الممكن في كل لحظة، حتى وإن لم يستحق الأمر العناء. لم توجد خيارات كثيرة، مهما اختلفت السبل. إما هذا العالم وإما العدم.

اعتنوا بهذا العالم وحموه، وحاولوا أن يرفعوا من واقعيته أو بالأصح أن يُحافظوا عليها. لو قوَّض العراء أو النيران إنشاءاتهم؛ لو أتلف الماء زوارقهم، لو استُهلكت أو انكسرت أغراضهم من الاستخدام؛ فهذا لأن وجهه الآخر المخاتل المصنوع من العدم والسواد، الذي يُعد الحقيقة الأخيرة للأمور، قد ترك حدوده الطبيعية وبدأ ينخر العالم المرئي. حينما لم يخرجوا إلى الصيد برًّا أو بحرًا قضوا وقتهم في تنفيذ الإصلاحات، لأن النساء انشغلن بالأعمال المنزلية. مضوا بسرعتهم المعتادة من عمل إلى آخر، وكلما لم يجدوا شيئًا لإصلاحه ـ وهي مسألة نادرة جدًّا ـ اعتادوا أن يصنعوا تحت ذريعة الاحتياج المادي أشياء منحتهم بصورة غير مقنعة وهم السيطرة على ما تستعصي السيطرة عليه. نادرًا ما ارتاحوا، لأن معنى الراحة بالنسبة إليهم خسارة الأرض والتنازل عنها لصالح الطابع اللزج الذي أزعجهم. بدا عليهم أحيانًا، في نهاية الشتاء، أنهم أهدأ. ليس لأنهم اكتسبوا الأمل، بقدر ما تعلق الأمر من دون شك بأن ظُلمتهم قد لانت. وجب الإبقاء على الكمال والتطابق الذاتي للأرض التي سكنوها وبدت كأنها تكتسب طابعها المادي بسبب وجودهم. لكل تغير، تعويض، ولكل خسارة، بديل. وجب أن يصبح الإجمالي واحدًا في الكيف والكم في كل الأوقات. لهذا كلما مات أحدهم، انتظروا بقلق المولود المقبل. لا بد أن تعوض كل مأساة بترضية، وإذا ما حدث العكس، وجرى شيء مبهج لهم، لم يهدأوا إلا مع وقوع شر مقبول يُعيد الوضع إلى حالته الأصلية. ذات مرة، شرح لي أحد الهنود الأمر، وظني أنه قال لي إن هذا العالم قوامه الخير والشر، الموت والحياة. يوجد عجائز وشباب، رجال ونساء، شتاء وصيف، ماء وأرض، سماء وأشجار. لا بد أن تكون كل هذه الأمور موجودة على الدوام. لو غاب شيء واحد منها ذات مرة، فسينهار كل شيء. لست واثقًا من أن هذا هو ما قاله الهندي تحديدًا، لأن هذا حدث في السنوات الأولى، ولأن الكلمات بالنسبة إليهم عنَتْ أشياء كثيرة في الوقت نفسه؛ فكل ما أحسب أنني أعرفه عنهم منبعه مؤشرات ملتبسة، وذكريات مشكوك فيها، وتأويلات، ولهذا فإن روايتي عنهم هي

الأخرى يُمكن أن تعني بشكل ما أشياء كثيرة في الوقت ذاته، من دون أن تصبح أي من هذه الأشياء دقيقة، لأن منبعها ليس شديد الوضوح. لو أنني فهمت الأمر جيدًا، فإن هذا العالم بالنسبة إلى الهنود، بناء غير مستقر ويتطلب ألا ينقصه أي حجر كي يظل واقفًا. يجب أن تصبح كل الأمور موجودة في الوقت ذاته وبكل حالاتها الممكنة. حينما تقدم الجنود بأسلحتهم النارية عبر النهر الكبير، لم يجلبوا الموت وإنما شيئًا لا اسم له، وانغمر المكان الوحيد الراسخ بفيضان السواد. ما إن تفرق الهنود، حتى لم يعد بإمكانهم الوجود في الجانب الواضح من العالم. لا أظن أن كثيرًا منهم هربوا أو أنهم نووا الأمر أصلًا. بالنسبة إلى من تمكنوا من العيش، بمفردهم، في داخل الأراضي، فهؤلاء أصبحوا على الأرجح بدون عالم.

مع ذلك، ففي وقت سقوطهم نفسه، جر الهنود معهم من أبادوهم. لقد اختفى العالم الخارجي معهم، لأنهم دعامته ومع فناء من يحملونه، بات منبوذًا في اللاوجود. لن يتمكن الجنود الذين قتلوا الهنود أبدًا من فهم أنهم أيضًا رحلوا عن هذا العالم في وقت رحيل ضحاياهم نفسه. يُمكن قول إن الكون كله بات منجرفًا وسط العدم، منذ إبادتهم. لو أن هناك أساسًا لوجود هذا الكون قليل الرسوخ، فإنهم هؤلاء الهنود تحديدًا، لأنهم أكثر شيء تشابه مع اليقين وسط كل هذا اللايقين. تسميتهم بالهمج دليل على الجهل. لا يُمكن تسمية من يتحملون مثل هذه المسؤولية بالهمج. على الرغم من هشاشة الضوء الصغير الخافت الموجود داخلهم، الذي تمكنوا من إبقائه مشتعلًا بمشقة، فإنه قد أنار بانعكاساته المتغيرة هذه الحلقة المبهمة والمظلمة التي كان عليها العالم الخارجي الذي بدأ من أجسادهم نفسها. لم تأوِهم السماء الشاسعة، وإنما اعتمدت عليهم كي تتمكن من أن تبسط فوق هذه الأرض العارية رسوخها المُزين بالحُلي.

أتساءل منذ سنوات، ليلة تلو الأخرى، بينما تتيه عيناي في الجدار الأبيض الذي تتراقص فوقه انعكاسات الشمعة، كيف لهؤلاء الهنود في ظل القرب الذي كانوا عليه من الإذعان الحيواني، كحالنا جميعًا، أن يتيهوا في هذا الإنكار الاعتباطي لشيء يبدو دامغًا من النظرة الأولى. بين أمور كثيرة غريبة: بين الشمس المنتظمة، والنجوم العديدة والدقيقة، والأشجار التي تستعيد بعناد رونقها الأخضر حين يأتي موسمها الغامض، والنهر الذي يفيض وينحسر، والرمال الصفراء المتلألئة وهواء الصيف البراق، والجسد الذي يُولد ويتغير ويموت مختلجًا، والمسافة والأيام - هذين اللغزين اللذين يظنهما أي امرئ في سنوات براءته متآلفين - ليس من الصعب في ظل تجلي ما لا يُمكن تفسيره بين كل هذه الكيانات التي يبدو أنها تجهل وجودنا، أن يستقر داخلنا ذات يوم شعور - ليس لطيفًا بالمناسبة - بأننا نجتاز مسرحًا للأوهام؛ وهو شعور مشابه لذلك الذي داهمني أحيانًا وأنا على خشبة المسرح حين رأيتني أنا وزملائي نكرر، وسط ستائره الملونة وأمام جمهوره المكون من أطياف ناعسة، إيماءات وكلمات غابت عنها الحقيقة. لكن هذا الشعور الذي راودنا جميعًا ذات مرة زائل، على الرغم من حدته، ولا ينفذ إلى دواخلنا ويختلط بحياتنا. قد يُهاجمنا فجأة، في أقل يوم

ننتظره فيه، فتظهر الأشياء المعهودة لبضع دقائق وهي مستقلة وهامدة وبعيدة، على الرغم من قربها، فإذا بأي كلمة ـ ربما أكثر الكلمات شيوعًا أو تلك التي نستخدمها عدة مرات يوميًّا ـ تبدو غريبة عنا وتنفصل عن معناها وتغدو محض ضوضاء. نبدأ في تكرارها بدافع الفضول، لكن معناها الذي كان جليًّا في وقت سابق لا يعود على الرغم من التكرار، بل إننا كلما كررناها، تبدو لنا أغرب وأصعب في التعرف عليها. يجتاحنا هذا الغياب السريع للمعنى من دون أن يستدعيه أحد بالتزامن مع الأشياء التي تجعلنا نتشرب سريعًا مذاق انعدام الواقعية الذي يتضاءل تحت الثقل الناعس للأيام، فيترك لنا بقايا طعمه، كذكرى مبهمة مجردة أو طيفٍ للائمةٍ تُعكر قليلًا علاقتنا مع العالم. بعد البريق تستمر أعيننا في الارتعاش بصورة غير محسوسة، من دون أن ندرك، فنميل إلى عدِّ أنفسنا السبب وراء هذا الأمر الغريب لتبرئة العالم وتفادي الهذيان. من الأفضل للمرء، بلا شك، أن يكون هو الذي يتذبذب، لا العالم.

لم يحظَ الهنود، على النقيض، بهذا العزاء، فكلما ابتعد العالم الخارجي عنهم، صار وجوده مُستصعبًا. هم أيضًا لم يكونوا حقيقيين بصورة كاملة، لكن لا وجود للحقيقة في أي مكان آخر، إن لم تسكنهم. لقد لعبوا، على الرغم من هشاشتهم، دور الدعامة غير الآمنة للأشياء التي ليست أثبت أو أدوم من شعلة شمعة وسط العاصفة. لا ينبع هذا الوضع من إحساس عابر وإنما هو الحقيقة الرئيسية للعالم الذي ترك علاماته في عظامهم ولغتهم، كأثر من عذاب. كانت استمرارية كل شيء على المحك مع كل حركة ينفذونها وكل كلمة يلفظونها ويكفي أي إهمال أو خطأ لتخريبها. لهذا صاروا ـ من دون أن يدركوا ـ فعالين وقلقين بلا هوادة. صاروا فعالين لأن النهار باتساعه وكل ما يسكنه يعتمد عليهم، وقلقين لأنهم لم يثقوا قَطُّ في أن ما يشيدوه لن ينهار في أي لحظة. حملوا فوق رؤوسهم، بتوازن متزعزع، الأشياء الزائلة التي ستجرها معهم، إن سقطت مع أقل إهمال.

من أين نبَع مثل هذا الإحساس، مسألة لم أتوقف عن التفكير فيها يومًا منذ أكثر من خمسين عامًا. لا شك أن سبب هذا الشرخ الموجود عند حافة الظلام الذي يُهددهم باستمرار يرتبط بكارثة عتيقة. يُولد البشر وهم محايدون ومتساوون إلى حد ما، وما يُميزهم أفعالهم والأشياء التي تحدث لهم. ليست المسألة أيضًا أن هذا الهندي أو ذاك جاء إلى العالم بهذه الطريقة، وإنما يرتبط الأمر بالقبيلة بأكملها؛ لقد لاحظت، على مدى هذه السنوات، كيف يدخل الأطفال كلما تقدموا في العمر بصورة طبيعية إلى داخل هذه الريبة الشائكة، وكيف أفسح عدم انشغال البال الطفولي الطريق يومًا تلو الآخر إلى تجهم الكبار. يصيرون أبهى وأصح من الخارج، لكنهم يزدادون ذبولًا بمرور الوقت من الداخل، إذ يُسيطر عليهم القلق ويُبقيهم معه حتى الموت. بطريقة مختلفة، شفَّت أعين الرجال والنساء عن الهاجس ذاته. ساوت بينهما قناعة مشتركة: من دونهم، سيتسع هذا الشرخ، وسيحل الفناء العام.

شق عليَّ كثيرًا إدراك أن مردَّ الهموم الكثيرة التي طاردتهم هو أكلهم لحوم البشر. ذات يوم

شرح لي أحد الهنود بازدراء لا يوصف أن بعض القبائل الأخرى تعتبر أكل أفرادها من قِبل أعدائها شرفًا استثنائيًّا. حدث هذا أثناء محادثة سرية لم تشهد بالطبع أدنى إشارة منه إلى أنه يأكلهم بنفسه. كنا قد رأيناهم من بعيد، ذات صباح صيفي، وهم يتقدمون ضد التيار في زوارقهم. جلسنا بعيدًا عن النجع، أسفل بعض أشجار الصفصاف الموجودة عند الضفة، ولمَّا تعرف الهندي عليهم، امتعض وجهه، وهو يقول:

ـ إنهم شعب لا يستقر في أي مكان، ويقطع مياه النهر الكبير جيئة وذهابًا طوال العام من دون كلل.

قال الهندي أيضًا، خافضًا صوته، وهو يمتنع عن إصدار أي تلميحات أخرى:

ـ إنهم يحبون أن يُؤكلوا.

مهما حاولت المضي قدمًا في استجوابه، لم أنجح في جعله يقول لي شيئًا آخر. ظننت أن مرد الازدراء هو عدم وجود تفسير لهذا الميل وأن الهندي يعدُّه ذوقًا خاطئًا ومنحرفًا. بدا ازدراء ذا نازع أخلاقي؛ كأن في تخليهم وهم سجناء عن أجسادهم لإشباع نهم الآخرين تجليًا لأحد أنواع الشهوانية. ما يُثبت أن أكل لحم البشر ليس عادة يتفاخر بها الهنود كثيرًا أنهم لم يتحدثوا عنها قَطُّ، بل إنهم بدوا كأنهم ينسونها طوال العام قبل أن يعيدوا الكرة من جديد في الوقت نفسه تقريبًا. فعلوا هذا الأمر ضد إرادتهم، كأن امتناعهم عن الأكل ليس ممكنًا أو كأن هذه الشهية التي تعود لا تخص كل واحد منهم، بذاته المنفصلة، وإنما هي شهية شيء مظلم يسيطر عليهم. لو أن تعرض المرء للأكل يحط من قدره، فمردُّ الأمر ليس فقط إلى الشهوانية المشينة التي يشِف عنها هذا الفعل: ارتبط الأمر أيضًا ـ أو على وجه الخصوص ـ بأن تحول المرء إلى هدف للتجربة يعني التوجه بالكامل نحو العالم الخارجي والتساوي مع ما هو هامد وملتبس، مع فقدان الواقع والالتصاق بالعجين اللدن للأمور الظاهرة. يُمثل هذا الأمر بطريقة متطرفة رغبة المرء في ألا يكون. إن رؤية الهنود وهم يتعاملون مع الأجساد المقطعة أمر واجب لإدراك أن هذه الأعضاء الدامية لم يبقَ فيها أي أثر بشري بالنسبة إليهم. لم ترتبط الرغبة التي تأملوها بها وهي تُشوى بالعثور مجددًا على شيء غريب عليهم، وإنما بتجربة قديمة راسخة في مكان ما وراء ذاكرتهم. لو تنامى استياؤهم، كلما بدأوا يمضغون، فالسبب أن مذاق اللحم، حتى وإن لم يتمكنوا من تحديده، بدا كطيف مستنفَد أو خطأ متكرر. علموا في أعماقهم أنهم لا يمضغون شيئًا، لأن العالم الخارجي مجرد شيء ظاهري، لكنهم وجدوا أنفسهم ملزمين بتكرار هذه الإيماءة الجوفاء مرة تلو الأخرى، للاستمرار تحت أي ثمن في الاستمتاع بهذا الوجود الحصري غير المستقر الذي يسمح لهم بالتوهُّم بأنهم البشر الحقيقيون الموجودون فوق قشرة هذه الأرض الموحشة التي تقطعها أنهار جامحة.

اتضح لي برهان بطيء مع مرور السنين: لو أن الهنود، بينما تقودهم هذه الرغبة القادمة من مكان بعيد، قد اعتادوا في كل صيف أن يركبوا زوارقهم، بطرقهم السريعة والفعالة، ليمضوا في

اتجاه قد تحدد سابقًا، فمردُّ الأمر أنهم ظنوا أنه ما من طريقة أخرى إلا هذه لتمييز أنفسهم عن بقية العالم كي يصيروا أوضح قليلًا أمام أعينهم وأكثر كمالًا؛ وكي يشعروا بأنهم أقل تشابكًا مع اللاحتمالية التافهة للأشياء. لقد انتزعوا من هذا اللحم الذي التهموه ومن هذه العظام التي قرضوها ومصُّوها بعناد مؤلم كيانهم الهزيل والزائل لمجرد وقت من الزمن، قبل أن ينفد منهم مرة أخرى. لو أنهم تصرفوا بهذه الطريقة، فهذا لأنهم في لحظة ما قد اختبروا وزن العدم، قبل أن يشعروا بأنهم متميزون عن باقي العالم. لا بد أن هذا الأمر حدث قبل أن يبدأوا في تناول لحم البشر غير الحقيقيين؛ أولئك الذين جاءوا من العالم الخارجي. تعني كلمة «قبل» السنوات الحالكة التي - وهم يتمازجون مع لزوجتها العامة - التهموا فيها بعضهم بعضًا. هذا هو ما بدأت أفهمه الآن وللتو، وأنا قريب جدًّا من عدمي الشخصي: بدأ الهنود يشعرون بأنهم بشر حقيقيون حينما توقفوا عن أكل بعضهم. لقد غيرهم شيء مختلف عن ترصدهم المتبادل. توقفوا عن أكل بعضهم، وولوا وجوههم صوب الخارج، وشكلوا قبيلة صارت مركز العالم المحاط بالأفق الدائري الذي كلما ابتعدوا عنه ازداد طابعه المعضل. على الرغم من أنهم جاءوا أيضًا من هذا العالم الخارجي المستبعد، فقد دخلوا - لا من دون جهد - إلى مستوى جديد طفت فيه رؤوسهم بعد تحررها في هواء الحقيقة النظيف، مع أن أقدامهم لم تتوقف عن الخوض في الوحل الأصلي.

مع ذلك، فكلما رآهم المرء وهم في شدة الجزع، لم يعطِ هذا الانتصار انطباعًا بكونه نهائيًّا. بدا الأمر كأن هذا الخطر القديم مستمر في تهديده لهم؛ كأنهم يشعرون في كل لحظة أنهم سيخسرون كل الأراضي التي اكتسبوها، مهما بلغ حجمها. علموا أنهم أكثر الأمور واقعية في هذا العالم، لكنهم لم يكونوا واثقين جدًّا من أنهم هكذا فعلًا: من أنهم وصلوا إلى نقطة مُثلى ومنيعة في الواقع لا يُمكن التراجع عنها أو الوصول إلى شيء ما بعدها، لكن ما جلبوه معهم من الماضي - أي الإحساس القديم والمربك والبدائي بالعدم - بقي داخل كينونتهم الحقيقية، فوق أي شيء آخر. إذا صح ما يقوله البعض حول أننا نود دائمًا أن نكرر تجاربنا الأولى وأننا بصورة ما نكررها فعلًا، فلا بد أن جزع الهنود ينبع من بقايا هذا المذاق العتيق الذي استحوذ على رغبتهم على الرغم من تغير هدفها. لم يتمكنوا من أن يحظوا بيقين أكبر للواقعية لأنهم في أعماقهم عرفوا أنه أيًّا كانت أشياء العالم الخارجي التي اختاروها هدفًا، ومهما بدا البشر الذين يلتهمونهم بعيدين ومبهمين، فإن المرجعية الوحيدة الموجودة لديهم للتعرف على هذا اللحم الغريب هي ذكرى لحمهم نفسه. علم الهنود أن القوة التي تحركهم كي يخرجوا إلى الأفق الضبابي بحثًا عن لحوم البشر - وهي قوة أكثر انتظامًا من حركة الشمس في السماء - ليست الرغبة في التهام ما ليس موجودًا، وإنما رغبتهم في التهام أنفسهم، لأنها الأقدم والأكثر توغلًا داخلهم. باتوا بهذه الطريقة سببًا وهدفًا لهذا الجزع. عرفوا بعضهم من دون أن يعرفوا بعضهم، ومارسوا أفعالًا علموا أن معناها الظاهري ليس حقيقيًّا. ظاهريًّا، كانت أنفسهم هي الهدف الأبعد لرغبتهم وفي الوقت نفسه السبب الحقيقي لبعثاتهم، وهي

المسألة التي عرفوها من دون أن يُظهروها بوضوح يخلو من الشك. اعتادوا أن يمضوا في جولة واسعة عبر العالم الخارجي للعثور على هذا الطعم القديم. تنجح هذه المناورة في تهدئتهم لبعض الوقت، فيتركون أنفسهم يسقطون بثمل وعمى وسط الظلمات، ثم يطفون تدريجيًّا في نهار أوضح وأنظم، ما يلبث أن يبدأ استنفاده مع دوران العام البطيء. لم يرغبوا أصلًا في التفكير فيما حدث لأنهم بعد أن عاشوه داخليًّا لم تعد لديهم أي شكوك حول أسبابه الحقيقية. لطالما لجأوا إلى مؤامرة كبرى مشتركة تبسط تحت ضوء النهار الأدلة التي لا تُدحض حول كينونتهم وبراءتهم، وهم دائخون من العودة العنيدة لهذا الجوع الذي ظنوا أنهم قد أشبعوه أخيرًا، لكنهم مهما تآمروا، لم يتمكنوا من محو ما هو موجود في دواخلهم منذ البداية. إنها نصف خدعة مارسوها على أنفسهم. لقد قبلوا صفقة عمياء تحملوا دائمًا الجزء الأسوأ فيها على مضض. ظنوا أنه لا قيمة كبيرة للعالم، إذ علموا أن البشر الحقيقيين ـ أولئك الذين بدوا كأنهم قد انتزعوا أنفسهم من الظلمات ـ لا يزالون يسحبون وراءهم في كل أفعالهم المحورية العجين الدبق والداكن لذلك الشيء المبهم الذي لا مكان للوضوح المستمر والثابت في مستنقعه الثخين.

شغَل كل إنسان وكل شيء مكانه المحدد في هذا العالم الملتبس. أتم كل هندي في الأعمال المشتركة واجبه في اللحظة المحددة التي تستدعي وجوده، لكن بدا لي مستحيلًا معرفة من أصدر الأمر وفي أي لحظة. كلما غادروا على متن زوارقهم، احتل كل واحد منهم موقعًا محددًا فيها، وأمسك بعضهم بالمجاديف، كأنه قد تقرر بشكل سابق أنهم من يجب عليهم أن يجدفوا. حدث الشيء ذاته كلما خرجوا إلى الصيد برًّا أو في النهر أو إلى الحرب. تصرفت النساء اللاتي زرعن وحصدن واضطلعن بالواجبات المنزلية بالصورة ذاتها. من دون أن يكلفهم أحد بشيء، أدوا جميعًا الأدوار المخصصة لهم في الوقت المطلوب منهم بسرعة وفاعلية من دون أن يسهوا أو أن يشغلوا مكانًا لا يخصهم. لم أرَ أحدًا منهم يرتكب ما يُمكن عدُّه تصرفًا عرضيًّا. لقد اندرج كل تصرف، مهما تصاغر حجمه، داخل نظام أُرسي سابقًا. كشفت بعض التصرفات، التي بدت لي في البداية سخيفة، عن الحاجة الضرورية إليها. اعتنت كل التصرفات البشرية، في محيط الفرسخين أو الثلاثة فراسخ المحيطة التي شغلوها تحت السماء المحايدة، بالحفاظ في كل لحظة على الاستمرارية المُستصعبة للعالم الذي ترصده الفناء باستمرار، حتى إن أصفى وأودع الأيام تلوثت بهذا التهديد. بدت كل إشارة دعامة لعالم مشتت؛ وكل حركة صيغة مفروضة على الأشياء لكيلا تتبدد؛ وكل نظرة دليل حذر قلق على أن نظام الأشياء الهزيل يتفضل باستمراريته لبضع لحظات أخرى. لقد شغلتُ داخل هذه الاستراتيجية أنا الآخر مكاني، ككل الأشياء المرئية في هذا النطاق الساطع والخاوي.

سمح الدور الذي قرروه لي بالنجاة. جلب الهنود معهم، كلما خرجوا بحثًا عن البشر من أجل حفلاتهم السنوية، واحدًا مثلي. لم يقتلوه، وبعد منحه حياة عظيمة لوقت من الزمن، أرسلوه في

طريق العودة. طيلة عشر سنوات رأيت تعاقب هؤلاء الضيوف الأبيين. اعتادوا أن يحتجزوهم شهرين أو ثلاثة أشهر أو أقل من هذه المدة أصلًا، وأن يتركوهم يغادرون مع نهاية عاصفتهم الموحلة، بعد عودة القبيلة إلى الأيام الرتيبة والوادعة. لو أنهم أبقوا عليَّ طيلة سنوات كثيرة معهم، فمردُّ الأمر إلى أنهم لم يعرفوا جيدًا أين هو طريق العودة الذي قد يرسلوني إليه؛ فما إن رأوا رجالًا يشبهونني يتجولون بالقرب منهم، حتى وضعوني على متن زورق وأرسلوني في اتجاه مصب النهر. أنا الوحيد من بين كل هؤلاء الضيوف الذي لم أعرف كيف ينبغي لي أن أتصرف. لم يبدُ أن الآخرين يجهلون ما ينتظره الهنود منهم، وبدت هذه المعرفة كأنها تمنحهم سلطة الظهور بشرود واستعلاء. لقد عرفوا قبل وصولهم بالفعل ما استغرقت أنا سنوات في فك شفرته. كان لعبارة: «ديف-جي، ديف-جي» التي وجهوها لهم بمجرد نزولهم إلى الساحل الأصفر معنى لا لبس فيه؛ على النقيض مني أنا، الذي بدا لي سبر معناها كفتح طريق عبر غابة عنيدة ومتعبة. لم يخطر قَطُّ على بال الهنود أنني أجهل لغتهم ونواياهم، لأنهم عدُّوا أن كل العالم الخارجي يخضع لهم. لقول الحقيقة أنا لم أحظَ من وجهة نظرهم بأي كيان خاص، ولم ينبغِ لي من وجهة النظر ذاتها أن أجهل ما ينتظرونه من شخصي. لم يقدموا لي، ولو لمرة واحدة، أي تفسير. أدرك الآن أن النظرات الأولى التي وجهوها إليَّ، في المساء الأول الذي سرت فيه بين بؤر النيران، اشتملت بخلاف رغبتهم في لفت انتباهي ونيل إعجابي على تعبير أشخاص يُذكِّرون طرفًا آخر بإصرار بذيء نوعًا ما ببنود اتفاق سري. اضطررت، طيلة سنوات، إلى أن أُمزق العجين اللاصق لهذه اللغة الموحلة بطابعها كي أتبين المعنى الدقيق لهذه المقاطع السريعة والزاعقة التي خاطبوني بها، من دون أن أثق قَطُّ في أنني أصَبت. يمتلك هذان الصوتان: «ديف-جي، ديف-جي» معاني كثيرة متباينة ومتناقضة في الوقت ذاته، ككل الأصوات الأخرى التي تُشكل لغة الهنود. قيلت «ديف-جي» للإشارة إلى الأشخاص الغائبين أو النائمين، وإلى الخرقى، وإلى من يمضون وقتًا أزيد من اللازم في بيوت الآخرين أثناء زيارتهم بدلًا من البقاء لوقت معقول. «ديف-جي» أيضًا هو اسم طائر منقاره أسود وريشه أصفر وأخضر. ربوه أحيانًا وجعلهم يضحكون، لأنه كرر بعض الكلمات التي علموها إياه كأنه يتحدث. استخدموا «ديف-جي» أيضًا لتسمية أغراض معينة اعتادوا أن يضعوها مكان الأشخاص الغائبين لتُمثلهم في اجتماعاتهم، إلى درجة أنهم أحيانًا قدموا لها شيئًا من الطعام، كأن هذه الأغراض ستأكله بدلًا من البشر الذين تمثلهم. أطلقوا «ديف-جي» بالصورة نفسها على انعكاس الأشياء أيضًا، وكان اسم أي شيء قادر على الاستمرار هو «ديف-جي». لاحظت بعد وصولي بوقت قليل أيضًا أن الأطفال وهم يلعبون قالوا عمن ينفصل عن المجموعة، ويبدأ في أداء حركات لتمثيل شخص ما، «ديف-جي». الرجل الذي يتقدم بعثاتهم ويعود ليحكي ما رآه، أو من يذهب للتجسس على العدو ويعود بكل تفاصيل تحركاته، أو ذلك الذي ينهض أحيانًا في بعض الاجتماعات ليلقي خطبة مُسهبة كأنه يلقيها لنفسه، لكن بصوت مرتفع؛ كل هؤلاء سموهم

«ديف-جي». أطلقوا «ديف-جي» على كل هذا وأشياء كثيرة أخرى. استنتجت، بعد تأملات كثيرة أن السبب وراء إطلاقهم هذا الاسم عليَّ هو جعلي أتشارك جوهرًا موحدًا مع الأشياء التي سموها بالصورة ذاتها. انتظروا مني أن أعكس كالماء الصورة التي يقدمونها عن أنفسهم، وأن أكرر إيماءاتهم وكلماتهم، وأن أمثلهم في غيابهم، وأن أكون قادرًا، حين يعيدونني إلى أقراني أن أصبح مع هؤلاء كحال جاسوسهم أو كشافهم الذي يعود أدراجه ليحكي لهم كل شيء بالتفصيل، لأنه شهد شيئًا لم ترَه بقية القبيلة بعد. ود الهنود أن يوجد ناجٍ وشاهد على مرورهم عبر هذا السراب المادي، وأن يكون راويًا لحكايتهم أمام العالم، خلال الوقت الذي بقينا فيه مُهددين من قِبل كل هذه الأشياء التي تتحكم فينا من الظلام وتُبقينا في الهواء المفتوح إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي يُعيدنا عبر إشارة مفاجئة ومن دون سبب إلى الالتباس.

إن أشق وأخطر اللحظات في هذا الوجود الصعب الذي اختبروه هي تلك التي استسلموا فيها إلى الرغبة بعد أن تجاوزت حدود تحملهم، فخاطروا كأنهم مسرنمون بعبور أحلك ما في الليل. لقد حافظوا بفطنة على الشوائين الهادئين الذين اعتنوا بهم كالرعاة؛ لا رعاة الماعز، وإنما رعاة الذئاب؛ وبالمثل، كورقة أخيرة، على الضيف الأبي الذي علم أنهم مرتبطون بهواه أو بذاكرته وأنه يُمكنه أن يُخلدهم في هذا العالم الكافر الذي غمرهم في عوز الواقعية، عبر صورة قوية وكاملة يسهل التعرف عليها فورًا وتجعلهم يدومون بين الأشياء المرئية، على الرغم من انمحاء أثرهم المتملص بالكامل. لو أنهم جاءوا بهؤلاء الضيوف في الأيام التي أكلوا فيها اللحم البشري، من دون أن يهملوا المسألة ولو مرة واحدة، فمَرد الأمر أيضًا هو إثبات وإيضاح أنهم قد استأصلوا أنفسهم بجدارة من الطينة البدائية، وكي يعلم العالم الشاسع والضبابي أنهم باتوا دعامة الواقع العويص ـ عبر تعلم التمييز بين ما هو داخلي وما هو خارجي وبين ما ينتصب في الهواء الساطع وما يبقى ليخوض في الظلمات ـ وأنهم أيضًا البشر الحقيقيون. في هذه الأيام الدامية، استخدمونا أيضًا كي نشهد على براءتهم. وجب علينا، تحسبًا لاستسلامهم إلى الفناء، أن نأخذ معنا إشارات حياتهم نحو الأفق المناوئ. كنا، بتفرقنا عبر العالم، الجمرات الأخيرة للوهج الذي التهمهم. أطلقوا سراحنا كي نصبح رسل هذا الغرق. بينما تصعد عبر النافذة المفتوحة، وسط الليل الصامت، رائحة الكلس وزهر العسل، تمسك يدي بثبات ريشة الكتابة التي يحتك سنها ببطء بالورقة الخشنة فلا يترك إلا أثر هذا الصخب الذي يأتي إليَّ ـ ولا أعرف من أين ـ عبر سنوات من الصمت والازدراء.

بهذه الصورة، وبعد ستين عامًا، يشغل هؤلاء الهنود الذين لا يُقهرون ذاكرتي. لا يُمكنني أن أراهم منفصلين عن السماء الشاسعة الزرقاء والساطعة الملآنة ليلًا بالنجوم التي كلما غاب القمر، بدت لانهائية وضخمة وتطق شررًا. لطالما تلألأت شتاءً وهي خضراء وزرقاء وبنفسجية وحمراء وصفراء، وجليدية. أدرك الآن أنها لو كانت موجودة هناك وتحوطنا كحاشية هزيلة من الفزع والجهل والاختلاجات، فهذا لأن الهنود دعموا بلا هوادة كل واحدة منها. عكسَ النهر الكبير

صورتها، فامتلأ أيضًا بالبريق، وهو يركض جنوبًا بالأنفاس التي منحها الهنود له، فيما اكتست الأشجار بالخضرة في كل ربيع لأن دماءهم تمازجت مع نسغها. لقد دفعوا يومًا تلو الآخر وإلى حد الإنهاك ثمنًا لا ينتهي لاستئصال أنفسهم بصورة نصفية من مهد موحل خلَّف فيهم طعم الضياع إلى الأبد. ينبع الكثير من الذكريات التي تجتاز ذاكرتي نهارًا كالشهب ـ لأن هذه رغبتها ـ من الأنحاء المحيطة بهذا النهر الكبير الذي ارتسمت فوق سطحه خطوط آثار الزوارق التي علمت كيف تجتازه بسرعة في كل الاتجاهات، كما أن كثيرًا من الإيماءات التي أفعلها بصورة آلية، في أكثر الأوقات غير المتوقعة، تبدو كأنها متشربة بهذه الذكريات. يحدث هذا أحيانًا بصورة غير مباشرة وخفية جدًّا إلى درجة لا أتمكن معها أصلًا من إدراك وجود علاقة، لكن من دون أن أتوقف عن اختبار الإحساس الغريب بأن كل هذه السنوات ستعود فجأة من المنطقة المظلمة التي دُفنت تحت سطحها عبر هذا التصرف العابر والثانوي. تُضاف إلى ذكريات ذاكرتي، التي يتأملها إدراكي يومًا تلو الآخر كصور مرسومة، هذه الذكريات التي يسترجعها الجسد وحده وتتطور داخله، ومع ذلك، فإنها لا تتمثل داخل الذاكرة كي يحتجزها العقل بعناية ويفحصها. لا تتخذ هذه الذكريات شكل الصور، وإنما تظهر كرجفات وعقد مزروعة في الجسد، واختلاجات، ودمدمة غير مسموعة، وارتعاشات. حين يخرج الجسد إلى هواء الصباح شبه الشفاف، فإنه يتذكر، من دون أن تعرف ذاكرته، هواءً آخرَ قوامُه المادة ذاتها التي اكتنفته بشكل متطابق في تلك السنوات الدفينة. يُمكنني أن أقول إن جسدي بالكامل يتذكر بشكل ما سنوات الحياة الثخينة والشهوانية هذه، وإن الأمر يبدو كأنه قد تشرب جدًّا بهذه الحياة، فبات لا يشعر بأي تجربة أخرى. وكما اعتاد هنود بعض القبائل رسم دائرة غير مرئية في الهواء لحمايتهم من المجهول، يبدو جسدي مكسوًّا بجلد هذه السنوات التي لا تترك شيئًا يعبر إليها من الخارج. وحدها الأمور الشبيهة هي التي تُقبل. لا أساس للحظة الحاضرة إلا صلة قرابتها بالماضي. لم يُخطئ الهنود معي: باستثناء البريق المربك لهذا الماضي، فليس لديَّ شيء لأحكيه. أيضًا، لأنني أدين لهم بحياتي، فمن العدل أن أرد دَيني لهم باستحضار حياتهم يوميًّا.

لكن الأمر ليس سهلًا، فهذه الذكريات الدؤوبة التي تزورني لا تسمح لي دائمًا بإمساكها. تبدو أحيانًا واضحة وصلبة ومحددة، ككيان مُفرد، لكنها تنبسط وتتمدد بمجرد أن أنحني لأقبض عليها بحركة واحدة كي أُخلدها فتتكاثر التفاصيل التي أخفاها مجملها من بعيد وتتضاعف وتكتسب أهميتها وسط هذا المجمل، إلى درجة أنه توجد لحظة معينة يُباغتني فيها أحد أشكال الدوار، فيشق عليَّ إرساء أي تراتبية بين كياناتها الكثيرة التي تُشير إليَّ. لم يعد المرء يعرف أين هو مركز الذكرى وأي شيء هو حدها الخارجي، إذ يبدو مركز كل ذكرى كأنه يتحرك في كل الاتجاهات، ولأن كل تفصيل يتنامى داخل المجمل، ولأن تفاصيل أخرى ظلت منسية تظهر وتتكاثر وتتضح بدورها بينما يحدث هذا التنامي، فإنني في كثير من المرات، أغتم قليلًا وأقول لنفسي إن اللانهائية

ليست شيئًا يخص العالم وحده، وإنما كل واحد من أطرافه، ومن ثَم فذكرياتي أيضًا مثله. في هذه الأيام يُمكنني أن أقول إن الهنود لم يعرفوا كيف يصونونني من الشر الذي ينخرهم، بعد أن أبقوني معهم كل هذا الوقت. مع ذلك، يأتي الكثير من هذه الصور، في مرات أخرى، في نظام هادئ وهي مكتملة وواضحة، وتبقى مدة طويلة، ثم تختفي، وتعود لتظهر بفضل قوة مستمرة وغامضة لا تسمح لها فقط بالحفاظ على ملامحها الجلية، وإنما تبدو أيضًا كأنها تصقلها وتُثريها لتصبح صلبة وواضحة كالأحجار أو العظام.

إحدى هذه الذكريات - وهو أمر مثير للفضول - هي ذكرى الأطفال الذين رأيتهم في اليوم التالي لوصولي وهم يلعبون عند ضفة الماء، بعيدًا عن النجع. لقد رأيتهم في مرات كثيرة ينجرفون، وهم سعداء، في ممارسة اللعبة ذاتها. على مدى السنوات العشر، تغير الأطفال لأنهم حين وصلوا إلى سن معينة، اختفوا عدة أيام بين الجزر في صحبة بعض الصيادين، ولدى عودتهم، وهم متجهمون بعض الشيء عن رحيلهم، كانوا قد أصبحوا رجالًا بالفعل. لكن لأن المجموعات تشكلت من أطفال في كل الأعمار، فقد خلق أصغرهم الاستمرارية، بطريقة بدا معها الأمر كأنها مجموعة اليوم الأول ذاتها. في البداية، لم أدرك التغيرات، وبدوا لي دائمًا أنهم الأطفال أنفسهم، إذ شق عليَّ التعرف على الأفراد، لأنهم جميعًا كان لهم الشعر المسترسل الداكن ذاته. من المؤكد أنهم اجتهدوا لتُصبح الأمور كلها متطابقة مع نفسها في كل لحظة، كي يحققوا بهذه الصورة وهم اللاحراك. لا بد أنني رأيت هؤلاء الأطفال يلعبون مئات المرات، لكن في ذاكرتي، أنها ذكرى اليوم الأول ذاتها التي تزداد عنادًا ووضوحًا بمرور الوقت. كنت قد ابتعدت فارًّا من الشاطئ لكيلا أرى المذبحة التي أفزعتني تحت الشمس الساطعة. هدأتني لعبة الأطفال المتراخية وظللت مدة طويلة منغمسًا في تأملها. وقفوا في صف، بمحاذاة النهر، بمسافة قصيرة بين بعضهم، وتركوا أنفسهم يسقطون، واحدًا تلو الآخر، وظلوا هكذا، كأنهم ناعسون فوق الأرض، وكلما سقط آخر من في الصف، أتى من في أوله ليقف وراءه، فتبعته بقيتهم بالنظام نفسه، لتبدأ اللعبة مجددًا. أحيانًا، استندت يدا الأخير فوق يدَي قبل الأخير، ويدا هذا فوق يدَي قبل قبل الأخير وهكذا بالتوالي وصولًا إلى الأول، ثم تحرك الصف المتسلسل بهذه الطريقة لبرهة في خط مستقيم، أو شكَّل دائرة، أو دار حول نفسه كلولب. ترك الأطفال أنفسهم وهم سعداء طيلة ساعات لهذه اللعبة التي تنبع منها الذكرى التي تزورني بشكل متتالٍ، وتصبح بمرور الوقت أنقى، وتزداد صعوبة طمسها. يهيأ إليَّ أنني أستشف من ملامحهم، التي تزداد دقتها بمرور السنين، وجود علامة مظلمة من العالم وسط ضوء النهار لسبب لا يعلم أحد كنهه، وهذا لأنه يصعب تخيل أن ثبات الأطفال على هذا التصرف لأجيال كثيرة ووجوده المستمر في ذاكرتي مجرد حدثين عرضيين لا معنى لهما، إن نُظر إليها بمقياس اللانهائية. إن كل هذا العناد من أجل الاستمرار في ضوء العالم المناوئ يتطلب على الأرجح تواطؤًا ما مع جوهره العميق. لا شك في أن هذه اللعبة، شأنها شأن الشكل الذي يتخذه الزمن أو

سبب وجود الفراغ، جزء من شفرة الأمور الأساسية التي يذهب ويجيء دم الإنسان عبرها بين انتفاضات وأعاجيب وومضات. لكن حتى وإن لم ينكشف أي شيء خفي في صورة هذه الألعاب، فإن ظهورها المستمر في ذاكرتي مرة تلو الأخرى وتزايد بساطتها مع كل مرة، يعمل تدريجيًّا على استنفاد الأحداث التافهة التي تتضمنها، فلا يترك إلا النقاء الهندسي لهذه الأشكال التي رسمها الأطفال بأجسادهم على الأرض الرملية وهم في مأمن من الاحتمالات، ومنها ذلك الخط متقطع النقاط الذي يتشكل حين يتساقطون واحدًا تلو الآخر وهم يتظاهرون بالنعاس، فينكسر الخط المستقيم في أجزاء كثيرة منه، قبل أن يعودوا إلى تشكيله من جديد، بإسناد أيديهم على أكتاف من يقفون أمامهم، ليتحولوا إلى سلسلة، تتحول بدورها، وهي تلف، إلى حلزون.

من ضمن الذكريات الأخرى التي تزورني دائمًا بإيقاعها الخاص والغامض، ذكرى صباح صيفي في اليوم التالي لواحدة من الحفلات التي اعتاد الهنود أن يغرقوا فيها سنويًّا: يحتضر أحدهم وهو راقد فوق ظهره على الرمال ووجهه للهواء الباهت. جسده ملآن بالجراح، والضربات والحروق. لقد قضى النهار السابق في تناول لحم البشر والثمل والمعاشرة. نظرت عيناه المفتوحتان جدًّا إلى السماء الداكنة وأفلت فمه الذي لا هو مفتوح ولا هو مُقفَل ـ من عند مقرن شفتيه تحديدًا ـ خيطًا من الدم واللعاب جف إثر تفاعله مع هواء الصباح المنعش. بينما يمضي الرجل في موته، ارتفعت بالإيقاع نفسه تقريبًا شمس الصيف في السماء التي أخذت زرقتها تتزايد مع الضوء المتنامي وسط شحوب الفجر. يُمكن للتناقض القائم بين الرجل المحتضر والمساحة التي انطفأ وسطها إثبات أن العالم يسرق جوهرنا ويدعم نفسه بدمائنا، لأنه بينما يخفت بريق عينيه وتتهدج وتضعف أنفاسه، اكتسب ضوء الصبح مزيدًا من السطوع والعظمة، كأن العالم انتزع من آخر أنفاسه الومضات التي تلألأت فوق الماء ورفعت من صفرة الرمال وزادت من كثافة زرقة السماء وتواثبت بين أوراق الأشجار الخضراء النضرة جدًّا. جلست مقرفصًا إلى جوار الرجل الذي كان أكبر سنًّا مما أنا عليه الآن بقليل ولم يلحظ وجودي. وفقًا لمقياس معرفتي بالهنود، فقد عرفته جيدًا جدًّا: عاش مع عائلته في كوخ قش قريب جدًّا من كوخي، وأرسل إليَّ في مرات كثيرة طعامًا مع النساء أو الأطفال، وجاء به بنفسه في مرات أخرى. ما لفت انتباهي بخصوصه هو رزانته وتعقله. لطالما حاصرني الهنود في أغلب الأوقات بحركاتهم المبالغ فيها وطلباتهم ومداهنتهم، على الرغم من أنهم نسوا وجودي أو تقبلوه بلامبالاة طيلة أسابيع بل شهور. إن جاءوا إليَّ بطعام على سبيل المثال، فلم يكن غريبًا منهم أن يفرطوا في إجباري على ملاحظة الأمر، وهذا بلا شك كي أضع كرمهم في الحسبان لو تحدثت عنهم في أي مستقبل محتمل. لو أنهم أبرزوا كل تصرفاتهم وأوجههم، فالسبب هو رغبتهم في أن يُفهموا بصورة أكبر وأن أفهمهم أنا تحديدًا بسهولة. لم تعكس الوضعيات التي اتخذوها دائمًا أفضل ما فيهم. لم يشغلوا بالهم كثيرًا بمدى سوء أو جودة الصورة التي ودوا أن يقدموها عن أنفسهم؛ فأهم شيء أن تكون صورة حادة ويسهل احتجازها في الذاكرة.

لاحقني كثير منهم طيلة عشر سنوات بتفاصيل صبيانية، كرروها دائمًا بالطريقة ذاتها، ولم يتوقفوا عن استحضارها كلما قابلوني. ظل أحدهم ـ ذلك الذي هددني في اليوم الأول بأكلي أنا أيضًا وعض ذراعي ليُثبت الأمر ـ يذكرني بالأمر كلما تقابل معي. اعتاد أن يقول: «ديف-جي، ديف-جي»، قبل أن يضيف صوتين آخرين أو ثلاثة أصوات أخرى تعني تقريبًا: «أنا الذي قلت لك مازحًا إنني سآكلك». خلال هذه السنوات العشر، صار عجوزًا وفقد كل أسنانه تقريبًا. كان رجلًا عريضًا ومكتنزًا، وكلما ضحك، تغضن كل الجلد الموجود حول عينيه الصغيرتين وظهرت لثته الوردية الضاربة إلى البياض. طيلة مدة بقائي بينهم، لم يُخاطبني هذا الهندي قَطُّ ليقول لي شيئًا آخر؛ إذ ود دائمًا بالصوتين أو الثلاثة أصوات السريعة والزاعقة أن يحفر في ذاكرتي هذه الدعابة التي إن لم تمنح فستمنحه الخلاص. في بعض المرات، صادفني وهو عابس وشارد ولم يلقِ عليَّ التحية، وبينما يمضي في طريقه، إذا به يناديني ـ كأنه قد تذكر فجأة ـ ويوجه إليَّ ابتسامته المصطنعة وكلماته التقليدية، قبل أن يعود إلى عبوسه ويبتعد. في ذلك المساء حين وضعوني في الزورق مع المؤونة لإرسالي نحو مصب النهر، تمكنت من إبصاره للمرة الأخيرة، أثناء محاولته أن يفتح طريقه بين الحشد الذي تراكم حول الزورق، وهو يحافظ بمشقة على ابتسامته بسبب الضغط الشديد، ويكرر من دون توقف الأصوات التي منعني صخب الحشد من سماعها، لكنني حزرتها بسهولة:

ـ ديف-جي، ديف-جي. أنا الذي قلت لك مازحًا إنني سآكلك. أنا الذي قلت لك مازحًا إنني سآكلك.

تصرف كل الهنود تقريبًا بالطريقة ذاتها، من دون أن يصلوا إلى هذه الحدود المتطرفة. لقد جعلهم الخوف من الضياع وسط عجين الغموض المجهول يُقبلون على هذه التصرفات الثابتة والمباشرة التي حاولوا عبرها، كلما استطاعوا، أن يلفتوا انتباهي بطريقة أو بأخرى، بتعقل أكبر أو أقل، ووفقًا لكل حالة. كلما أشاروا إلى خصائص جيدة في أنفسهم، بدوا كأنهم يتباهون بغرور مفرط. زعم أحدهم أنه أفضل صياد في القبيلة، وآخر أنه أفضل من يصنع السهام، وثالث أنه أكثر من يتحمم يوميًّا. لم يعتادوا الكذب، لكن لاحظت في مرات أنهم يبالغون؛ لا لخداعي، وإنما ليرفعوا أمام أعينهم ـ وعينَي أنا أيضًا ـ من قوة تشبثهم بالشخصية التي يمثلونها. ذات صباح، قال لي أحد العجائز إن أسنانه كلها سقطت مرة واحدة، وقالت لي امرأة بعد لف ودوران ـ وهو أمر غريب فيهم لكنها فعلته لإخفاء المبالغة ـ إن الجميع ودوا منها وهي عذراء أن تمضغ الجذور التي يصنعون مشروبهم منها لأن لعابها لذيذ. بصقت فوق أنامل أصابعها وودت أن تقدمها لي لأذوقها وهي تقول إنني، لو أقدمت على الأمر، لن أنسى الطعم أبدًا. إن هذه الرغبة الحادة في أن يظلوا مرئيين وأن يسكنوا الذاكرة ليست العائق الوحيد الذي منع عقد صداقة، أو على الأقل، علاقة طبيعية بسيطة معهم، إذ أفسد جمودهم، الذي كاد أن يقارب حد التجهم الفظ، كل محاولات التقارب.

لقد جهلوا السعادة المشتركة المحرِّرة التي تظهر أحيانًا ـ كاملة لكن بتعقل ـ وتنتشر بين الجميع، وبدوا كأنهم منعوا بشكل سابق أي متعة بدائية. لقد تسبب التزامهم بالحزن أو الجدية الصارمة في تيبسهم. فرضوا على أنفسهم حياة ضيقة عقيمة ونبذوا بريبة المتعة منها. تجلى هذا التيبس المتعمد بالأخص كلما بدا أنهم يشعرون بمتعة ما، إذ أظهرت تعبيراتهم أن هذه المتعة التي عادت لمداهمتهم على الرغم من رفضهم المستمر لها تُربكهم، وأن مسألة شعورهم بها تُعد سببًا للصراع الداخلي والمشاعر المتناقضة. أقل ما أحبوه في المتعة هو تجربتها. ما دامت المتعة غير حاضرة، فإن قرار نبذها من حياتهم بدا لهم طبيعيًّا، وكلما ظهرت، سواء بصورة حسية أو كسعادة بسيطة سببها أي موقف غير متوقع، حاولوا إخفاءها وبدوا مرتبكين أو خجلين. لم يودوا أن يعترفوا بمتعتهم الشخصية. لم يرُقهم أن يحطم شيء تحصيناتهم ويعجبهم.

كان الرجل، الذي احتضر وهو يرقد على ظهره فوق الرمال الصفراء في ذلك الصباح الذي تقدم تدريجيًّا، مختلفًا بعض الشيء. تجلى فيه قلق الهنود وصرامتهم بصورة أقل. أعطى انطباعًا بأنه مستعد أكثر من الآخرين لأن يطلق العنان لنفسه، وأن يترك جيئة وذهاب الأيام تُقولبه بسلاسة، من دون أن يصر على تشكيل صورة ما لنفسه أو أن يرفض الاعتراف بإيقاع الاحتمالات. سمحت لي هذه المرونة بأن أحظى معه بعلاقة مباشرة وطبيعية أكثر من بقية القبيلة. بالطبع، ما من حميمية وُجدت بيننا، واقتصر الأمر على بعض المبادلات اللفظية، لكنني وثقت في أنه لن يوجه إليَّ، كلما قابلته، إحدى النظرات العذبة التقليدية وأنه لن يحاول أن يترك في ذاكرتي انطباعًا لا يُمحى. إيقاع خطواته نفسه بدا أبطأ بقليل من بقيتهم. تكهنت، من دون أن أدرك، بأن هذا التباطؤ غير المحسوس تقريبًا يتضمن نوعًا من الأصالة، ومن الشعور الشخصي بأن الاستحالة التي هي جوهر الأشياء واللغة وحتى شحم ولحم أهله أنفسهم ربما ليست مطلقة جدًّا؛ أو بأنه على الرغم من هذه الاستحالة المطلقة، فإنه قد احتفظ لنفسه بحرية تحدي القوانين القائمة في العالم وعيش حياة مختلفة عن البقية، حتى وإن ترصده الفناء. انبثق من هذا الاختلاف الطفيف أحد أنواع الطيبة. لطالما زرته ومر هو على منزلي مرارًا. على وجه العموم، تحدثنا قليلًا، لكن بدا لي أن وجوده المجرد يثبت تعاطفًا معينًا مع مصيري. علمني الصيد بالحراب والسهام، بل بهذه السكاكين العظمية الصغيرة التي أثبتَ مهارة كبيرة في تصنيعها واستخدامها. تعامل مع الأطفال بصبر ومودة، واعتاد الرجال أثناء مداولاتهم في مرات كثيرة أن يطلبوا رأيه، فقدمه بدقة ومن دون تفاصح، بطريقة تأملية أظهرت نوعًا ما أنه يظن أن طابع كلماته أقل موثوقية من القدْر الذي أظهر محاوروه أنهم يرونه، عبر سلوكهم الذي يكاد يقارب حد التوقير. بدا الأمر كأنه يؤكد للآخرين، بطريقة أبوية، تطلعاتهم الزائفة، لأنه يعتقد سرًّا، أنهم عاجزون عن تحمل حقائق أفدح.

في المرة الأخيرة قبل هذه كان هذا الرجل موجودًا بين الشوائين، أما في السنوات السابقة فلم أتمكن من تمييزه بين بقية أفراد القبيلة. دفعني سلوكهم اليقظ والمنتبه إلى اعتقاد أن هؤلاء الرجال

يتصرفون هكذا في كل الأوقات، فاختلط عليَّ الأمر بين وظيفتهم العابرة وكينونتهم الدائمة. عيَّن الهنود هؤلاء الشوائين سنويًّا بناء على أسباب لم ألتقطها، باستثناء أن من يصطادون الفرائس يمتنعون عن تناولها، وفقًا لمبدأ أخلاقي لم أفهمه. جرى اختيار هؤلاء الصيادين سنويًّا في مداولات طويلة وسرية. انتبهت إلى هذا الرجل للمرة الأولى وهو يُجهز ـ بعيدًا عن الحشد ـ طعامًا بسيطًا للشوائين. في ذاكرتي، ترتبط أول ذكرى بشخصه بحركاته الدقيقة والسريعة والهادئة. أغشت هذه الصورة أمورًا أخرى واضحة لم أفكر فيها؛ ومنها على سبيل المثال أن هذا الرجل نفسه قتل في اليوم السابق من تلتهمهم القبيلة لحظتئذٍ وأنه قضى الصباح ـ من دون شك ـ وهو يقطع أجساد الأسرى بسكينه العظمي الصغير فوق طبقة من الأوراق الخضراء. تزايدت صلابة الصورة النقية لهذا الرجل على مدى العام بفضل سلوكياته العقلانية والدافئة.

أكد احتضاره أن خطئي لا نهاية له. لا بد أنني في اليوم السابق بدأت أقبل تدريجيًّا خيبة أملي. رأيته صباحًا وهو يتلصص بقلق على الشوائين الذين وضعوا الأجساد المقطعة فوق الجمرات بمهارة ولامبالاة. لم تعكس تعبيراته بصورة واضحة أي صراع داخلي أو أي تردد. ظل يتجول، بنفاد صبر أكبر من البقية حول الشوايات التي تصاعدت منها الأدخنة. ثمة شبه ابتسامة شاردة وبطيئة وحالمة عند كثير من الهنود تستبق في خيالهم المتعة الحقيقية التي تقترب، لكن هذه السعادة الفاسدة لم تُلمَح فيه أصلًا: ظل يأتي ويذهب، وهو متجهم ومنطوٍ على نفسه وشبه غاضب في محيط الشوايات، وتجلى أن صخب العالم المتنوع لم يعد له وجود بالنسبة إليه. بدأتُ أراقبه من على مسافة معينة، محاولًا ألا أفقده من أمام نظري. لما بات اللحم جاهزًا، فزعت وأنا أراه كيف يوجه لكمة إلى امرأة في كتفها حين اعترضتْ من دون أن تدرك طريقه نحو الشوايات ليجبرها على إفساح الطريق له. أخذ قطعة اللحم بتجهمه المنزوي ذاته أثناء الانتظار وبحث بعدئذٍ بنظره، كحيوان بلا عقل، عن مكان هادئ ليجلس ويلتهمها. سار، بمفرده، نحو ضفة النهر، وجلس في زورق خاوٍ، وبدأ الأكل.

مضغ بعناد قطعته من اللحم، من دون أن يرفع كثيرًا رأسه عنها، وسط تزايد هياجه، كأنه يطق شررًا في صمت لا فقط من عجزه عن التهامها من قضمة واحدة، وإنما أيضًا من عجزه عن التهام كل العالم الذي يحتويها. حين أنهى قطعته الأولى، قفز من الزورق وتوجه بخطوات حاسمة نحو الشوايات بحثًا عن قطعة أخرى. لما حصل عليها، بقي ليأكلها قرب النيران، وأنهاها بعد قضمتين أو ثلاث، ثم طلب قطعة ثالثة. تجلى أنه شبع، لكن هذه القطعة الثالثة بدت كأنها التزام فرضه على نفسه عمدًا. بدأ يتمشى عند ضفة النهر ببطء، ربما بالإيقاع ذاته الذي يمضغ به، وقطعة اللحم في يده. توقف عن السير أحيانًا وفي مرات أخرى عن المضغ وهو يفتح فمه. لم يعد قادرًا على ابتلاع القضمات الأخيرة. مضغها كثيرًا، ببطء شديد، بفم مفتوح، وبجبين مقطب، وبعينين تحدقان في الخواء، وما بقي من قطعة اللحم ـ التي تشبثت بها يده وهو يتمشى ـ يتأرجح هناك، منسيًّا، بمحاذاة

جسده. أنهى قطعة اللحم بمشقة. تبقت عظمة مجزوزة اللحم، فتركها تسقط بشرود فوق الرمال التي في ظل جيئته وذهابه بدت كأنها قد انحفرت بخطاه الحثيثة. في النهاية، انهار. ظل ناعسًا مدة طويلة تحت الشمس إلى أن أيقظه صخب بقية الهنود الذين التفوا كزوبعة حول جرار المشروب، فجلس معتدلًا وهو يرمش باتجاههم. في اليوم التالي تحديدًا، احتضر عند هذا الشاطئ ذاته، لكنه بدا في تلك اللحظة غائبًا عن هذا العالم الذي بالنسبة إليه فقد كل طابعه المادي بمجرد النظر. نهض، من دون أن ينفض نعاسه من فوقه، وسار في اتجاه الجرار. لم يرَ أصلًا أن واحدًا ممن يوزعون المشروب الكحولي قد عرض عليه إناء قرع ملآن، فأمسك بواحد من على الأرض وغطسه في جرة ورفعه وهو فائض، ثم أفرغه في جوفه مرة واحدة. كرر الأمر ذاته ست أو سبع مرات، بجسد متيبس ومنتصب، وصدر منتفخ بعض الشيء، ونظرة يزداد اضطرابها بمرور الوقت، فأظهر، باستغلاقه أن الموجود وراءه ليس أحلامًا صاخبة، وإنما حلكة ثخينة ومستمرة. ابتعد بعدئذٍ عن الحشد وظل واقفًا قرب الماء متيبسًا وجامدًا إلى أن حل المساء. حقق جموده وتيبسه بفضل جهد مهول، وظهر جيدًا أن جسده كله يحافظ للإبقاء عليهما، إلى درجة أن رقبته انتفخت وأن عروقه السميكة المُعذبة برزت في جبينه في الوقت ذاته الذي أبقى فيه على ثبات عينيه واتساعهما الكبير والكز على أسنانه التي سال منها في بعض اللحظات نقاط من لعابه، بسبب مجهوده الكبير. بدا هذا الجمود أغرب مقارنة بالنشاط الذي أظهرته القبيلة كلها حول هذا الرجل وسط حمى المساء، إذ إن الأجساد كانت قد بدأت منذ مدة ليست بالقليلة في التشابك بتوحش، سواء في ثنائيات أو في مجموعات اختلط فيها الهنود من كل الأعمار بداية من الأطفال حتى العجائز، لتملأ الهواء الناعم والفاتر لهذه الأمسية بتنهيداتها وصرخاتها وأصواتها وآهاتها. تمرغ كثير منهم على بُعد أمتار قليلة من الرجل الذي ظل جامدًا ومتصلبًا ومنتصبًا، إلى أن انطلق ليركض في لحظة مفاجئة وغير متوقعة واختفى بين الأشجار وأيضًا في الظلام، لأن الليل حل في تلك اللحظة. حينئذٍ، ضاع من أمام بصري. أعرف أنه ذهب ليختلط بصخب القبيلة التي عبَرت مجددًا المستنقع المفتوح أسفل أقدامها الذي يبتلعها سنويًّا طيلة ساعات، ويعيد الكثير من أفرادها في حالة يُرثى لها، ويحتفظ لنفسه وإلى الأبد بعدد ليس قليلًا منهم. ليس الجمود الذي أخضع نفسه له طيلة ساعات دلالة، بأي صورة، على ضبط النفس أو محاولة قوية للبقاء على هامش الفوضى، وإنما على النقيض من هذا تمامًا: إنه تحدٍّ غير معقول، وأحد أشكال الهذاء والشطط. على أي حال، ما أعادته الظلمات إلى الشاطئ الأصفر، وسط الصباح الأكهب، بعد الليل الذي لا نهاية له، ليس سوى القشرة المكسورة والخاوية للرجل الذي عرفته سابقًا.

بينما أنحني فوقه، رأيته وهو يموت، تحت شمس الصباح. إنها ذكرى فريدة، على عكس الذكرى الأخرى التي قوامها تجارب مختلفة ومختلطة تشكل صورة واحدة داخل ذاكرتي؛ وهذا لأن موت أي إنسان حدث فريد، وهذا الرجل ـ ولا أحد سواه ـ هو الذي مات. يتطابق الموت والذكريات في

هذا الشأن: في أنهما شيئان متفردان عند كل إنسان. لا يعرف البشر الذين يظنون أنهم حظوا بذكرى مشتركة، لمجرد أنهم عاشوا تجارب متقاربة، أن لدى كل منهم ذكريات مختلفة، وأن هذه الذكريات محكوم عليها بالعزلة، كحال موتهم ذاته. هذه الذكريات هي زنزانة أي إنسان ويظل محبوسًا فيها منذ ولادته وحتى مماته. إنها مماته. يموت أي إنسان من تفرُّد ذكرياته، لأن ذلك الشيء الذي يموت تحديدًا؛ ذلك الشيء الذي يزول؛ ذلك الشيء الذي لا يُولد مجددًا في الآخرين؛ ذلك الشيء الذي قدره أصلًا أن يموت وسط الحشود، هي هذه الذكريات الفريدة التي تُغذي وهم وجود مُتذكر حصري لها سيمحوه الموت في نهاية المطاف. في ذلك الصباح، تعلمت أيضًا من الرجل المكدوم، الذي تنفس لمامًا، أن الفضيلة لن تنقذنا من الظلام المحيط بنا. إن راوغنا بشجاعة إحدى الليالي، فستنتظرنا، بعد وقت قليل، ليلة أخرى أكبر. سعى هذا الرجل هباء، في الأيام المسالمة، إلى أن يصبح طيبًا، لكن الفم المفتوح الذي ظل يرقص فوقه ببراءة واتزان قد التهمه على أي حال. تُستوفى حياتنا في مكان فظيع ومحايد لا يعرف الفضيلة أو الرذيلة، فيقضي علينا، بلامبالاة، من دون أن يبرر لنا لا الخير ولا الشر. قرب الظهيرة، توقف الرجل في النهاية عن التنفس. تحول وسط السماء الزرقاء والأوراق الخضراء والنهر الذهبي والرمال الصفراء إلى مجرد بقعة مبهمة لا اسم لها، كأن هذا الوضوح الكامل والخارجي للعالم الذي يحوطنا قد سلبه أنفاسه وجوهره، كي ينبسط وسط الضوء.

مهما سطع الحلم ومهما ظل واضحًا في الذاكرة، فإنه بمجرد انتهائه، يغدو بعيدًا بالنسبة إلى صاحبه، ويتعذر إثباته. لو حكاه، فسيظن من يسمعه عبثًا أنه تعرف على تفاصيله ومعناه، على الرغم من أنها أصلًا أمور مُعضِلة بالنسبة إلى الحالم. على سبيل المثال، لو حدث ذات مساء أن عاد إلى صاحب الحلم في ساعات سهره حلم منسي بسبب إشارة ما استحضرت ذكراه، فإنه لن يجد أي طريقة للتحقق من اللحظة المحددة التي حلم فيها به، ولن يقدر على معرفة ما إذا كان قد حلم به في الليلة الماضية أم قبلئذٍ بشهر، أم قبلئذٍ بسنوات كثيرة. لن يقدر حقًّا على تحديد ما إذا كان هذا الحلم، الذي ظنه منسيًّا، حلمًا قديمًا يعود إليه أم أنه حلم جديد يظهر له للمرة الأولى في صورة ذكرى ساطعة ومفاجئة. الذكريات والأحلام مصنوعة من المادة نفسها، وإن نظرنا جيدًا، فكل شيء عبارة عن ذكرى، لكن يُمكن للعالم أن يمنحها عمرًا وكثافة. لو تذكرتُ، على سبيل المثال، في هذه اللحظة حلمًا وُجد فيه الأب كيسادا، فإن هذا الوجود سيمنح للحلم عمرًا، لأنني لم أكن لأحلم به قبل أن أعرفه أصلًا؛ في حين أن ذكرى الأب كيسادا نفسها، التي تسمح بمنح كيان مستقل له عن أحلامي، تكتسب كثافتها وواقعيتها بفضل الكتب التي قدمها لي قبل وفاته ولم أنفصل عنها قَطُّ. بهذه الطريقة، فإن الحلم والذكرى والتجربة العويصة تتحدد وتتواصل فيتشكل منها ـ وكأنه نسيج مُبهم ـ ذلك الشيء الذي أدعوه، من دون غبطة كبيرة، حياتي. مع ذلك، فإن يدي هذه التي تكتب، وسط الليل الصامت، تتوقف، إذ يبدو لي صعبًا في هذا الحاضر الواضح والمدهش معرفة ما إذا كانت

هذه الحياة الممتلئة بالأراضي والبحار والكواكب وشراذم البشر قد حدثت فعلًا أم أنها رؤية لحظية مردُّها إلى النعاس أكثر من التبجيل. في نهاية المطاف، أن يقول الهنود: «يبدو» وألا يقولوا: «يكون»، ليس انحرافًا سخيفًا، وليست قليلة هي المرات التي أجد فيها شيئًا يذعن في أعماقي بسلاسة لقناعاتهم الأكيدة.

على سبيل المثال، جلست ذات يوم، مع حلول المساء، عند باب بيتي بهدوء وأنا غير منشغل البال. إنه أحد أيام الربيع الطويلة التي تهب فيها منذ الصباح الرياح الدافئة المستمرة بقوتها المعتدلة، وهي تجر وراءها سحبًا بيضاء كثيفة تشف عن سماء زرقاء ساطعة ولا يتوقف هبوبها إلا عند الغسق. كانت الرياح في هذه الساعة قد توقفت فعلًا، وتركت السماء صافية من الغيوم، باستثناء سحابتين أو ثلاث سحب طويلة جدًّا وشبه شفافة تراكبت بمحاذاة بعضها البعض كطيات متعرجة وأكسبها ضوء الشمس لونًا ضاربًا إلى الخضرة أو البرتقالية. رأيتها وهي تتلاشى تدريجيًّا وأنا جالس على الأرض التي كُنست توًّا، وظهري مستند إلى حائط الطوب اللبني، بينما تُظلم السماء المستوية. بدا الأمر كأن الرياح، قد محت أيضًا أفكاري، بالطريقة ذاتها التي محت بها الغيوم. شاهدت تغير ألوان السحب الصغيرة، التي في وقت تحولها إلى اللون البنفسجي والأزرق، ازدادت هزالًا واختفت. كانت الشمس قد غطست في الأفق، ولم يضئ المساء سوى ضوئها الأخير الذي ازداد توحدًا مع مرور الوقت. ازداد هدوء النجع مع الغسق. ارتاح بعض الهنود مثلي عند أبواب بيوتهم. اجتاز آخرون الشاطئ في مختلف الاتجاهات، على بُعد قليل منهم، وبتثاقل أكثر من المعتاد أو ربما أن هذا هو الانطباع الذي يمنحونه إليَّ الآن، في هذه الذكرى. بدأ رجل يشعل بتمرس بؤرة نيران وهو يقرفص، وانشغل عدد من الأطفال، الذين انطمست هيئتهم وسط ظلال الأشجار المشعشعة، بألعابهم الغريبة. ربما بسبب الهدوء المفاجئ للرياح الحادة، بدا المساء والبشر والأفق الدائري، الملآن بأشياء ثخينة وغامضة، أثبت وأطيب. طفت في الهواء، من دون أن تُكسبه طابعًا قذرًا، رائحة الطعام والسكن البدائي. انشغلت بضع لحظات بالنظر إلى هذه القرية المظلمة التي اختلجت، وكأنها مسحورة، من حولي، وحين رفعت رأسي مرة أخرى، وجدت أن السحب الصغيرة قد اختفت. بقيت السماء الخاوية ذات الزرقة المستوية جدًّا، ثم أخذت عتمتها تتزايد، وبدأت النجوم الأولى تظهر كأنها تقترب تدريجيًّا، واستدعت جهدًا لاكتشافها. إنها مجرد نقاط واهية بدت كأنها تتلألأ وتنمحي، قبل أن تتلألأ وتنمحي، كأن كينونة هذه النجوم ـ التي لطالما رُبطت بالسرمدية بيقين كبير ـ تُكلفها عرقًا ودموعًا، كحالنا نحن أيضًا. حسبت في ذلك الوقت أن نصيبي مقرر وأن مستقبلي الزهيد، الذي لن يتغير أصلًا، سيفضي فقط إلى موتي. لم أعرف أن الهنود سيرسلونني، بعدئذٍ بوقت قصير جدًّا، في اتجاه مصب النهر على متن زورق ملآن، لألتقي بهذه الليلة الصيفية البعيدة والمختلفة جدًّا عن هذه الأيام التي ظننتها نهائية، لكنني لم أخلط هذه القناعة بالجنون أو الغم. تركت نفسي لقدري، وسلمت نفسي لمنظومة الحاضر الفوري، متجردًا

من كل شيء، كما جئت إلى هذا العالم، فكفاني الخبز اليومي لحياتي، مهما كان جافًّا، لأنني لم أعرف أي مذاق آخر قد يبرر الحنين. كنت في هذا المساء الوادع أكثر خواء من العادة، لكنني لم أدرك الأمر، ربما بسبب رأفة الجو. مكثت بضع دقائق وأنا أنظر إلى النجوم وهي تظهر، ونهضت بعدئذٍ، وبدأت أتمشى عبر النجع.

وجه إليَّ بعض الهنود نظراتهم المفهومة والمتواطئة التي اعتدت عليها بعد وقت طويل. قالوا لي: «ديف-جي، ديف-جي»، وهم يشيرون إلى بعضهم البعض وأنا أمر، بينما يضيقون أعينهم أو يصنعون إيماءة ما. لم يلتفت آخرون أصلًا إليَّ في ظل لامبالاتهم. في بعض المرات، جاءت من النهر ضوضاء قريبة لأحد يغطس. تمكن الرجل الذي حاول قبلئذٍ ببضع دقائق أن يشعل بؤرة النيران من تحقيق مسعاه. انبثق اللهب طويلًا وعموديًّا فجأة وهو يطق شررًا ويطقطق، لأنه مزج مع الحطب كثيرًا من الشجيرات الصغيرة والقش الجاف. جاءت مجموعة من الفراشات داكنة اللون على الفور تقريبًا، من بين الظلال المشعشعة الزرقاء، وألقت بنفسها بين ألسنة اللهب. ازدادت سخونة الهواء الفاتر، قرب النيران، وعلى الرغم من عدم هبوب أي رياح، فإن العنف الذي اشتعلت به النيران نشر دخانها الأول العكر. ضبط الرجل وضعية الحطب بعصا، وهو يجر بطرفها الفروع الصغيرة المتناثرة على الأرض فوق بؤرة النيران. وجه له بعض الهنود لدى مرورهم تحية سريعة قبل أن يبتعدوا وسط الظلال المشعشعة الزرقاء. تركت ورائي صخب الدخان والشرر واللهب وتوجهت نحو النهر. تلألأت الرمال وسط الظلمة الزرقاء، بصفرة أكثر مما هي عليه وسط ضوء النهار. خرج رجل من النهر والماء يسيل منه واختفى وهو يركض بين الأشجار، فتوقفت عند الضفة.

سكنت الظلال المشعشعة، لكنها لم تتكاثف. بدا لي غريبًا ألا تُسمَع العصافير التي تغرد كثيرًا في المساء. في الحقيقة، بقيت صامتة منذ مدة. لم يتحرك الماء أيضًا، باستثناء الاهتزازات التي لا تُرى تقريبًا وظلت تتكرر عند الضفة. لم يتردد إلا صدى ضوضاء البشر وأصواتهم المستمرة: هتافات، وتحيات ومحادثات، وضوضاء عظام أو خشب استعملوه لصناعة أشكال يُمكن التعرف عليها من أشياء ملتبسة. سُمعت أيضًا في بعض اللحظات من وراء ظهري الضوضاء الخافتة للأقدام الحافية التي جاءت وذهبت وهي تتواثب أو تنزلق فوق الرمال. تراءت عند الضفة أيضًا، على مسافة قليلة، عدة قوارب، وبدت أقتم من الظلال المشعشعة. كانت كل الأمور الحاضرة ـ بما فيها نحن ـ موجودة في المكان، وفي الوقت ذاته هي كينونته أيضًا. في الحقيقة، كُنَّا هذا المكان أكثر من المكان نفسه؛ ولأن هذا المساء بدا أكثر حفاوة، فإن صمته الأبي المعتاد بدا جارحًا نوعًا ما. لقد كشف سلام هذا المساء الأمر: نحن مستمرون في الحياة فقط بفضل كرمه، وهذا الأمر يحط من قدرنا أكثر من البهائم الخاضعة التي لا تفقه شيئًا. وفقًا لمعتقدات الهنود، يبدو هذا المكان مكانًا بسبب ما نبدوه نحن، ومع ذلك لم يفعل شيئًا أو يقدم علامة أو يبذل جهدًا لاكتساب ثقتنا.

بللت الرمال متماسكة القوام الموجودة عند الضفة قدمَي الحافيتين. استغرقت بضع لحظات، في ظل شرودي، لأدرك أنها بدأت تتلألأ منذ لحظات. إنه تلألؤ أبيض له وميض فسفوري. حين رفعت بصري، تحققت من أن النهر أيضًا امتلأ بانعكاسات صِبغتها واحدة. رفعت رأسي أكثر، وبينما ألتفت، وجهت بصري نحو السماء: إنه القمر. لم أرَه قبلئذٍ بمثل هذه الضخامة والاستدارة واللمعان. التمع جدًّا في وسط السماء إلى درجة انمحت معها النجوم. صعد بطيئًا، وأكيدًا، وفريدًا، ودافئًا، ومألوفًا وفسرت حدة لمعانه السبب وراء توقف تقدم الظلام في لحظة معينة. لحظتئذٍ، صار كل ما هو مرئي مزينًا ببقع قمرية عبرت أوراق الأشجار الملتفة وانطبعت، ببياض مطلق، على الأرض وفوق جدران وأسقف المساكن والأجساد العارية التي تحركت بين الأشجار، وبدت كنار ثابتة باردة. تميز القمر بالقرب الودود للأشياء غير المفهومة التي لم تعد تفزعنا لأننا تقبلنا لُغزها لسبب لا يعرف أحد كنهه. لم يبرر أي سبب وجوده، ومع ذلك، فإن رؤيته المستمرة والمألوفة في كل مراحله الدورية هدأتنا ولم تقلقنا ـ كما يجب ـ لأنه أقرب إلينا من الشمس التي تعمي الأبصار وأعذب منها، ويُمكن توقع مواعيد رحيله ومجيئه الدقيقة، بل يعيننا بطرق كثيرة في تنظيم حياتنا. مرت الشمس الأبية في كل يوم لتثبت لنا بضوئها القاسي الاستمرارية غير المبررة لهذا المكان الذي كُنَّاه نحن أيضًا، في الوقت الذي شكل فيه القمر المؤنس بفضل قربه جزءًا منه وكان أحد أشكال الجسور بين البُعد والألفة. بفضل القمر، فإن كل ما انجرف وسط الظلمات، من دون أن يكتمل، بدا كأنه يعرف شيئًا عنا ويعدنا بفناء أقل تعسفًا. على الرغم من أن القمر الدافئ عجز عن وقايتنا أو التدخل، إلا أن صحبته المستمرة قدرت على منحنا وهم أن الأمور غير المكتملة تقيّمنا من الخارج بمعيار ليس مختلفًا جدًّا عن ذلك الذي نستخدمه بأنفسنا.

بوجه عام، نام الهنود مبكرًا، لكن في بعض الأحيان، في تلك الأمسيات معتدلة الحرارة، بقي كثير منهم وقتًا أطول خارج مساكنهم حتى حلول الليل الكامل. لم يفعل الرجل الذي أشعل بؤرة النيران ما فعله لأي سبب معين، إلا لتسلية نفسه عبر تحريك الجمرات وتأجيجها بالحطب الذي جمعه حوله، بصورة جعلت شعلات اللهب المتنامية تُضيء جسده الداكن كلما انحنى نحوه لضبطه بعصاه. بينما هو منغمس في عمله، بدا كأنه يجهل ارتقاء القمر في السماء فوق رأسه، وحجمه غير المعتاد، واستدارته المثالية والهائلة، ولمعته الغريبة ذات البياض الضارب إلى الزرقة، وحضوره الزائد والحاسم. لم يبدُ الضوء الذي ينشره القمر ليليًّا أو نهاريًّا، بل بدت صبغته كأنها تنذر بقرب وقوع شيء ما، ولأن كثافته ظلت تتزايد بمرور الوقت، فإن بقع البياض الكثيف التي تسللت من بين طبقة الأوراق وانعكست فوق النهر، بدأت تخفت بعد امتصاصها من قِبل الجلاء العام، وحتى شعلات بؤرة النار شحبت وسط هذا الضياء المعتدل. تحول الضوء الذي أَرسل قبلئذٍ بلحظات قليلة أشعة متفرقة ومنعزلة واعتباطية نوعًا ما إلى ضياء مفاجئ وموحد يمنح الأشياء ـ المريبة أصلًا بفعل كينونتها ـ غرابة إضافية. بدأت أشعر فجأة وبصورة مربكة أننا لسنا موجودين حيث نظن أننا

موجودون، وأن كينونتنا ليست كما نظن، وأن هذا الضوء الذي لم نعهده سيُظهر لنا، ببريقه المجهول، وضعيتنا الحقيقية.

في الوقت نفسه الذي وصلت فيه إضاءة القمر إلى حدتها القصوى، بدأ القمر نفسه يحتجب. لاحظت الأمر في الوقت ذاته الذي تجول فيه بعض الهنود بين النجع والشاطئ. لم يراقبه أي منهم، لكن لسبب ما لا يُمكن تفسيره، أدركوا الأمر وقت أن أدركته أنا الذي لم أرفع عينَي من فوقه منذ برهة. كست صبغة زرقاء لمعانه المفرط وهي تتقدم ببطء وخففته. من فرط التعارض، بدا الجزء الذي لم يكتسِ بها ألمع. لكن الظلال المشعشعة الزرقاء، استمرت في تقدمها. قسم القمرَ خطٌّ عمودي واضح إلى جزأين: بدا الجزء الأزرق الذي لم يتوقف عن النمو، حتى ولو ببطء، قوسًا يزداد اتساعه كلما تراجع حجم الجزء اللامع. بعدئذٍ بدقائق، قسم الخط العمودي القمر إلى نصفين: جزء أزرق محتجب، وآخر لامع، لكن إن نظر المرء إليه باهتمام، فقد يرى عند الحافة الخارجية للجزء الأزرق، خطًّا عموديًّا جديدًا يبدأ في تعتيمه والتسحب بصورة تكاد لا تُحس نحو المنتصف. تراجع حجم الجزء اللامع، وبات واضحًا أنه سينمحي بالكامل بعد عدة دقائق.

ترك الرجل، الذي ظل يتسلى بالنيران، العصا التي حرك بها الجمرات تسقط، وتقدم بخطوات حثيثة نحو وسط الشاطئ، وهو يرفع رأسه نحو القمر. لما ابتعد عن النيران، فقد جسده وضوحه الذي التمع مع وهج اللهب، وتحول إلى طيف ضارب إلى الزرقة أقل كثافة من الظلال المشعشعة التي تنقل عبرها. اختلط، بعد أن سار بصعوبة لمسافة قليلة، مع بقية الهنود الذين بدأوا يتجمعون في حيز الشاطئ المفتوح في صمت بعد أن خرجوا من مساكنهم وظهروا من بين الأشجار وأتوا من عند نهاية النجع الذي امتد إلى داخل الأرض. سُمعت جلبة خطواتهم فوق الرمال وأنفاس كثير منهم، وضوضاء أياديهم التي لامسوا بها بالصدفة أجسادهم أو أجساد الآخرين، لكن صوتًا واحدًا لم يرتفع من الحشد الذي تزايدت كثافته بمرور الوقت وحدق ببصره في السماء، وهو مجتمع عند الشاطئ. على الرغم من الصمت، طفت هالة من اليقين وسط الظلام الذي ظل يتكاثف. ظننت أنني أدركت معناه وقلبي يختلج. في هذا الحيز الذي تحول أمام أعينهم إلى ليل حالك، أثبت الانمحاء والفناء التدريجي للقمر الذي ظنناه لا يزول من شدة اعتيادنا عليه، قناعة قديمة ظهرت دائمًا في كل تصرفات وأفكار الهنود، سواء أدركوها أم لا. لقد علم الهنود منذ بداية الزمن نفسها ما يحدث في تلك اللحظة. لم تعنِ الحياة بالنسبة إليهم سوى التكاتف في جماعات حذرة ومستوحشة في انتظار وقوع الحدث الفريد الجدير بهذا الاسم، الذي وقع فعلًا ووصل فجأة من دون أي أمارات تسبقه. لم يهتز الحشد قَطُّ بفعل أي اضطراب خارجي، إذ وقف في صمت يتأمل السماء التي تكاثفت ظُلمتها وزادت من تكاثف أطياف الهنود التي بدأت تختلط أكثر وأكثر مع السواد الحالك.

في تلك الأثناء، انمحى القمر تحت موجات متتالية ومتزايدة من الظلام. تراكبت طبقات كثيفة من الظلال عموديًّا فوق بعضها البعض، وبزغت من الحافة نفسها بصورة أسرع كلما مر الوقت،

وهي تكسو تدريجيًّا سطحه بالكامل. أمكن للمرء في البداية رؤية محيطه الدائري، كهالة مزرقة من الضياء الهزيل، وإن كان إطلاق كلمة «ضياء» عليها ممكنًا، فقط لتعارضها مع السواد المطلق الذي ظهرت بسببه. لكن في النهاية، حتى هذا الأثر الضعيف، انمحى. في الدقائق التي تلت الأمر، لم يعد شيء قادرًا على أن يمنح اسمًا لهذا السواد. ليس «الصمت»، ولو من بعيد، كلمة قادرة على وصف هذا الغياب عن الحياة. أنا متأكد، بقدر تأكدي من نفسي، من أن هذا الظلام ظل يتوغل داخل أعماقهم، لأنهم لم يعد يتبقى لهم، حتى في دواخلهم، أي أثر من الضوء الصغير الذي اعتادوا أن يروا لمعته الوقتية الضئيلة بين الفينة والأخرى. تمكنَّا في النهاية من رؤية اللون الحقيقي لموطننا، بعد أن تجرد من التنوع المخادع السطحي الذي تمنحه إلى أشيائه هذه الحمَّى التي لطالما استهلكتنا منذ انبلاج الصباح ولم تستسلم إلا حين كنا نغرق تمامًا في وسط الليل. في النهاية، تمكنَّا من أن نتحسس من الخارج اللُّب الضبابي للعالم الملتبس، الذي ظنناه، حتى تلك اللحظة، هذياننا الشخصي؛ أو اللعبة متقلبة الأهواء لطفل مدلل جدًّا في مكان مادي قوامه هو الحاجة والبراءة، فوصلنا أخيرًا، وبعد هواجس كثيرة، إلى فراشنا المجهول.

لأنني جئت من الموانئ، التي يعتمد كثيرٌ من أهلها على السماء، عرفت أنه الكسوف. لكن أن تعرف ليس كافيًا، فالمعرفة الوحيدة الصحيحة هي تلك التي تُقر بأننا لا نعرف إلا الأمور التي تتنازل وتكشف عن نفسها إلينا. لطالما آوتني المدن، منذ تلك الليلة، ومردُّ الأمر ليس إلى الخوف. في تلك المرة، حينما وصل الظلام إلى أقصى درجاته، بدأ القمر يلمع تدريجيًّا من جديد، فتفرق الهنود، كما وصلوا، في صمت، واختفوا داخل النجع. ذهبوا كي يناموا، وهم شبه راضين. مكثت وحدي في الشاطئ. أدعو ما جاء بعدئذٍ «سنين عمري» أو «حياتي»، وكنهر عتيق يجر معه نفايات العالم المرئي، تركني تيارُ ضجيج البحر والمدن ونبضات قلوب البشر، في النهاية، داخل هذه الغرفة البيضاء، تحت إضاءة تلك الشموع التي تكاد أن تنطفئ، وأنا أتمتم عن لقاءٍ عرضي حدث مع النجوم، وبينها بالطبع أيضًا.

ينظر المتخصصون في أدب أمريكا اللاتينية والأرجنتين إلى خوان خوسيه ساير كأحد أهم قاماته، بسبب تفرده وتنوع إنتاجه الأدبي بين القصة القصيرة والشعر والمقال والرواية. تُرجمت روايته «المولود من ذي قبل»، التي صدرت للمرة الأولى في عام ١٩٨٣، إلى لغات كثيرة، منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وهذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها هذه الدرة المنسية بالعربية.

يرى الناقد الأرجنتيني مارتين كوهان أن ساير هو «أبرز مؤلف أرجنتيني بعد بورخيس»، فيما تعتبره مواطنته بياتريث سارلو «أهم كاتب أرجنتيني في النصف الثاني من القرن العشرين»، لهذا كان من الطبيعي أن تظهر ثلاث من رواياته في عدة قوائم نُشرت في مطلع الألفية الجديدة حول أفضل مائة عمل بالإسبانية في القرن الماضي. «المولود من ذي قبل» بالطبع من ضمن هذه الروايات الثلاث.

لفتت الرواية نظري حينما قرأتها للمرة الأولى في ٢٠١٧، وأتذكر أنني شعرت بالذهول من أسلوب ساير المُختلف عن أي مؤلف آخر قرأته بالإسبانية. السرد المدوخ والألفاظ الجزلة والجمل المركبة والفقرات الطويلة، التي لو قرأها القارئ بكل جوارحه، فلن تفقد تدفقها، على الرغم من كل هذا التراكب. ذُهلت أيضًا من قدرة ساير على طرح ومناقشة عدة قضايا حياتية وفلسفية وإنسانية ووجودية في عمل لا يتعدى قوامه مائتي صفحة: علاقة الإنسان مع محيطه ومع نفسه ومع غيره، وعلاقة الغزاة بالأرض المحتلة، والأرض المحتلة بهم، وعلاقته باللغة وعلاقتها به، وغيرها من الأمور التي ظني أن ساير قاسها بميزان دقيق جدًّا وهو يكتب هذا العمل.

من ضمن الأمور الأخرى التي أثارت اهتمامي بالرواية - وهو أمر واجب ذكره - التحديات اللغوية التي ستتطلبها ترجمتها، فكما كان الراوي حائرًا لوقت طويل أمام المعنى المقصود من «ديف-جي، ديف-جي»، علمت أنني سأشعر بدوار وحيرة مشابهة له، إن أقدمت على خوض هذه المبارزة اللغوية، فكثير من كلمات النص تُغير معانيها بصورة مرعبة ومغايرة وفقًا للسياق الذي تأتي فيه، كما هي الحال مع لغة الهنود.

مثلت ترجمة عنوان «El entenado» إشكالية كُبرى على الرغم من أنه مكون أصلًا من كلمة واحدة تسبقها أداة تعريف. تظهر هذه الكلمة مرة واحدة داخل النص. معناها الوحيد الذي يظهر في القاموس هو «الربيب». إن سمح لي ساير فسأصفها بلفظه المفضل وأقول إنها كلمة «ملتبسة». بعد القراءة الثانية للعمل تبينت أنه لا يُمكن اعتماد هذا المعنى في العنوان، لأنه ليس المعنى المقصود، ولا حتى في المرة التي ظهر فيها داخل النص، لأن الجملة لن تستقيم معه.

هنا بدأت رحلة البحث التي تبين فيها أصل الكلمة التي جاءت من دمج لفظَي «ante»

و«natus» اللاتينيين أي «المولود سابقًا». إذا نظرنا إلى معنى كلمة «الربيب» بالعربية فهو «ابن الزوج» أو «ابن الزوجة»، أي أنه شخص «وُلد قبل» الزواج. كان اختيار لفظ «الربيب» بالعربية عنوانًا للترجمة أو في المكان الوحيد الذي ظهرت فيه كلمة «El entenado» داخل الرواية سيفشل في عكس مفهوم الولادة السابقة، والولادات الجديدة والمتكررة، التي تحدث عنها الراوي حين ظهرت الكلمة في النص، وهو شيء محوري في فهم الشخصية والعمل، ولهذا استقررت في النهاية على «المولود من ذي قبل».

لما نظرت إلى الترجمة الإنجليزية وجدت أنها اختارت الابتعاد كل البعد عن العنوان الأصلي واعتماد عنوان «The Witness» أو «الشاهد»، ربما بناء على الجملة التي تظهر فيها عبارة «ود الهنود أن يوجد ناجٍ وشاهد على مرورهم عبر هذا السراب المادي». لا أدري ما إذا كان مردُّ هذا الاختيار إلى وجود إشكالية مشابهة في الإنجليزية لتلك التي واجهتها في العربية، أم أنها ترتبط بعادة الترجمات الإنجليزية التي تميل إلى تغيير العناوين.

تأخذنا هذه النقطة اللغوية، المرتبطة بالأصل التاريخي للكلمة ومعانيها ومردودها واختلافاتها في عدة لغات، إلى نقطة مشابهة ولفظ تكرر كثيرًا خلال الرواية، ألا وهو «الهنود» أو «los indios». يُدرك القارئ أن أحداث العمل جرت بعد مدة قريبة من اكتشاف الأمريكتين، وأن الراوي طبعًا قد انطلق من ميناء إسباني. لم تكن أولى البعثات تسعى لاستكشاف عالم جديد، وإنما الوصول إلى الهند عبر الغرب. ربما لهذا السبب تحديدًا بعد أن تبينت أولى البعثات أنها وطئت أرضًا جديدة، لا الهند، أطلقت على هذا العالم في البداية اصطلاح «Las Indias Occidentales» أو «الهند الغربية»، وبالتبعية أُطلقَ على ساكنيها «los indios» أو «الهنود»، ولما كانت أحداث الرواية على لسان راويها تدور في هذه المدة الزمنية، أصبح استخدام لفظ «الهنود» في الترجمة واجبًا، وليس «السكان الأصليون» ـ وهو معنى آخر معاصر لكلمة «los indios» قد يُصبح تحقيريًّا أو عاديًّا وفقًا لنية قائله ـ لأن استخدام هذا اللفظ كان سيعني الخروج عن الإطار الزمني للأحداث.

تجب علينا الإشارة أيضًا إلى أن ساير اعتمد، في البناء السردي للعمل، على اللجوء إلى بنية مشابهة لما يُعرف باسم «Crónicas de las Indias» أو «إخباريات الهند الغربية»، ومغايرة عنها في الوقت ذاته. هو نمط من السرديات التاريخية الإسبانية يأتي بصورة عامة من وجهة نظر الإسبان بوصفهم مستعمرين ويتناول عملية غزو واستعمار القارة الأمريكية، لكن ساير استغل هنا هذه البنية، لعرض سردية مغايرة بعيدة عن أسطرة الإنسان الأبيض في مواجهة الطابع الهمجي للسكان الأصليين، إذ عمد بصورة مباشرة وغير مباشرة إلى أسطرة هؤلاء في مواجهة الغزاة، ربما قبل أن يُسقِّه من كل البشر في الثلث الأخير من العمل.

في النهاية، جدير بالذكر أن ساير جدوده من أصول سورية كاثوليكية، ولد عام ١٩٣٧ في بلدة سيرودينو الأرجنتينية وتوفي عام ٢٠٠٥ في باريس. تنوعت أعماله كما ذكرنا سابقًا بين القصة

القصيرة والشعر والمقال والرواية. من أشهر رواياته: «المولود من ذي قبل»، و«التحقيق»، و«شجرة الليمون الملكية». حصل ساير على عدة جوائز أدبية أبرزها جائزة «نادال» عام ١٩٨٧.

المترجم

محمد الفولي، مترجم وكاتب وصحفي مصري ولد عام ١٩٨٧. ترجم نحو ٢٠ عملًا من الإسبانية إلى العربية، أغلبها لمؤلفين من دول أمريكا اللاتينية.

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.

٣٣. سولاريس - ستانيسواف لم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.

٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.

٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٩. بندقية صيد - ياسوشي إينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - آليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤١. سأبقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤٢. نادي القتال - تشاك بولانيك. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٤٣. ديرمافوريا - كريج كليفنجر. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٤٤. المولود من ذي قبل - خوان خوسيه ساير. ترجمها عن الإسبانية: محمد الفولي.

هوامش

(1) شعب همجي خيالي، تحدث عنه هيرودوت ووصفه بأنه من أكثر الشعوب وحشية، وقال إنه من آكلي لحوم البشر. (المترجم).

(2) المقصود هو الاستمناء، وأونان شخصية في الكتاب المقدس، وخطيئته هي بذر مَنِيِّه على الأرض. (المترجم).